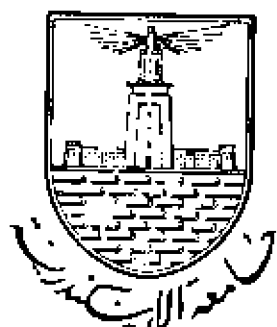


مجلة كلية الآداب



العدد الحادى والعشرون

١٩٦٧

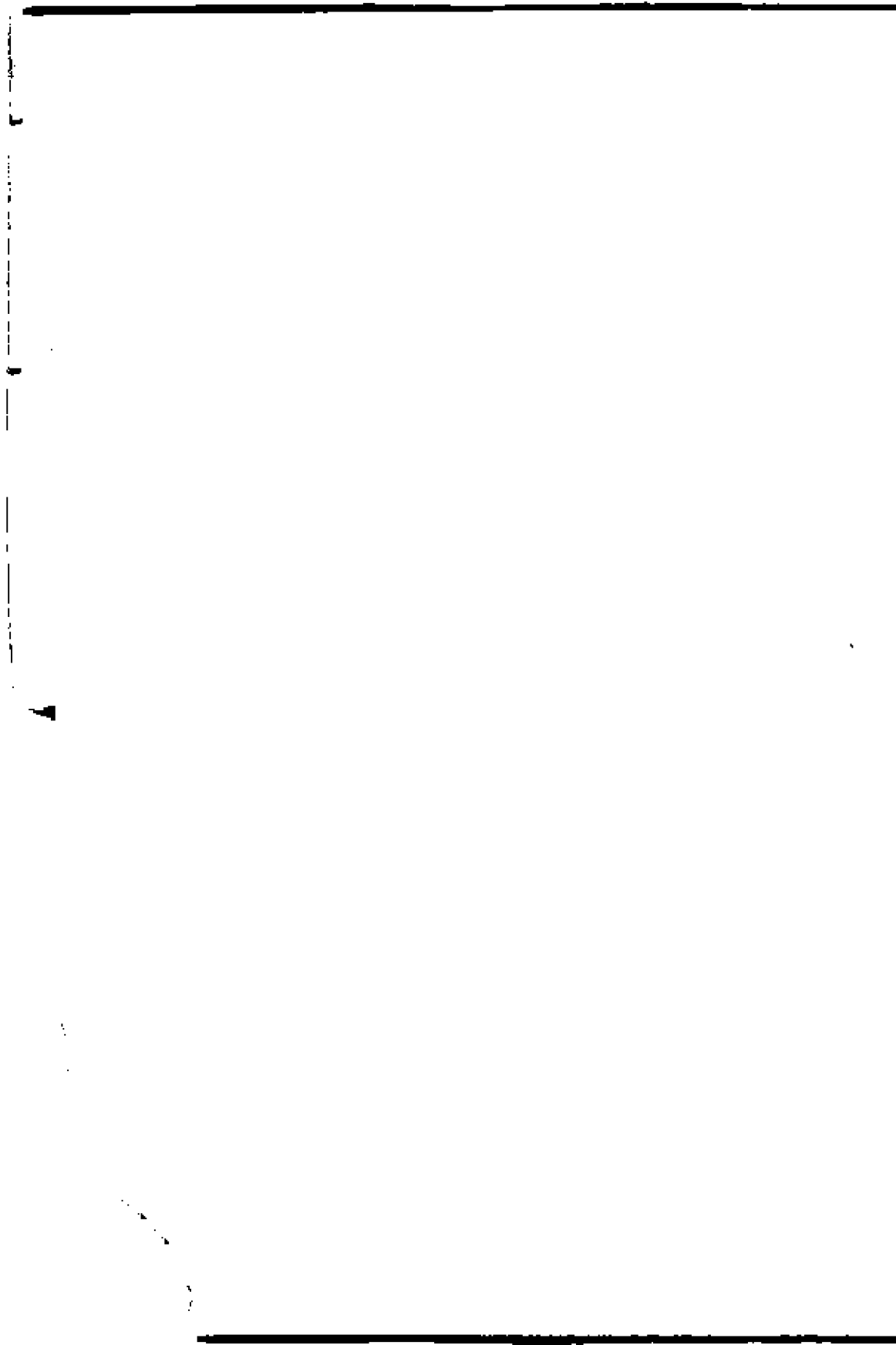
تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطى ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالنساجة العلمية إلى
هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٦٨

فهرس

الروذكى		صفحة
الدكتور طه ندا	١	٤٦ -
الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين		
الدكتور أحمد غنار العبادى	٤٧	٧٩ -
أبو تمام فى مصر		
الدكتور طه الحاجرى	٨١	١٨٠ -
المؤرخ وليم الصورى		
الدكتور عمر كمال توفيق	١٨١	٢٠٠ -
حول أهداف الجغرافية التاريخية واتجاهاتها الحديثة		
الدكتور عبد الفتاح محمد وهبىة	٢٠١	٢٢٤ -
بين القنن والبيئة فى كل من العراق ومصر فى عصورها القديمة		
الدكتور محمد أبو الحسن صفور	٢٢٥	٢٤٠ -
حول وضع مصر فى الامبراطورية الرومانية		
الدكتور مصطفى العبادى	٢٤١	٢٥١ -



المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشبال

(١٩١١ - ١٩٦٧)



في صباح الخميس ٢٩ رجب ١٣٨٧ هـ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، فقدت كلية الآداب بجامعة الاسكندرية عيدها الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشبال فققدت الكلية بذلك عالماً من علمائها المخلصين ورائداً من روادها الذين ساهموا في بنائها .

لقد قضى رحمه الله أكثر من ثلاثين عاماً يدرس التاريخ في معاهد وجامعات مصر

والوطن العربي . وأخذ عليه العلم أجيال متعاقبة من الطلاب الذين تأثروا بطريقته ومنهجه كما تأثروا بأخلاقه وروحه العالية . ولقد كون مدرسة كبيرة في حقل الدراسات التاريخية الاسلامية . وكانت دراسة التاريخ عنده تنهج المنهج العلمي الصحيح القائم على الدراسة التحليلية المقارنة مما أعطى لأبحاثه العديدة طابع الأصالة والجدة . وقد قدم للمكتبة العربية مجموعة من أجل البحوث والتحقيقات الدقيقة . كما نشر مجموعة من المخطوطات الفريدة في التاريخ الاسلامي . وشارك مشاركة فعالة في معظم اللجان والمجالس والمؤتمرات التي تبني السياسة التعليمية والثقافية في الجامعات والمعاهد العليا .

وقد قلرت الدولة قلره وفضله على العلم فنتحه جائزتها التشجيعية في ١٩٥٨ ووسام العلم من الدرجة الأولى عن كتابه "مجموعة الوثائق الفاطمية" . وكان الفقيد - رغم أعبائه الكثيرة - يحرص على طلب الرحلة إلى الأقطار

العربية والإسلامية ، وهو تقليد جرى عليه علماء الإسلام الأقدمون ، حرصاً منه على تطبيق مبدأ الملاحظة العينية في كل ما يقوم به من دراسات في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ العرب بوجه خاص . وحسبنا أن نستعرض بإيجاز انجازاته العلمية الخصب التي كانت موضع تقدير علماء الشرق والغرب :

الانتاج العلمي

كتب مؤلفة

(١) باللغة العربية :

- ١ - رفاة الطهطاوى «مجموعة أعلام الإسلام» ، القاهرة ١٩٤٥ .
- ٢ - مصر والشام بين دولتين ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٣ - مجمل تاريخ حماط ، الاسكندرية ١٩٤٩ .
- ٤ - تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٥١ .
- ٥ - تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٦ - الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور
القاهرة ١٩٥٢ .

٧ - الديرة (١) ، أسبابها ونتائجها (ترجمة عربية للفصل ٨٤ بقلم المؤرخ G. G. boulton من الموسوعة التاريخية «تاريخ العالم»

(The Universal History of the World. edit. by :

Sir J. A. Hammerton.)

(والموسوعة من مطبوعات وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) القاهرة ١٩٥٧

٨ - الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث
(مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة)

الجزء الأول (بلاد العرب والهند) القاهرة ١٩٥٧

(١) نشرت هذه الترجمة كلاك في (مجلة الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١١ ، ١٩٥٧)

- ٩ - الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامي الحديث
الجزء الثاني (مصر والثام) ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٠- مجموعة الوثائق الفاطمية * مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية (الجزء الأول القاهرة ١٩٥٨ طبعة ثانية ١٩٦٥ .
- ١١- التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٨
- ١١- رفاعه رافع الطهطاوى (مجموعة نوايع الفكر العربي) القاهرة ١٩٥٨
- ١٣- قصة الكفاح بين العرب والاستعمار (بالاشتراك مع الاستاذ محمد
سعيد العريان) القاهرة ١٩٦٢ .
- ١٤- مصر في العصر الفاطمي (فصل من موسوعة تاريخ الحضارة
المصرية ، المجلد الثاني مطبوعات وزارة الثقافة) القاهرة ١٩٦٣ .
- ١٥- أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٦- دراسات في التاريخ الاسلامي ، بيروت ١٩٦٦ .
- ١٧- تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي ، الاسكندرية
سنة ١٩٦٧ .
- ١٨- تاريخ مصر الاسلامية (الجزء الأول من الفتح العربي إلى نهاية
العصر الفاطمي) - الاسكندرية ١٩٦٧ .
- ١٩- تاريخ مصر الاسلامية (الجزء الثاني : العصران الايوبي والمملوكي)
الاسكندرية ١٩٦٧ .
- ٢٠- علم التاريخ عند العرب وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي
على عصر النهضة تحت الطبع
- ٢١- أبو بكر الطرطوشي (مجموعة أعلام العرب) - تحت الطبع
- ٢٢- جمال الدين بن واصل وكتابه مفرج الكروب في أخبار أيوب
(رسالة دكتوراه لم تطبع بعد)

(ب) باللغة الانجليزية :

23 — A History of Egyptian Historiography in the 19th Century. (Alexandria University Publications) Alex., 1962.

24 — Historiography in Egypt in the 19th Century, in (Historians of the Middle East, edit. Bernard Lewis and P. M. Holt, Oxford University Press, London, 1962.)

25 — Some Aspects of the Intellectual and Social Life in 18th Century Egypt, in (Political and Social Change in Modern Egypt, edit. P. M. Holt, Oxford University Press, 1967) .

كتب محققة من التراث العربى القديم

١ — اغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقرئى — الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٠ (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة) الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

٢ — نحل عبر النحل للمقرئى ، القاهرة ١٩٤٦ .

٣ — اتعاظ الخفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء للمقرئى ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

٤ — الذهب المسبوك بذكر من حجج من الخلفاء والملوك للمقرئى ، القاهرة سنة ١٩٥٥ .

٥ — مفرج الكروب فى أخبار نبي أيوب لجمال بن واصل (مطبوعات وزارة الثقافة) الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ .

٦ — الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧ .

٧ — الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٠ .

٨ — حلية الزمن لسيرة خدام الوطن (ترجمة حياة رفاعة الطهطاوى) لصالح مجدى ، القاهرة ١٩٥٨ .

٩ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لبهاء الدين بن شداد ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٠- انعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء (النسخة الكاملة)
للعقريزي (مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية) الجزء الأول - القاهرة
سنة ١٩٦٧ .

١١- أنيس الجليل في تاريخ مدينة تنيس لمحمد بن أحمد بن بسام
التنيسي ، بغداد ١٩٦٧ .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وألهمنا جميعاً أهل الصبر .

المرحوم الدكتور محمد أحمد أبو الفرج

(١٩٢٥ - ١٩٦٧ م)



في يوم الخميس ، التاسع من نوفمبر
سنة ١٩٦٧ م ، مضى إلى جوار ربه ،
بعد اثنين وأربعين عاماً كانت قد بدأت تمحل
بالتضج والاكتمال ، فترك برحيله فراغاً
في كلية الآداب ، وفراغاً في قسم اللغة
العربية ، وفراغاً في المدرس اللغوي على
وجه الخصوص .

والمتبع لتطور الدراسة الجامعية منذ
نشأها حتى الآن يعلم أن الذين يقفون حياتهم

على المدرس اللغوي للعربية قليلون ، على خطورة هذا المدرس وأثره في الحياة
الاسلامية والعربية ، ومن ثم نلوك مدى الحسارة التي مني بها قسم اللغة
العربية بعد أن رحل عنه هذا العام الأستاذ الدكتور محمد أبو الفرج وكان
قد رحل قبله منذ سنوات الأستاذ الدكتور محمود المعران ، وكانا - رحمهما
الله - قد أمضيا شباهما في الدراسة اللغوية ، وبدأت جهودهما توثق ثمازها
في هذا الميدان .

حصل الفقيه على الليسانس بمرتبة ممتاز سنة ١٩٤٨ ، وحين عين معيداً بالقسم
اختار العلوم اللغوية لتكون مجال تخصصه ، وكانت المناهج الأوربية في هذه العلوم
قد بدأت تفد على يد بعض الأساتذة الذين درسوها في الخارج ، وقد توافرت

لأنى الفرج - رحمه الله عليه - فرصة مرافقة الأستاذ فيرث رئيس قسم اللغويات بجامعة لندن حين كان يزور - لفترة - جامعة الاسكندرية . وانطلق النقيذ يدرس العربية على ضوء هذه المناهج ، فقدم للجامعة الاسكندرية رسالته الماجستير عن « الاستفهام في اللغة العربية على ضوء الدراسات اللغوية الحديثة » . حيث حصل على درجتها سنة ١٩٥٣ . ثم أوفد في أجازة دراسية إلى إنجلترا ، ودرس في جامعة لندن على الأستاذين فيرث وميتشل أصول العلوم اللغوية في تطورها الأخير ، وحصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه سنة ١٩٦٠ في موضوع « لهجة طهواي » ، القرية التي ولد فيها .

وعاد ليشارك في تدريس العلوم اللغوية بقسم اللغة العربية ، ثم أعير إلى جامعة بيروت العربية حيث أمضى أربع سنوات نشر فيها كتابيه « المعاجم اللغوية » ، و « مقلمة للدراسة فقه اللغة » .

والكتابان - بلا ريب - مساهمة جادة في بناء الدرس اللغوي للعربية ، فالكتاب الأول يقدم تناولا جديداً للمعاجم اللغوية « في ضوء دراسات علم اللغة الحديث » عرض فيه لماهية المعجم والمعاجم العربية ، ولغتها ، وترتيب موادها ، وشرح معانيها ، الصوتية والنحوية والصرفية ... الخ .

أما الكتاب الثاني فهو محاولة قيمة لعلها تحسم كثيراً من الخلط الذي يتناول به غير واحد مادة « فقه اللغة » حين يكون فيها أو حين يلقونها في قاعات الدرس . وحسب هذا الكتاب - أن الباب الخامس فيه يوضح الحدود - العلمية لدراسة فقه اللغة كما يفهمها المعاصرون .

والكتابان من نشر دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٦٦ .

وقدم النقيذ أيضاً بحثاً موجزاً عن « اللغة والمجتمع » كان قد ألقاه ضمن سلسلة محاضرات الجامعة العامة سنة ١٩٦٦ .

وتوفي رحمه الله أستاذاً ماعداً ، وعاد ليدفن حيث ولد في قريته .. طهواي .

بسم الله الرحمن الرحيم

الرودكى

للكثرة طه نرا

اختلف المؤرخون كثيراً في اسم الرودكى ونسبه . ومن بين اختلافاتهم نرجح أنه أبو عبد الله جعفر بن محمد الرودكى (١) .

وقد بلغ الرودكى من علو الشأن مبلغاً عظيماً حتى كان يلقب ألقاباً مختلفة كالأستاذ ، وسلطان الشعراء ، والحكيم إلى غير ذلك من الألقاب التي تدل على مكانته لدى أهل الأدب وكتاب التذاكر .

وينكر سعيد نفيسى أن يكون الرودكى قد لقب بمثل هذه الألقاب العربية لأنها في رأيه لم تكن شائعة في عهد السامانيين ، فقد كانوا كما يقول متعصبين للتاحية الإيرانية ولم يلقب واحد من أمراء البلاط الساماني أو الصدور والوزراء بهذا المعنى (٢) . ولا أدري كيف بنى نفيسى استنتاجه هذا ؟ وكيف فاته أن الألقاب العربية كانت مستعملة في عهد الدولة السامانية وكان يلقب بها الأمراء أنفسهم ، فالأمير أحمد والد نصر حين قتل لقب بالشهيد ، ونصر ولده يلقب بالصعيد ، ونوح بن نصر كان يلقب الحميد ، ومنصور بن نوح لقبوه السيد . وهكذا ترى أن الألقاب العربية كانت مستعملة في هذا العصر ، وبلغ من انتشارها ورواجها أن الأمراء أنفسهم كانوا يلقبون بها . هذا فضلاً عن أن السامانيين لم يكونوا متعصبين

(١) المصادر التي أبدت هذا أكثر جنداً ، وأوثق مادة ، وأتمم هذا

(٢) أسرار وأشعار رودكى ، ص ١٦٦ ط بهران

للتأحية الإيرانية إلى الحد الذي يصوره نفيسي ، فإنهم وإن كانوا قد اهتموا بها ودعوا اليها لم يقضوا على التأحية العربية ولم يضطهدوها . وآية هذا أن كثيراً من الشعراء قالوا الشعر في هذا العهد باللسانين : وإن بعض شعراء الأمير نفسه كالمرادى كان يقول الشعر في مدحه بالعربية وينال عليه جائزة الأمير (١) .

ويمكن أن نعتبر اشتهار الرودكى بنسبته هذه سبباً قوياً لإهمال اسمه الأصل مما أدى بعد ذلك إلى الاختلاف فيه .

وكما اختلفوا في اسمه وكنيته اختلفوا كذلك في نسبه . وفيما يلي أمثلة من اختلافهم في هذه النسبة :

١ — فدولت شاه صاحب تذكرة الشعراء يذكر أنه سمى الرودكى لأنه كان يجيد العزف على الرود أو الربط وهو آلة من آلات الموسيقى كان له فيها مهارة عظيمة (٢) .

٢ — يذكر حوفي في لباب الألباب أن الرودكى نسبة إلى بلدة رودك من نواحى سمرقند (٣) . وهناك من يذكر أن رودك من أعمال بخارى (٤) . وهناك من ذكر أنها من نواحى نسف (٥) . ويذكر السمعاني أن الرودكى نسبة إلى «رودك» من نواحى سمرقند وبها قرية يقال لها «بنج» وهذه القرية قطب رودك . وهى على فرستين من سمرقند . والمشهور منها الشاعر المليح القول بالفارسية السايبر ديوانه فى بلاد العجم أبو عبد الله جعفر الرودكى (٦)

(١) بتيمة الشعر - ترجمة المرادى : ص ١٧١/٤ ط الصاوى ١٩٣٤

(٢) تذكرة الشعراء من ١٨ ط بمبلى

(٣) لباب الألباب ج ٢

(٤) تذكرة الشعراء : من ١٨ ط بمبلى

(٥) مجمع القصص : ص ٢٣٩/١

(٦) الانساب : ٢٦٢ ط مارجليوث

ومهما يكن خلافهم في موقع رودك هذه فإن المسلم به أنها قرية وأن الشاعر منسوب إليها .

ومناقشة الرأي الأول القائل إن الرودكي نسبة إلى رود (١) كما ورد في دولتشاه ومجمع الفصحى نرى أنه جائز أن تكون الكاف الزائدة هنا هي الكاف التي يضيفونها للتصغير ثم ألحقت بالكلمة بعد ذلك ياء النسبة العربية . ولكن في هذا الرأي تكلف ظاهر . ولذا كان من الأصح أن نؤيد نسبته إلى رودك التي هي البلدة . ونسبة الناس إلى أوطانهم أمر شائع في كل زمان .

بقى بعد ذلك أن أنسر سبب الاختلافات في موضع رودك . وهذه الاختلافات تنحصر في اعتبار رودك ناحية من نواحي واحدة من هذه المدن الثلاث : سمرقند وبخارى ونسف . فإلى أى واحدة من هذه المدن يمكن أن نضيفها ؟ إذا ألقينا نظرة على الخريطة وجدنا أن بخارى وسمرقند تتحاذيان تقريباً تحت خط عرض ٤٠ . وأما نسف فتقع جنوبهما تحت خط عرض ٣٩ متوسطة في المسافة بينهما . أى أن المدن الثلاث تكون مثلاً مقلوباً متساوي الأضلاع تقريباً رأسه في نسف وزاويته اليمنى في سمرقند واليسرى في بخارى (٢) . وإذا عرفنا هذا الموقع الجغرافي للمدن الثلاث سهل علينا تفسير هذا الاختلاف فلا شك في أن رودك كانت في موقع متوسط بين هذه المدن داخل المثلث ولهذا اعتبرها بعضهم من أعمال بخارى ، واعتبرها البعض الآخر من نواحي سمرقند ، واعتبرها فريق ثالث من بلاد نسف . ولذلك التحديد نرجع إلى نص السمعاني السابق فزاه قد حدد المسافة بين رودك وسمرقند بفرسخين وما دامت المسافة بين رودك وسمرقند فرسخين فهي قطعاً أقرب إلى سمرقند ومن هنا يجب أن نعتبرها من أعمال سمرقند .

وقد نسب الرودكي إلى قرية رودك لأنه ولد ومات هناك (٣) .

(١) الرود هو الطيور والورد وكذلك اليربط .

(٢) راجع مثلاً الخريطة رقم ٩ في كتاب Le Strange من بلدان الخلافة الشرقية .

(٣) السمعاني : ص ٩٢ و ٢٦٢ .

ولا يغير من هذا بطبيعة الحال قول السمعاني انه ولد في بنج فالظاهر من كلامه أن بنج هذه جزء أو حي أو ناحية من نواحي رودك .

ولا نعلم على وجه التحقيق في أي سنة كان مولد الرودكي . ولكن السمعاني يذكر أنه مات سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م (١) . ونعلم أيضاً أن عدداً من معاصريه الشعراء المعروفين كشهيد البلخي ومرادى قد سبقوه في الرحلة إلى العالم الآخر حتى أنه رثاهم . وعندنا إلى جانب هذا كله مجموعة من أشعاره يصف لنا فيها ما أصابه في شيخوخته من تساقط الأسنان التي كانت في لمعنها وبياضها كالمصابيح المنيرة وما أصابه من الضعف حتى لم يعد يقوى على الذهاب إلى المدوح لمحبه نفسه فيرسل إليه المديح من بعيد (٢) إلى غير ذلك من المعاني التي تعبر عن الشيخوخة . ومثل هذه الشيخوخة لا تكون غالباً الا قريبا يقارب الثمانين . وعلى هذا إذا نقصنا ثمانين عاماً من تاريخ وفاته وهو ٣٢٩ هـ لوجدنا انه ولد حوالي سنة ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م أي في منتصف القرن الثالث الهجري .

وبهذا بعد ذلك أن نعرف كيف قضى الشاعر الفترة الأولى من حياته التي امتدت حتى نهاية القرن الثالث ، وهي الفترة التي سبقت اتصاله بالأمير نصر بن أحمد الساماني .

نشأة الشاعر :

نشأ الرودكي في رودك وبها حفظ القرآن حتى أنه في سن الثامنة فيما يقال . وكان على جانب كبير من الذكاء ، وحدة الذهن ، وحسن الصوت مما وجهه إلى تعلم الموسيقى والغناء حتى برع فيهما إلى جانب براعته في الشعر .

(١) السمعاني : ٢٦٢

(٢) راجع ص من هذا البحث

وكان الوردكى كفيفاً في طفولته . ويرى بعض أصحاب التراجم أنه ولد هكذا . وعرفي يذكر أنه ولد أعمى ولكنه كان ذكياً فهما بحيث أنه أتم حفظ القرآن في الثامنة . ويذكر عنه أيضاً أنه لم يكن ذا بصر وإن كان ذا بصيرة . ويتحدث عنه كذلك فيقول إن عينه الظاهره كانت مقفلة ولكن عينه الباطنة كانت مفتوحة (١) .

وفي كلام مجمع النصح ما يبدو أنه كان كفيفاً في طفولته . ولم ينص المؤلف على أنه ولد بهذه العاهة . وفي هذا احتمال اصابته بالعمى بعد ولادته أي أثناء فترة الطفولة . ويقول في هذا الشأن صاحب مجمع النصح : « على أي حال فقد كان مكفوفاً في أيام طفولته » (٢) .

وسعيد نفيسي ينكر الرأي الأول ويعيل إلى الثاني . ويذكر نفيسي أن هناك من أشعار الوردكى ما يدل على أنه لم يولد أعمى (٣) . ومن هذه الأدلة التي يستخرجها نفيسي من أشعار الوردكى تلك التشبيهات التي تروى في شعره . فهو يشبه مثلاً وجه الشمس الذي يبرز بين حين وحين من خلال السحب بالحبيب المحاصر الذي يتحين الفرصة ليفلت من الرقيب (٤) . ويشبه شقائق النعمان في حمرة ما وهي تضحك في المزرعة من بعيد بكف العروس التي خضبت بالحناء (٥) . ويشبه فم المحبوبة بشفتيه الجمائين الحراوين بحبه رمان صغيرة انشطرت شطرين (٦) . وينكر سعيد نفيسي على أعمى أن يعرف هذا التشبيه الأخير . وفي موضع آخر يتحدث الوردكى فيذكر أنه رأى الشمس في الفجر عندما طلعت ، وأنها كانت تسرع من خراسان نحو الشرق (٧) .

(١) لباب الآداب : ص ٢/٦ ط ليدن

(٢) مجمع النصح : ١/٢٢٩

(٣) أسرار وأشعار وردكى : ٢/٥٥٠

(٤) خورشيد را ز ابردمه روی گاه گاه چونان حصارى كه كفر دارد از رقيب

(٥) لانه بيان كشت بخند همى زدور چون بنجه هروس بخت شده خضيب

(٦) وآن دهن تلك تو كووى كسى دانككى ناز دور ليم كرد

(٧) مهر ديدم باسدادن چون بيافت از خراسان سوى بخور مى شدافت

ويتهى نفيسى من هذه الأدلة ومثلها إلى أن الرودكى لم يولد أعمى ، وإنما
عمى فى أواخر أيامه .

ومن اعتمد عليهم نفيسى فى الوصول إلى هذا الرأى المتينى فى شرحه
على تاريخ إيمىنى الذى يقول ان الرودكى سمل فى أواخر عمره (١) . ومن
أبد هذا الرأى أيضاً بديع الزمان بشرويه خراسانى (٢) .

ونناقش فيما يلى الآراء لتخلص إلى الرأى الذى نرجحه من بينها :
أما الرأى الأول والثانى القائلان انه ولد أعمى أو أصيب بهذه العاهة
فى طفولته فبعيد الاحتمال للأسباب الآتية :

ان المصادر الموثوق بها لم تجمع على هذا فلم يشر السمعاني فى الأنساب
ولا النظمى فى چهار مقاله - وهر من أقدم المصنفات - إلى شيء من هذا .

كذلك كان الرودكى ندباً للأمير نصر . وأول ما يشترط فى الندماء
سلامة الأعضاء وصحة الحواس . ولا يعقل أن يتخذ الأمير ندباً فيه مثل
هذا القصر ثم يكون له مع ذلك الشأن العظيم الذى كان للردكى فى البلاط .
ويؤيدنا فى هذا ما قاله صاحب مجمع الفصحا «وكان - أى الرودكى -
معروفاً بحسن الصوت وعلم الموسيقى وبالصفات الحسنة التى كانت تؤهلها
لمزادة السلاطين» (٣) .

وفى أشعار الرودكى - وسيرد نماذج منها فيما بعد - الدليل على أنه كان
جميل الحلقة حتى ان النساء كن يملن اليه ، وكن يزرنه سرراً متخفيات فى
ظلام الليل .

(١) شرح المتينى على تاريخ إيمىنى : ص ١/٥٢ ط مصر المعروف بالفتح الرسمى على
تاريخ العربى

(٢) سنن وسفثوران : ص ١/٢

(٣) مجمع الفصحا : ١/٢٣٦

ولم نجد في أشعار الرودكي ما يشير إلى هذه العاهة . ومع أنه قد شكّا السعادة المولية ، وانصراف الأمراء عنه ، وفقدان العافية ، وزوال النعمة إلا أننا لم نره يشكو من فقد البصر . وهذا يدل على أنه فقد بصره في أول آخر أيامه حين كثف عن الانشاد وقارب الوفاة .

وهو يد هذا أن الكلام عن عمى الرودكي لم يرد إلا عند الشعراء الذين عاصروا الرودكي في آخريات أيامه أو جاءوا بعده كالنديمي الذي يشير إلى ذلك في قوله : « كان يجب أن يظل شهيد حياً ، وكذلك هذا الشاعر المظلم العين المضنيء البصيرة حتى يانشدا في ملكي المديح من أشعارهما العذبة ومعانيهما المتألفة » (١) ، وكأبي زراعة المعمرى الجرجاني وكان من بين شعراء السامانيين أيضاً الذي يشير إلى عاهة الرودكي في هذه الأبيات :

« إذا لم أنل ما بلغه الرودكي من الثراء فلا تعجب فاني لا أقل عنه في قول الشعر وإذا كان قد رأى الدنيا وهو أعمى فلا أريد أن أسكون أعمى من أجل الدنيا » (٢) .

شباب الرودكي :

كان الرودكي في شبابه - كما يحدث هو عن نفسه - جميل الشكل ، حسن الخلقة . وفي هذا يقول مرجعاً الكلام إلى محبوبته التي أسرفت في الدلال :

كيف تعرف ياذا الوجه القمري والشعر المسكي
ما كان عليه حالى فيما مضى من بهاء ورواء (٣) .

وآن شاعر تيره چشم روشن بین
زا اشعار خوش و معانی رنگین
عجب مکن سخن از رودکی نه کم دانه
ز بهر کیتی من کور بود نتوانم
که حال بنده ازین پیش برچه سامان بود

(١) استاد شهید زنده بایستی
قائماً مرا مدیح گفتندی
(٢) اگر بدولت بد رودکی نریام
اگر بکوری چشم او بیفت کیتی را
(٣) می چه دانی ماهروی مشکین موی

وستاند من أشعاره أنه كان حالك الشعر ، وكانت تتلى منه خصل وطرر (۱) وكان مشرق الوجه ناعم البشرة جميلاً (۲) . وكانت أسنانه على درجة كبيرة من الصفاء كأنها المصباح المضيء أو الفضة والدروالمرجان (۳) ويظهر أنه كان - إلى جانب هذا - جميل العينين حتى أن حيون الحناوات كانت تتحير في حبها بينما كانت عيونه هوتتحير في جمال أولئك الحناوات (۴) . وعلى العموم كان يجمع إلى حسن الصورة حسن الصوت (۵) . وطبعي أن يجذب إليه هذا الحسن النساء اللاتي كن يملن إليه ويذرنه ليلا في الخفاء وكن في نظره شيئاً رخيصاً لمسولة الحصول عليهن (۶) . وكانت المودة بينه وبينهن متصلة وكانت أشعاره العذبة هي الرسائل المتبادلة بين الطرفين (۷) وكان في ذلك الزمان السعيد يتفق وقته بين الخائل مغنياً منشداً كأنه البلب (۸) يلهو ويلعب حراً طليقاً من كل قيد فلم تشغله في شبابه زوجة وبنون ولم يشغل كاهله ما يلزم الزوجة والبنين من كثرة النفقة (۹) . وكانت الحياة كلها في نظره هي الغناء والخمر والنساء .

شیخوخة الرودکی :

ولكن الأيام لا تدوم على حال واحدة . والشاب الذي يتمتع بشبابه اليوم يتحول غداً شيخاً باكياً على مآمر من شبابه . وهكذا تحول الرودکی من شبابه الذي نحدثنا عنه إلى شيخوخته التي نرى صورتها في الأسطر القادمة

- | | |
|--|--|
| (۱) بزلف چوکان فارش می کنی تو بر | (۱) بزلف چوکان زلف چوکان بود |
| (۲) شد آن زمانه که رویش بسان دیبا بود | (۲) شد آن زمانه که رویش بسان قطران بود |
| (۳) مرا بسود و زور ریخت هرچه دندان بود | (۳) نبود دندان لابل جراغ تابان بود |
| (۴) بسا نکند که سیران بلی بدو در چشم | (۴) بروی او در چشم همیشه سیران بود |
| (۵) بحسن صوت چو بلبل مقید نظم | (۵) بحرم حسن چو یوسف اسیر زندان بود |
| (۶) فبید روشن و دیده از خوب و روی لطیف | (۶) اگر کران بد زی من همیشه اوزان بود |
| (۷) دم خزانة پر کبج بود و کبج سخن | (۷) نشان نامه ما مهر و شعر عنوان بود |
| (۸) بد آن زمانه ندیدی که در چمن رفتی | (۸) مرود گریان کوفی هزار دستن بود |
| (۹) خیال نه زن و غرزد نه مشوقت نه | (۹) ازین ستم همه آسوده بود وآسان بود |

فالشعر الفاحم قد ابيض حين تقدمت به السن . أما الأسنان فقد تساقطت واحدة بعد أخرى ولم يبق منها شيء (١) وذلك الحسن والجمال الذى نحلى به فى شبابه كان ضيفاً عزيزاً لم تطل اقامته فذهب ولم يرجع (٢) . وتلك السعادة التى كان يتقلب فى أعطافها انقضت وخلفت مكانها الهم والغم (٣) . ثم ان المرأة والأولاد وكثرة النفقة قد أثقلت كاهله . وانصرف من حوله من كان يعجب بشعره من الأمراء والظماء . وقد أثر تقدم السن فى نشاطه وحركته فهو يمدح الأمير أبا جعفر بشعره ولكنه لا يستطيع أن يشخص اليه لضعفه وعجزه (٤) . وزال عنه ما كان قد جمعه من مال وثروة ، وواجه الفقر فى هذه السن المتقدمة وذلك الضعف . وفى بيتين مؤثرين يذكر الشاعر مجال لوه وأيام سعادته ويتعجب مما حل به فيقول :

كم سعدت وثملت فى هذا البيت
وكان جاهى أعرض من جاه الأمراء والملوك

والآن هاأنذا نفس ذلك الرجل والبيت هو نفسه وكذا المدينة
ألا تعدنى كيف تحولت أفراحي أفراحاً (٥)

كيف اتصل بالبلاط :

والآن بعد أن ذكرنا ما كان عليه الرودكى أيام الشباب ، وفرغنا من ذكر مجمل لما كانت عليه حياته الخاصة من لهر ومرح نحاول أن نعرف بعد ذلك شيئاً عما كانت عليه حياته العامة أو العملية وكيف بدأ اتصاله

-
- | | |
|---------------------------------------|--|
| (١) يكى نمائه كنون زآن هه بسرد وبریخت | (٢) چنانکه خوې مهان وهوس بود عزیز |
| بشدکه باز نیامد عزیز مهمان بود | (٣) شد آن زمانه که آر شاد بود وغرم بود |
| نشاط او بغزون بود ویم نقصان بود | (٤) یو فرتوت کشته سخت بودم |
| چنانکه جاء من افزون بد از آمیروملوک | (٥) یساکه مست درین خانه بودم وشادان |
| مرا نکون کزجه شده است شادی سوز | کنون همان وچانه همان وشهر همان |

في ذلك الوقت ببلاد السامانيين حتى بلغ أخيراً ما بلغه من المكانة في بلاد نصر بن أحمد .

لم تقدم لنا المصادر مادة كافية عن حياة الرودكي العامة قبل اتصاله ببلاد السامانيين . ولا يعدو - على أي حال - أن يكون قد اتخذ من انشاد الشعر ومزاولة فن الموسيقى صناعة له . ويرجح أن يكون الشعر الذي قاله في هذه الفترة قليل الأهمية فلم يهتم به المؤرخون كما لم يعرف عنه على وجه التحقيق أنه اتصل بأمير البلاد أو عظيم من عظمائها في هذه الفترة حتى يكون لشعره شأن .

وقد ولدت الدولة السامانية في حوالى الوقت الذي ولد فيه الرودكي وعلى هذا يكون الرودكي قد عاصرها من مولدها حتى وفاته . وكانت عاصمة الدولة السامانية في أول الأمر مدينة سمرقند حتى جاء اسماعيل بن أحمد فنقلها إلى بخارى . ويظهر أن الرودكي في سعيه وراء المال والشهرة هاجر أولاً من قريته رودك إلى سمرقند . فلما صارت العاصمة بخارى انتقل هو أيضاً إليها . ولا نعلم على وجه التحقيق أنه اتصل بالبلاد السامانية اتصالاً وثيقاً فيما قبل عهد نصر . ويبدو لي أن الذي مهد له السبيل في البلاد السامانية هو أبو الفضل البلعمي ، فقد كان أبو الفضل من الشخصيات المعروفة في البلاد السامانية من أيام اسماعيل . واستمرت مكانته تعلو في البلاد حتى ولي الوزارة في عهد نصر . وكان من المعجبين بالرودكي . وفي نص أورده السمعاني أنه كان يقول عنه : ليس للرودكي في العرب والعجم نظير ، (١) وهذا النص يدعونا إلى الاعتقاد بأن أبا الفضل البلعمي كان داعية للرودكي في البلاد من عهد اسماعيل فاستطاع أن يشق له الطريق حتى ثبتت أقدام الرودكي ، وتوطد مركزه في البلاد أيام نصر . وهذا هو التدرج الطبيعي والخط الذي سار فيه الرودكي .

(١) السمعاني : ٢٩٢ ط مرجعيات ١٩١٢

ولا شك في أن الرودكي يعترف بفضل البلعمي عليه حين يفضل على جميع الملوك ، ويشبه فضله بفضل الجواهر والياقوت على النقود الزائفة وذلك حين يقول :

مثل فضل الأمير أبي الفضل على جميع الملوك
مثل فضل الجواهر والياقوت على النقود الزائفة (١)

ولعل تعلق الرودكي بالبلعمي إلى هذا الحد كان سبباً فيما ناله من الآمنان في أخريات أيامه بعد أن عزل البلعمي من الوزارة عام ٣٢٦هـ / ٩٣٨م ولم يزل أحد من معاصري الرودكي من عظماء وأدباء المكانة السامية التي نالها هو في البلاط الساماني . ولعل هذا راجع إلى أنه انفرد دونهم بالنوغم في عدة ميادين منها الغناء والموسيقى وسعة الثقافة .

شعر الرودكي :

لم يكن الرودكي أول من قال الشعر الفارسي بعد الاسلام فقد سبقه إلى هذا شعراء آخرون ، ولكن الرودكي نال منهم هذا الاهتمام والشهرة لأنه أول شاعر كبير وصلنا الكثير من أشعاره . فحظظة البادغيسي المتوفى في حوالي ٢٢٠هـ / ٨٣٥م ، وأبو سليك الذي كان من معاصري عمرو ابن الليث من ٢٦٥ - ٢٧٨هـ / ٨٧٨ - ٨٩١م ، وشهيد البلخي الذي توفي قبل الرودكي ، وأبو العباس الرينجي الذي عاصر نصر بن أحمد سنة ٣٣١ - ٣٤٣هـ / ٩٤٢ - ٩٥٤م وغيرهم لم يصلنا من أشعارهم سوى النثر اليسير الذي لا يكفي للدراسة . ومن هنا جاءت أهمية الرودكي في تاريخ نشأة الشعر الفارسي الاسلامي . وإلى هذا يشير دولتشاه فيقول : «ولم نسمع قبله شاعراً صاحب ديوان . ومن ثم وجب أن نبدأ بالرودكي» (٢).

(١) جر فضل مير أبو الفضل برمه سلطان جر فضل كوهر وياقوت بر بهر يشير

(٢) دولتشاه : تذكرة اشعراء ص ١٨

وحين رأى الرواة ومؤرخو الأدب أن الرودكى هو الشاعر الوحيد من هذا العصر الذى بقيت له هذه المجموعة الطيبة من الأشعار قادم الاستنتاج إلى أن الرودكى لابد أن يكون قد قال من الأشعار شيئاً كثيراً جداً بالغوا فى عدده . وهم معذورون فى هذا لأنهم رأوا أن شهيدا البلخي - وكان شاعراً عظيماً ومعاصراً للرودكى - لم يبق من أشعاره سوى أبيات قليلة ، وأن أبا العباس الرينجنى وكان من شعراء هذا العصر المعروفين - لم يبق من أشعاره سوى أبيات معدودة تفرقت فى بعض كتب اللغة مثل «لغت فرس» لأسدى طوسى .

والحق على أى حال أن الرودكى قال شعراً كثيراً لم يرد إلينا منه سوى جزء ضئيل . ويكفيها فى هذا المقام أن نورد عبارة أحمد رازى الذى قال «ومع أن شعره - أى الرودكى - قد تجاوز الحد والعد إلا أنه فى هذا الوقت - أى وقت أحمد رازى - قد صار نظراً لقلته أعز من الياقوت الأصفر والكبريت الأحمر» (١) فإذا كانت هذه هى قلة أشعار الرودكى فى عهد أحمد رازى (٢) فكيف بها فيما تلاه من العهود ؟

أما لماذا لم يصلنا من هذه الأشعار قدر أوفر رغم ما كان للرودكى من المكانة الأدبية فهذا يرجع فيها أرى إلى أن جمع هذه الأشعار وتداولها جاء فى عصر متأخر مما أدى إلى ضياع بعضها ، وإلى اختلاط بعضها الآخر بأشعار قطران .

كان قطران هذا من شعراء العصر السلجوقى واسمه أبو منصور قطران التبريزى نسبة إلى تبريز التى ولد بها واشتهر وقد اتصل بكثير من حكام آذربيجان وعمال تبريز وأخصم أبو منصور وهودان بن ملان الذى ظل

(١) أحمد رازى : حقت انظم ورقة ٣٨ هـ (مخطوط)

(٢) كان أحمد رازى من أهل الرى . ويرى كثير من أفراد أسرته فى ميدان الأدب كأنه من بعضهم مناصب رفيعة وكان أبوه «خواجه ميرزا» أحد من انفرقين إلى إنشاء عليها سب اصفوى (٩٣٠ - ١٠٢٤/١٠٢٤ - ١٠٥٧ م) .

حاكماً على تبريز إلى حدود سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م وابنه مملان المعروف بأبي نصر . وفي سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م عين أبو نصر مملان حاكماً على آذربيجان من قبل طغرل بك ، وقد صحبه قطران ونال منه الصلات والعطايا التي أطلقت لسانه بالمديح في قصائد كثيرة . وكان التشابه في الاسم بين ممدوح الرودكي نصر بن أحمد ، وبين ممدوح قطران أبي نصر سبباً في اختلاط الأشعار .

ويذكر «دينسن روس» D. Ross في مقاله التي كتبها بالجملة الأسيرية عن ديوان الرودكي المنسوب اليه (٢) أن النسخ المعروفة منه ثلاث اثنتان في المتحف البريطاني (٢) والثالثة عنده . ويذكر أن شكه في صحة نسبة هذه الأشعار نولد عندما وجد أن القصيدة الأولى في هذه المجموعة هي نفسها القصيدة التي كان «شفر» قد نشرها في الجزء الثاني من المتتبعيات الفارسية *Chrestomathie Persane* ونسبها هناك إلى قطران . كما أنه — أي روس — وجد فيها بعد في نسخته الخاصة من ديوان الرودكي المرتبة التي كان قطران قد قالها بمناسبة الزلزال الكبير الذي حدث في تبريز سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م . وقد نشرها أيضاً «شفر» وهذه الأدلة تكفي وحدها كما يرى روس لتقرير أن ما جاء في هذه المجموعة من أشعار الرودكي نسب إليه خطأ .

ولروس رأي آخر في هذا الخلط بين أشعار الرودكي وقطران فهو يرى أن هذا الخلط قد حدث قصداً لا عنفاً ، ذلك أن رجلاً من أهل الأدب الفرس قد عز عليه أن يجد ما بقي من أشعار الرودكي قليلاً فانتقى أحسن ما في ديوان قطران من القصائد التي تحوى اسم أبي نصر وضمها إلى القصائد القليلة الباقية للرودكي التي لم يرد فيها اسم ممدوح الرودكي نصر بن أحمد . وهكذا جمع هذا الرجل للرودكي ديواناً (٣) .

(١) عدد المجلة الأسيرية الصادر في أكتوبر ١٩٢٤ وموضوع المقالة «الرودكي والديوان المنسوب اليه» .

(٢) Or 7894 — Or 3246

(٣) المجلة الأسيرية : أكتوبر ١٩٢٤ مقالة روس ص ٦٦٦ J. R. A. S.

وإذا جازينا روس في استنتاجه فالمعقول أن يحدث هذا الخلط عفواً لا قصداً . والأرجح أن ذلك الذي نسب أشعار قطران إلى الرودكى كان مدفوعاً بدافع من الاجتهاد حين رأى أن هذه القصائد قد ورد فيها اسم أبي نصر ولم يرد فيها اسم ممدوح غيره ، فظن مجتهداً أنه نصر ممدوح الرودكى . ومن هنا يكون الخلط عفواً . ولست أتبين من كلام روس وجه المصلحة في أن ينسب هذا الرجل قصائد قطران إلى الرودكى وهو عالم حقاً بما يفعل .

وهذا الرأي الذي رأيته من أن هذا الخلط قد جاء عفواً يؤدي في إلى الاعتقاد بأن أشعار قطران هذه التي نسبت إلى الرودكى لم يكن أمر نسبتها إلى قطران مؤكداً ، ولم يعرف أهل الأدب صاحب هذه الأشعار معرفة مؤكدة وهذا هو السبب الذي حمل بعض أهل الاجتهاد على نسبتها إلى الرودكى .

المدح عند الرودكى :

وما دام الرودكى شاعر بلاط فلا بد أن يكون المديح هو الفن الأول واثقون الأغلب في شعره .

وشخصية الأمير هي أولى الشخصيات التي يوجه إليها الشاعر مدحه . ولكننا بالأسف لم نثر له إلا على أبيات محدودة يمكن أن نطمئن إلى أنه قد مدح الأمير بها حقاً . وليس هناك أي دليل يدلنا على أن الأبيات الأخرى التي وردت في المدح إنما عني الشاعر بها الأمير نصر بن أحمد لا من سياق الحوادث ولا من نفس النص . والغريب أن الشاعر قد بقيت له قصيدة طويلة في مدح أبي جعفر — الذي كان حاكم سيستان من قبل الأمير — وسيرة الكلام عنه . ويمكن أن تكون العوامل السياسية سبباً في قلة ما بقي من أشعار الرودكى في مدح الأمير نصر ، فقد كان نصر بن أحمد علماً على نهضة دولة سياسياً وأدبياً . ومن المحتمل أن يكون سقوط دولته بعد ذلك وانتصار أعدائه سبباً في إخفاء ما كان له من مناقب وما قيل فيه من مدائح ، كما أن نصر الآخر — أعني نصر بن مملان ممدوح قطران — كان سبباً هو الآخر

لنشابه الاسم فيما وقع فيه الرواة والمؤرخون من الخطأ الذي أدى إلى الامتزاج بين مدائح المدوحين .

ومن الشخصيات البارزة التي مدحها الرودكى شخصية الأمير أبو جعفر حاكم سبستان . ولقد بقيت للرودكى قصيدة طويلة في مدحه تعد من أطول وأروع ما وصلنا من قصائد الرودكى مما يدل على مكانة الرجل وعظيم أهميته في الدولة وقتذاك . ويقول حمدالله المستوفى عنه ما موثقه أن الأمير نصرأ رأى يوماً في امرأة شاباً جليلاً عليه أمارات العظمة فسأله عن اسمه وعن أصله وأمنه على نفسه فقال إن اسمه أحمد وأصله من بني ليث فرق قلب الأمير نصر لحاله ، وطيب خاطره ، ومنحه الأموال ، وزوجه إحدى قريباته وولاه إمارة سبستان وبقيت إمارة سبستان حتى النهاية في عقبه (١) .

وقد كتب عنه «تاريخ سبستان» بعض التفاصيل يمكن أن نخرج من مجملها بأنه ينتمى إلى بني ليث ، وأنه ولد يوم الاثنين لأربعة بقيت من شعبان سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م . وكان له عقل الشيوخ وكانت تبدو عليه أمارات العظمة ، وقد حصل كثيراً من العلم . فلما ثار أهالي سبستان على واليهم عزيز بن عبد الله حل محله في الولاية وكان ذلك سنة ٣١١ هـ . وازدادت على مر الأيام محبة الناس له ، وقيل أنه كان على درجة من الشجاعة لا تدانى حتى استطاع التغلب على أعدائه الكثيرين أمثال عزيز بن عبد الله .

وكان يوزع وقته بين الجهد واللهو ، فجعل وقتاً للصلاة والتلاوة ، ووقتاً للهو والشراب ، ووقتاً لتنصيف أمور الملك ، ووقتاً للراحة والاستجمام .

وكان من أعداء الدولة الخطرين الذين استطاع أبو جعفر أن يتغلب

(١) تاريخ كريد : ٥٨٢ ط . براون ١٩١٠

عليهم ما كان ابن كالى . وقد احتال عليه أبو جعفر حتى استطاع رجاله أن يقبضوا عليه ويحضره اليه في سجنان ويحملوا خزانته وأمواله .

ولما وصل إلى الأمير نصر خير ظفر أبي جعفر بما كان أعجب بهمه وشجاعته . وأرسل اليه هدايا عظيمة .

وكان الرودكى قد قال شعراً في هذه المناسبة وأرسله اليه ليعجزه عن الذهاب بنفسه ولتقدم منه في ذلك الوقت .

وقد قتل أبو جعفر بيد جماعة من خلعهم اتفقوا على ذلك وكان مقتله ليلة الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة للهجرة (١)

والمديح من أقدم فنون الشعر الفارسي الاسلامي . ذلك لأن هذا الشعر نشأ في كنف القصر والبلاط فكان طبيعياً أن يتجه الشاعر أول ما يتجه إلى مدح الملك الذي يرعاه ويرعى غيره من الشعراء ويفسح لهم في بلاطه وقصره . وقد برز الرودكى في هذا الميدان - ميدان المديح - وشهد له غيره من الشعراء بالاجادة والتفوق . وكان الرودكى يعرف لنفسه هذا التفوق حتى انه كان يقرن نفسه بجرير والطائي وحسان ومهتان .

وفيما يأتي نماذج من شعره في مدح الأمير نصر :

يقول الرودكى (٢) :

أنت في السخاء حاتم الطائي

وأنت في المعركة رسم هستان (٣)

لا. ليس حاتم جواداً إذا قيس بك

لا. وليس رسم رجلاً إذا تحارب معك (٣)

(١) تاريخ سبستان : ٣١٠ - ٣٢٦ نشر م.ار

(٢) أحوال وأشعار رودكى : ٢/٩٨٨

(٣) حاتم طائي ثورق اندر سخا رسم هستان ثورق اندر ويرد

(٤) في كه حاتم نيست باجورد تو راد في كه رسم نيست درجنگ تو مرده

ومن أبيات أخرى له يرجع أن تكون في مدح الأمير قوله (١)
 يعيش طويلا ذلك الملك العظيم
 لتكون روحى رهينة روحه (٢)

ليس بين الملوك شاب مثله
 حر فصيح جنود عاقل (٣)

لا يقدر أحد مدى شجاعته
 ولا يعلم الناس مبلغ كرمه (٤)

يده تنثر الذهب ولسانه يفيض بالدر
 لم يلدع اسمه في الدنيا عبثاً (٥)
 مهما يجتهد الشعراء في المديح
 فلن يقدموا الأشعار للمدح مثيل له (٦)

من يرغب في الدنيا الخزيعة والشقاء
 سوى حاسد للأمير على نعمته (٧)
 أيها الملك لتدم لك من أحبابك المحبة
 أيها الفلك لتضحك دائماً من حال أعدائه (٨)

آخر شعري ذلك الذي قلته أولاً
 يعيش طويلا ذلك الملك العظيم (٩)

(١) أسرار وأشعار رودكى : ٣/٩٨٩

(٢) دیر زیاد آن بزرگوار خداوند

(٣) از ملکان کسی چتر نبود جولانی

(٤) کسی نشاند می که کوشش آرجون

(٥) دست وزبان زر و در بر آید آردا

(٦) کرچه بکوشد شاعران زمانه

(٧) کیست بکشی خیر مایه ادبار

(٨) ای ملک از حال دوستش می ناز

(٩) آخر شعر آن کم که اول گفتیم

جان کرای بجانش اندر پیوند

راد و سهندان و شیر مرد و خرد مند

خلق نداند می که بخشش آوجند

سام بکشی نه از کزات پراگند

مدح کسی را کسی نکوید مانند

آنکه باقبال آر فیاض خرمند

ای فک از حال دشمنانش می شنند

دیر زیاد آن بزرگوار خداوند

أما قصيدته في مدح أبي جعفر فطويلة تكتفى منها بالمجموعة الآتية من
الآيات. يقول الرودكي (١)

لم يخلق من نسل آدم له مثل
وإذا صدقت فلن يكون له نظير (٢)

الخلق من تراب وماء ونار وريح
وهذا الملك من بريق جوهر ساسان (٣)

إذا كنت قصيحاً فاذكر مناقبه كلها
وإن كنت كاتباً فانتل مدامحه كلها (٤)

ذلك الذي إذا نظرت إليه نطقت بالحكمة
هذا هو سقراط اليونان وأفلاطونها (٥)

وإن كنت فقيراً تميل إلى الشرع
فهو الشافعي وأبو حنيفة وسفيان (٦)

يزداد منه أهل الأدب عقلاً وحكمة
ويزداد منه أهل العقل أدباً وإيماناً (٧)

لو رآه وقت الحرب اسفنديار
لجری واجباً مضطرباً أمام سثانه (٨)

ولو نازله في المعركة اله الحرب
أراهن أنه سيحول غذاء لسيفه (٩)

(١) أسواق وأشعار رودكي: ٣/١٠١١

(٢) أنك نبود از نژاد آدم چون او

(٣) خلق زخاک وز آب و آتش و بادند

(٤) اگر تو نصیحتی به مناب او کوی

(٥) أنك بدو بتکری بچکت کوئی

(٦) ورتو نقیبی وسوی شرع کرائی

(٧) مرد ادب را خرد فراید رسکت

(٨) و دش بدیدی سفتد باز که رزم

(٩) و در ببرد آیدش ستاره بهرام

نیز نباشد اگر فکوی چنان
وین ملک از آفتاب کوهر ساسان
ور تو دبیری همه مذاهیج او خزان
اینگ سقراط و هم افلاطون یونان
شافعی اینکت و بر حنیفه وسفیان
مرد خرد را ادب فراید و ایمان
بیش ستایش جهان دویدی و لرزان
نوشه شمشیر او شود بکروکان

وحسین مجلس للشراب
بجود بما لا یجود صاحب الربیع مثله (۱)

إذا قیست عطاياه التي یمنحها بالكفین
بالطوفان لبدا أمر الطوفان تاذها (۲)

لا جرم أن جعل جوده وسخاؤه
المدح غالياً والذهب رخیصاً (۳)

یقصدہ الشاعر فقیراً خلل الید
فیرجع بالذهب الكثير والأحمال (۴)

وحین یعدل بین الخلق
لا تری فی الدنیا مثله نبیلاً مسامحاً (۵)

یشمل عدله الضعیف والقوی علی السواء
ولا تری منه جوراً ولا عدواناً (۶)

لقد بسط نعمته علی الدنیا کلها
فلاتری رجلاً عاریاً من نعمته (۷)

کل بائس فی الدنیا یجد عنده الراحة
وکل مریض فی العالم یجد عنده العلاج (۸)

ابر بهاری جنر نیارد باران
خوار نماید حدیث وقصه طوفان
روح کوفته مدیح وسمات اوزان
با زر بسیار باز کردد و حلال
نیست بکسی جنر نبیل و مسلمان
جور نبی بزرگ از و نه عدوان
نتیجه کس از نعمتش نبی مریان
نمستہ کتی ازو بیاید درمان

(۱) باز بد آنکه که می بقست بهیچود
(۲) بندو کف از زین هطاکه بیخشه
(۳) لاجرم از جود و از سخاوت او نیست
(۴) شاعر زی او درود فقیر و تهی دست
(۵) باز چنانکه داد و عدل بر خلق
(۶) داد بیاید ضعیف و مجوقوی روی
(۷) نعمت او کثرتیده و همه کتی
(۸) بست کتی ازو بیاید راحت

ای رودکی اطومدح کل الخلق
وترنم بمدحه ونل عطاه (۱)

هذا هو مدحی الذی بلغه جهدی
لفظة عذب كله ومعناه أيضاً مبل (۲)

یمعزنی أن أشهد الأمير ما یاتی به
مع أنى فی الشعر جریر والطائی وحسان (۳)

طالما شکوت مظهر من عجزی فی مدحه
ولو أنى فی الفصاحة قرین مسحبان (۴)

لا تعجب إذا أصبح الرودکی فی مثل هذا المقام
مبهوتا وبقي ساکناً حیران (۵)

تسلم دولة أمیری فی ارتفاع وازدیاد
ولندم دولة أعدائه فی انخفاض ونقصان (۶)

وإذا راجعنا أشعار الرودکی فی المديح وأخصها قصیدته التي أوردناها
له فی مدح الأمير أبی جعفر نلاحظ :-

۱ - البعد عن الإغراق فهو یصف بمدوحه بكثير من الصفات
الحسنة التي هی فی حد ذاتها طبیعیة ومعقولة . وقالما نرى فیها شیئاً من الاستحالة
بالنسبة للبشر فهو یقول عن مدوحه مثلاً إنه کالشافی فی الفقه وأنه یشبه
سقراط وأفلاطون فی الحکمة ، وأنه شجاع لا یری فارس مثله فی الشجاعة .

-
- | | |
|----------------------------------|------------------------------|
| (۱) رودکی بر لورد مدح هم خلق | سخت از گوی و مهر دولت بستان |
| (۲) اینک مدحی چنانکه طاقت من بود | لفظ هم خوب و هم بمن آسان |
| (۳) جز بجزاوار آر میر گفت ندانم | ورچه جریرم بشر و طائی وحسان |
| (۴) سخت شکوم که صبر من بناید | ورچه حریم ابا فصاحت مسحبان |
| (۵) نیست شکتی که رودکی بچین جای | خیره شود بی روان وماند حیران |
| (۶) دولت مبرم همیشه باد بر افزون | دولت اطای از همیشه بنقصان |

٢ - البعد عن الإغراق ، والميل إلى البساطة كثيراً ما أدى بالشاعر إلى أشياء تافهة . من ذلك مثلاً قوله :-

لورأيته يوم الموقعة والخصام والحمية
لرأيته بين المغفر والدروع (١)

وهذا شيء طبيعي . وهو معلوم . ومن اللغو مدح الممدوح به لأن المحارب أياً كانت مكانته لا بد أن يرى في مثل هذه الأشياء يوم الموقعة . وكيف يحارب مالم يكن مجهزاً بمثل هذه الأدوات .

٣ - من أبرز مافي مدائح الرودكي البساطة التي يراها خير وسيلة للتعبير عما في نفسه من اخلاص للمدوح يلفعه إلى ارسال الكلام على سجيته دون تكلف في المعاني أو الألفاظ ، فيصدر الكلام من قلبه ليقع في قلب قارئه أو سامعه رغم خلوه من مظاهر الثمن في القول والتنميق في الكلام . أنظر مثلاً إلى أشعاره التي وجهها للأمير في هراة يبين فيها محاسن بخاري ليثير فيه الشوق إليها ويدفعه بذلك إلى الرحيل عن هراة التي أطال فيها المقام تجده يقول :

بخاري أمعدي وعيشي طويلا
وليأت اليك الأمير سعيداً دائماً
الأمير قمر وبخاري هي السماء
والقمر نحو السماء يشبه دائماً
الأمير سرو وبخاري هي البستان
والسرو يسمو في البستان دائماً (٢)

كرشن بيبي ميان مغفر وشغفان
مير زي تو شادمان آيد هي
ماه سوي آسمان آيد هي
سرو سوي بوستان آيد هي

(١) باز بروز نبرد وکين رحبت
(٢) ای بخارا شاد باش ودير زي
مير ماهمت وبخارا آسمان
مير سرو است وبخارا بوستان

فأى معان أبسط من هذه ؟ وهى مع هذه البساطة البادية تنفذ إلى قلوبنا بسهولة ذلك لأنها خرجت من قلب صاحبها فأرسلها على لسانه تعبيراً بسيطاً صادقاً دون أن يضيف إليها شيئاً من الزينة أو الصناعة فى لفظ أو معنى .

ولعل هذه البساطة هى التى أثارت دهشة أولئك الذين ينظرون إلى الشعر على أنه معرض من معارض الزينة والتجميل والصناعة الفنية . ويتحدث دولتشاه عن هؤلاء فيقول : «وينظر العقلاء فى دهش إلى هذه الحكاية العجيبة فإن هذا النظم ساذج وهو خال من البدائع والصنائع والمثانة ، ولو كان غيره قاله فى مجلس السلاطين لقبول بالانكار من العلماء ، ولكن هذه الأشعار قد لقيت القبول لأن الرودكى عرضها مع الغناء والألحان والموسيقى» (١) . والحكاية العجيبة التى يشير إليها دولتشاه هى تأثر الأمير نصر تأثراً شديداً حين سمع هذه الأبيات حتى حب من مجلسه قاصداً مخارمى (٢) . وهؤلاء الذين لم ترقهم بساطة هذه الأبيات وسهولة ألفاظها يحاولون تحليل شدة وقعها فى نفس نصر وسامعيه بما صحبها من موسيقى وألحان . ولكنهم فى الحقيقة ينسون أن جمالها يرجع أساسياً إلى هذه البساطة التى عابوها وإلى ما فيها من صدق العاطفة وبراءة الشعور . ولعل هذه البساطة والصدق هى التى طرعت النجاح للأغنية بعد أن أضيف إليها اللحن والأداء .

ومن أمثلة هذه البساطة أيضاً قوله :

لتظل حياة هذا السيد العظيم
قد ارتبطت بروحى العزيزة بروحه (٣)

فأى بساطة أحمل من هذه وأبلغ ؟ فهو يدعو للممدوح بطول الحياة لأن حياة الشاعر ارتبطت بحياة الممدوح . ولا شك فى أن الشاعر يحرص

(١) تذكرة الشعراء : ١٨ .

(٢) راجع بحثنا وتعليقاته على بعض الاشارات الفارسية فى الأشعار النثرية، ص ٩٧ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد ١٨ سنة ١٩٦٤ .

(٣) دبر زياد آن يزركوار خداوند جان . كرامى مجانش انور بيرند

على حياته وطولها كل الحرص . ومن هنا جاء دعاؤه للممدوح بطول العمر
بسيطاً غاية البساطة صريحاً غاية الصراحة .

وقوله وفيه صدق عاطفة وبساطة تعبير :

يا من تتعلّق بروحه أرواح الملوك

لا أرانا الله مكروهاً فبك (١)

الحمر عند الرومى :

أهم ما جاءنا من خمر

والتسم الأول من هذه القصص

عن القسم الثاني المختص بالمدح

تكلمنا عن المدح عند الرومى

بالقسم الأول من القصيدة و

ومطلع هذه القصيدة :

مادر مى

بچه اورا

وترجمته الحرفية : لا بد أن

وتدبته ، وأم الحمر هنا هى

مها ، والسجن هنا كتابة عن الدن

فهو يقول إذا أردت أن تحصل ع

وتزعمها من مصدر حياتها وهو شجرة الحرم ثم تعصرها وتضع عصيرها

فى الدن .

تسمية هذه ربيعة الله والمبالاة بملوك الملوك
عبد الكلية وهيئة تعبير الجلة
مع نجات

مكروه تو مارا مهاباد خداوند

(١) اى جان خداوندان برجان توييوند

(٢) أسرار وأشعار رومى : ٣/١٠٠٨

وإذا نظرنا إلى هذه القصيدة ، أو هذا الجزء الخاص بالخمرة ، وجدناها في مجملها شيئاً بعيداً عن الشعر بمعناه الفني الإنسانى . فالشاعر في هذا الجزء من القصيدة يشبه أن يكون خماراً يشرح لنا في تفصيل ودقة عملية صناعة الخمر . «فالعناقيد تعصر ليستخرج ما فيها من عصير يوضع في الدنان حقة طويلة من الزمن . ولا يصح أن يستخرج العصير من العنب قبل أن يعضى عليه - أى العنب - سبعة أشهر كاملة ليكون تام النضج وفيه العصير وإذا انقضت هذه المدة ونضج العنب جاز لك أن تعصر العناقيد وتستخرج العصير منها وأن تضعه في الدن ليتحول خمرأ . وقد عبر عن الدن في أحد الأبيات بالسجن الضيق . ويشرح لنا الشاعر عملية تخمير العنب وكيف يتحول خمرأ ، فالعصير يوضع في الدن مدة . وهو في هذه المدة الأولى هادئ ساكن وقد عبر عن هذا بقوله أنه يبقى «شدها» حيران لأنه لم يألف المكان بعد الذى وضع فيه ثم لا يلبث هذا العصير حتى يضيّق بسجنه محاولاً الثورة عليه فيأخذ بعد فترة في الحركة والاضطراب والفوران فيرتفع سائله وينخفض عليه ويستمر كذلك فترة أخرى كأنه حمل حاج غطت الرغبة فيه من شدة الغضب . ويأتى صانع الخمر بعد ذلك - - ويعبر عنه بالحارس لأنه يحرس ذلك السجين في سجنه - فيأخذ الرغوى حتى يزول ما في العصير من تكدر ويصبح صافياً . وأخيراً عندما يستقر السجين - أى العصير - ويهدأ في سجنه - أى الدن - يحكم الحارس سد باب السجن . وحين يسكن العصير تماماً يصبح صافياً ويشبه في لونه الباقوت الأحمر والمرجان . وأنواع منها ما هو أحمر كالعقيق اليماني ومنها ما يشبه في الحمرة باقوت يد خشان وإذا شممته خيل إليك أن الورد الأحمر قد أعاره رائحته وكذا المسك والعنبر . وهكذا تسبل الخمر في الدن إلى الربيع الجليل ومنصف نيسان . فإذا أقبل الربيع وهو وقت المتعة والتهوى والشراب أطلق الحارس سراح السجين ، وفتح الخمار فوهة الدن ، وسكب مما فيه من خمر صافية مثلاًثة كأنها عين الشمس المتوقدة . وإذا ذاق هذه الخمر اللذيذة خمرأ وأضحى الضعيف شجاعاً شجاعاً وإذا ذاقها مصغر الوجه الوجه توردت وجنتاه ، ومن شرب في سرور قدحاً منها لم يعرف الأحزان بعد ذلك ولا التعب ، وهى تطرد كثيراً

من الأحران وتجلب ألواناً جديدة من السعادة . ومثل هذه الخمر المعتة
إذا شرب منها الانسان نسي نفسه وفقد وعيه .

ومثل هذه الخمر تقدم في مجالس أعدت إعداداً خاصاً . ويجب أن
يزود المجلس بكل أسباب البهجة والمتعة . يجب أن يهيا بالورد والياسمين
والرياحين المشهورة ، وأن يرتدى الندماء الملابس الذهبية ، وأن يتخذ له
الفرش الجديدة والأرائك الكثيرة الوفيرة ، وأن تتوفر فيه آلات الموسيقى
ووسائل الطرب من بربط وصنج وتاي وشعر . وفي مثل هذا المجلس الملكي
يتصدر أمير خراسان ، ويصطف أمام العرش آلاف الغلمان ، من الأتراك
الحسان ، كأن كل واحد منهم تمر في ليلة الختام . ويتزوج كل واحد من
هؤلاء الغلمان رأسه بأكاليل من الآس . أما الساق فغلام بديع التكوين
أسود العينين ، ملاحكي الوجه ، وقامته كشجرة السرو . وحين تدور
في حبور كنوس الخمرور يمشي عليك الدنيا سعيداً مسروراً ضاحكاً (١) .

بين الرودكي وأبي نواس :

وهناك شاعر عربي آخر من خبراء الخمر هو أبو نواس الذي يحدثنا
عن هذه العملية نفسها فيقول :

وصفقوها بماء النيل إذ برزت	في قدر منس كجوف الجب روحاء
حتى إذا نزع الرواد رغوتها	وأقصت النار عما كل ضراء
استودعوها رواقبنا مزفتة	من أغبر قائم منها ، وغبراء
وكم أفراهما دهرأ على ورق	من حرطينة أرض غير ميثاء
وعمرت حقبا في الدن لم يرها	حي من الناس في صبح واساء
حتى إذا سركنت في دنها وهدت	من بعد دمدمة منها وضراء
جاءت كشمس ضيحي في يوم أسعدها	من برج هو إلى آفاق مرءاء
كأنها ولسان الماء يفرعها	نار تاجع في آجام قصباء

(١) اكتفينا هنا بترجمة الأبيات دون اثبات نصها لطوله

ومن مقارنة أبيات الشاعرين ترى أن أبا نواس قد عبر عن نفس المعنى ولكن في صورة أوضح ، ومعنى أبسط وإن كان الشاعر الفارسي قد فصل وأطال . أنظر مثلاً إلى بيت أبو نواس .

حتى إذا سكنت في دنيا وهدت من بعد دمدمة منها وضوضاء
جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدها من برج لحو إلى آفاق سراء

تجد أن الشاعر الفارسي قد عبر عن هذين البيتين بمجموعة من الأبيات يقول فيها : «وأخيراً عندما يضطر العصير ولا يثور مرة أخرى يحكم الصانع سد الباب . وبعد فترة يسكن تماماً ويصفو ويشبه في لونه الياقوت الأحمر والمرجان ، ويحكي في راحته الورد الأحمر والمسك والعنبر . وهكذا تبقى الحمر في الدن إلى أن يأتي الربيع الجديد . وعندئذ إذا فتحت الدن في منتصف الليل رأيت عين الشمس المتوقدة (١) وهذا راجع إلى الفرق في طبيعة الأسلوبين العربي والفارسي ، وطريقة الشاعرين في التعبير عن المعنى .

ومما ورد في هذه القصيدة ، مشتركاً في المعنى مع بعض أشعار أبي نواس قول الرودكي :

من يشرب في سرور قلحاً منها
لا يرى التعب بعد ذلك ولا الأحزان (٢)

تطرد حزن سنوات عشر إلى طنجة
وتجلب سعادة جديدة من الري وعمان (٣)

-
- (١) آخر كارام كيرد ونجد نيز
جون بنشيد تمام وصافي كردد
جند ازو سرخ جون حقيق يدي
دوش بيوف كان بري كه كزي سرخ
هم بجم اندر هي كدزد جرين
آنكه اكر نيم شب درش بكش
(٢) وآنك بشامی یکی قلع بخورد زوی
(٣) آنكه ده ساله را بنشيد وماند
- درش كنه استوار مرد فكهان
كوله ياقوت سرخ كيرد ومرجان
جند ازو لعل جون لكين بلشان
بوي پيرداد وشيك وعند بويان
تا بهكه فر چهار ونيمه نيمان
جشمه خورشيد را بيني قاپان
دنج نيشد از آن نراز ونه احزان
شادی نو را في ري بيارد و عمان

يريد أن يقول إن الحمر تطرد من المغموم شيئاً كثيراً كأنها موم عشر سنوات إلى مكان قصي لا ترجع منه مثل طنجة التي هي في أقصى الغرب كما أنها تولد في الإنسان أنواعاً من السعادة لا تتيسر له عادة لبعدها عن متناول يده . أي أن الحمر تذهب الحزن إلى أقصى مكان وتجاب السعادة من أقصى مكان . والرى وعمان بلدتان في الشرق قابل بهما طنجة التي هي في أقصى الغرب للبعد الشاسع بينهما . وهذا المعنى يشبه قول أبي نواس :

فقلت أدنأ تنأ المغموم لقربها
فتنقلها من دار قرب إلى بعد

وهذه العبارة التواسية «من دار قرب إلى بعد» فصلها الرودكي التفصيل الذي شرحناه فيما سبق ، فحدد قدر الحزن الذي تطرده الحمر كما حدد بعد المرافة .

ومن المعاني المشتركة كذلك بين الشاعرين قول الرودكي :

حمر حقيقة من رآها
لم يفرق بينها وبين عقيق مذاب

فكل منهما من جوهر واحد لكن
هذا تجمد وذا الآخر ذاب (١)

وقول أبي نواس في نفس المعنى :

أقول لما تحاكيا شهما
أيهما للتشابه الذهب
هما سواء وفرق بينهما
أيهما جامد ومنكب (٢)

از عقيق كه اخته فتاخت
اين يفسرد وآن دكر بكداخت

(١) وآن عقيقين مئ كه هر كه بديده
هر دو يك كوهرنه ليك بطبع
(٢) ديوان أبي نواس .

وما اشترك بينهما قول الـرودكى :

لونت يـدى الانسان قبل أن تمس
وأسرعت إلى العقل قبل أن تذاق (١)

وقول أبى نواس :

كان بـنان ممسكها أشيمت
خضابا حين تلمع فى الزجاج (٢)

وقول الـرودكى فى صفاء الخمر :

هات تلك الخمر التى تشبه الياقوت الصافى
أو تشبه وهج السيف جرد فى ضوء الشمس (٣)

بشبه قول أبى نواس فى هذا المعنى :

من قهوة كالعقيق صافية عادية العمر ذات اسلاف
كان فى لحظ عين مازجها إذا اجتلاها بريق أسياف (٤)

ومن أبيات الـرودكى اللطيفة فى الخمر قوله :

لو انصببت قطرة من تلك الخمر فى النيل
لظل التمساح ثملا من رائحتها مائة سنة

ولو شرب الغزال فى الصحراء قطرة منها
لصار أمداً كاسراً لا يبالي بالفر

(١) نازده دو دست و نكين كره ناپسیده تبارك اندر ناست

(٢) ديوان أبى نواس .

(٣) أسـوال وأشعار رودكى : ٢/١٠٢٨

(٤) ديوان أبى نواس .

الفزل عند الرودكى

والحكم على هذا الفن عند الرودكى عسير فلم يصلنا فيه سوى أبيات معدودة مفرقة لا تمكن من الحكم الصحيح . ولكنها على أى حال تعطينا فكرة عن اتجاه الشاعر فى هذا الفن .

وتبين لنا أشعار الرودكى الغزلية أن المرأة عندهم كانت من وسائل المتعة واللهم والظرف ، ولم تكن مصدراً لعاطفة حقيقية .

وفى كثير من أشعار الرودكى نجد الخطاب موجهاً إلى امرأة كما ورد فى قصيدته التى يشكو فيها الزمان ويتحسر على شبابه (١) . وليس لهذه المرأة وجود حقيقى ، فهى متخيلة على الطريقة العربية إذ كان الشاعر العربى يتخيل أمامه محبوبه يخاطبها أو زوجة تحته على الاقتصاد وهو يأتى إلا أن يكون جواداً مثلاًفاً .

والمرأة عند الرودكى كائن مادى يعنى أنه ينظر إليها باعتبارها جسداً جميلاً . وهى فى نظره تتألف من مجموعة أجزاء أو أعضاء ينبعث من كل منها جمال وفطنة تولد اغراء الشاعر به وتهافته عليه . وليس للجانب المعنوى فى المرأة نصيب من اهتمام الشاعر . ولا يبدو فى أشعاره أنه اهتم بعقل المرأة أو ذكائها أو روحها أو ما إلى ذلك من مظاهر الحياة المعنوية الراقية .

وأهم ما يلفت نظر الشاعر فى المرأة : خصلة الشعر ، والشفاه اللذيقة ، والوجنت الوردية ، والرائحة المسكية .

وفى هذا ما يدل على أن الشاعر كان مع المرأة لاهياً عابثاً ، ولم يعرف عنه أنه عشق امرأة حتى يتذوق الجمال فى المرأة من ناحيته المادية والمعنوية معاً .

(١) مرايسرد وغرد ريخت مرجه دندان بود نيرود دندان لا بل چراغ تابان بود

وهذه أمثلة من غزليات الرودكى ، يقول :

يا من انتزع من الورد الأحمر اللون والرائحة
فللوجه اللون وللشعر الرائحة

يصبح القدير كله وردى اللون حين تغسل فيه وجهك
وبمى الحى كله مسكى الرائحة حين تنشر شمرك (١)

ويقول :

رأيت خصلتك ملوثة الطرف من الكبر
تتأوج على ورد الخلد الأرجوانى

تأسرفى كل لبة من لباتها ألف قلب
وتجذب فى كل طية من طباتها ألف روح (٢)

ويقول :

من ذا الذى جعل خصلة شمرك جيها ؟ انه الذى
جعل من خالك نقطة تلك الجيم

فك الدقيق كأنه
حبة رمان اذشطرت شطرين (٣)

(يشبه خصلة شعر الحبيب فى تديها وتشبيها بحرف الجيم لانتشانه ، ويشبه خال الحبيبة بالنقطة وهذا الخال من نقطة الجيم .)

ويقول :

الورد والملك والعنبر والنفاح
والياسمين الأبيض والأسن الجميل

-
- | | |
|--|--|
| (١) أى از كل سرخ ورك بر بوده و بر
كل ورك شود جوروى شوقى هم جو | زلفك از بى رخ ر بوده بو از بى مو
شكوى كردد جو مو نهانى هم كرو |
| (٢) زلفك ديدم سر از جان بيبده
دومر بنى هزار دل در بندش | وندر كل سرخ ارغوان بيبده
در هر بيبى هزار جان بيبده |
| (٣) زلف ترا جيم كه كرد آنكه او
وآن معن تلك تو كوى كى | خال ترا نقطه آن جيم كرد
دانككلى بنار بدو بيم كرد |

كلها قد تفتحت وأبنت مرة واحدة
لديك يا معبود الملوك الفتان

كان ليلة عاشقك ليلة القدر
إذا كشفت له فيها عن وجهك النقاب (١)

ويقول :

إذا كنت خريفاً لحديقة العقل
فأنت لجنة العشق ربيع

إذا كنت للعشق نبياً
فأنت للحسن رب (٢)

(يقصد أن المحبوب وإن كان لفرط جماله يذهل العقل ويذهبه فيصبح كأنه في خريفه إلا أنه للعشق والشباب ربيع . فالعقل في خريف لما يعتريه من ذهول ودمش من جمال الحبيب ، والقاب والعشق في ربيع لما يذكيه جمال الحبيب من تار الحب) .

ويقول :

جاءني من ؟ الحبيب . متى ؟ وقت الحر
تخاف من ؟ الخصم . خصمه من ؟ الأب

قلته قبلتين . علام ؟ على شفة ناعمة
أكانت شفة ؟ لا . فإذا كانت ؟ عقيقاً مثل ماذا ؟ مثل الكر

يا حسين ميه وسورد بزيب
زرد تو ای بت ملوک لرېب
چون تر بیرون کنی دځ از جلیب
کلش عشق را بهار توئی
حسن را آ نمرید کار توئی
فرسته ز که ؟ ز خصم . خصش که ؟ پلو
لبه ؟ نه چه به ؟ عقیق بیون به ؟ چو شکر

(١) کل صد بړک وشک وځنړ وسېب
این مه یکره تمام شدست
شب عاشقت ليله انقدر ست
(٢) چمن عقل را خزان اکر
عشق را کر یسیری لیکن
(٣) آند بر من که ؟ یار . کی ؟ وقت سحر
دادش در بوسه بر کجا ؟ بر لب تر

ويقول :

إذا كنت تقبل الرودكى غلاماً عندك
فلن يرضى ألف داراً عبداً له (١)

أى أنه يكفيه سعادة أن يقبله المحبوب غلاماً له . وهذا أفضل عنده
من أن يتخذ - أى الشاعر - ألف ملك مثل داراً عبداً له ، ولأن يكون عبداً
للمحسوب خير من أن يكون الملوك عبداً له .

الربيع عند الرودكى :

ومن شعر الرودكى الجميل فى وصف الربيع قوله :

جاء الربيع السعيد بألوانه وروائحهم الذكية
مع مائة ألف من الزينات العجيبة

فى هذا الوقت يمكن أن يرنم الشيخ شاباً
وتطرح الدنيا المشيب لتكتسى بالشباب

قد جند الفلك العظيم جيشاً
وجيشه السحاب المظلم وريح الصبا هى النقيب

كأن البرق المضيء قاذف النقط فى هذا الجيش وكان الرعد ضارب الطبل
رأيت آلاف الخيل ولم أر منظرأً مهيباً مثل هذا .

أنظر إلى ذلك السحاب الذى يبكى بكاءً المحزون
وذلك الرعد الذى ينوح كالعاشق الكئيب

ووجه الشمس يظهر أحياناً من خلال السحاب
شكأنه محصور بفلت خلسة من الرقيب

قضى العالم أزماناً فى ألم وعناء
ثم نجت حاله حين اتخذ له الطيب من رائحة الياسمين دواء

(١) الرودكى ينادى أكر قبول كنى بينكم نهند هزار دارا روا

أمطرت الدنيا مطراً معطراً أولاً بأول
واكنست بالثلج حلة قشبية (۱)

كل ركن كثر فيه الثلج نما فيه الورد
كل جعلول كان بجافاً صار زائحاً

الرعد في الصحراء يثير دائماً الريح
والبرق من بين السحاب يرفع دائماً العصا

شقائق النعمان بين المزارع تضحك دائماً من بعيد
وقد صارت تككف العروس المنحضب بالحناء

والبلبل دائماً يغني على غصون الصفصاف
فيردد الزرزور الغناء من فوق شجر السرو

وقد نرّم القمري على شجرة السرو بلحنه القديم
وصدح البلبل على غصن الورد بأحن غريب

الآن فلتشرهوا الخمر والآن فلتعيشوا سعداء
فإن الحبيب قد أخذ الآن نصيبه من صلب الحبيب

اختر الساق والخمر واتشرب على لحن الزمر
فهذا هو الزرزور يشدو في الحقول وهذا هو العندليب يغرد في البستان

باصه هزار زيت و آرایش صبيب
گیتی بدیل شباب از پی مشیب
لشکرش ابر تیره و باد صبا نقیب
بیدم هزار خیل و تدبیرم جبین مهیب
و آن رعد بین که فالد چون هاشق کبیب
جودان صباوی که بکتر داود از رقیب
به شد که یافت من را هوا طیب
وز برف بر کشید یکی حله قشیب

(۱) آمد بهار خرم بآفاق و بوی طیب
شاید که مرد پیر بدین که شود جوانه
جرخ بزرگوار یکی لشکری بکرد
بقاط برق روشن و تندریش طبل زن
آن ابر بین که کوبد چون مرد سرکوار
خورشید را ز ابر دهد روی کاه کاه
یک چند روزگار جهان دودمند بود
باران مشکبوی بیابید نو بنو

مهما يكن ربيع حياتك الجديد جميلا في عينك
فروية ذلك السيد العظيم الحبيب أجل

لك في تدانيك رفعة ، وفي الرفعة تدان
أبناء آدم من أمرك في حيرة ودهشة (١)

وفي هذه الآيات حديث عن الربيع وصور كثيرة . فهو يصور السماء بما فيها من قطع السحاب المظلم ، والرياح المزججة ، والبرق المضيء ، والرعد المقاصف بالجيش المظلم الذي يسد الأفق فتعذر معه الرؤية ، والرياح في زيجرتها كأنها تقيب ذلك الجيش الذي يصدر إليه الأوامر بصوته القوي ، يشبه البرق المضيء بقاذف النبط الذي يلقي قذائفه فتحرق وتضيء ، ويصف الرعد في صوته بضارب الطبل في ذلك الجيش . ومع أن الشاعر رأى آلاف المعارك والمواقع التي احتشدت فيها الخيل والجند إلا أنه لم ير منظراً يداني هذا هوية . وينتهي الشاعر من وصف الربيع ليندخل بعد ذلك إلى المدح . وبهذا نرى أن هذا الوصف مقدمة للدخول في الموضوع الرئيسي وهو المدح ونقطة التحول بين وصف الربيع والمدح هو ذلك البيت الذي يذكر فيه الشاعر أن الربيع مهما يكن في العين جميلا فروية المدح أجل . وهذا المدح مع ارتفاعه وعلو شأنه متواضع لا يتعالى .. الخ .

(١) کنی که برن پیش منی داشت کل هر جو یکی که خشت من بردش دلب

تدر میان دشت می باد بر دمه	برق از میان ابر می بر کشت نصیب
لاله میان کشت بختد می ز دور	جون و تنه هرمن بختا شده نصیب
بلبل می بخواند در شاخسار یید	سار از دور سرو مراردا شده مجیب
سلسل بسروین بر پانصد کهن	بلبل بشاخ کل بر بالخک غریب
اکنون خورید باد را اکنون ز فیدشاد	کاکنون برد نصیب حبیب از بر حبیب
ساقی کرین و باد و می خورد بیانک زور	کز کشت سار ناله واز باغ هدلیب
هر جند تو با و جهانست بچشم خوب	دیدار خواهی خوب تر آن مهر سبب
نشب نمو با فراز و فراز تو بانشب	فرزنده آدمی بشو اندر بشیب و ثوب

الزهد في شعر الرومي :

وللرودكي في الزهد أشعار طيبة . ومن الجمل الذي يسود هذه الأشعار ،
جر التوبة إلى الله ، والتندم على مافات ، والنظر إلى الدنيا بنظر الزاهد المنصرف
بتضح لنا أن هذه الأشعار قد قيلت في آخريات أيامه . فهو يرى أن :

هذا العالم حاله كالنوم تماماً
يعرف هذا من كان قلبه واعياً (١)

وهو لا يبالي بما وقع له في أمسه وما يأتيه به الغد فيقول :

يجب ألا يفرح الإنسان بما يأتي
ويجب ألا يذكر الإنسان ما قد مضى (٢)

والحياة مهما طاللت فالمصير إلى الموت لا مفر منه مهما لقي الإنسان
في حياته من شدائد وعناء أو نعم ورخاء .

مهما تطل الحياة أو تقصر
ألا تنهى أخيراً إلى الموت
فعلش ان شئت في شدة وعناء
وعش ان شئت في نعمة ورخاء (٣)

كما ينبغي أن ينصرف الإنسان عن اللذات :

لا ترطب شفتك بلقاء الذي يسيل في القدرح
وارفع اليد عن الكباب فانه توأم السم (٤)

آن شناسد كه دلك بيدار ست
وز كذ شته نكرود بايد باد
نه بآسمر بمرود بايد باز
خواهي اندر امان بنمست و نواز
دست از كباب دار كه زهرست توامان

(١) ابن جهان پناه خواب كردارست
(٢) ز آمده شادمن بناید بود
(٣) زندگانی چه كمرته چه دراز
خواهي اندر عنا و شدت زی
(٤) لب تو سکن باب كه طاعت دوقدح

والآن وقد أوشك الرجل أن يستدير الدنيا ليستقبل الآخرة فليس له
إلا أن ينقطع لمدح الله ويدع مدح الناس .

مدحت الله الذي خلقني
فانقطع لساني عن الغزل ومدح عباده (١)

وأيسر تعليل لظاهرة الزهد في شعر الرودكي وغيره من الشعراء
أن الإنسان إذا علت به السن وتوقع بين يوم وآخر مفارقة هذه الدنيا ندم
على ما كان منه من عبث وفسوق أيام الشباب . والمشيّب بطبعه وقت ضيعف
وعجز عن مباشرة اللذات وارتكابها . ومن هنا كان الانجاء إلى الله فيه
خالصاً قوياً لانعدام أسباب تحصيل المتعة واللذات .

ومن قول الرودكي في الموعظة والحكمة :

أيها المغموم وحق لك أن تنغم
بأمن تمسح دموعك في الخفاء

مضى من مضى وأتى من أتى
وكان ما كان فما جدوى ذلك النغم

هل تريد دنيا لينة مهادة
إنها الدنيا متى كانت تقبل المسألة

لا تضرع فإنها لا تسمع الضراعة
ولا تنح فإنها عن سماع النواح صماء

نح ما شئت حتى يوم القيامة
متى كنت بالنواح ترد ذاهبا

ما أكثر ما يصيبك من أذى هذه الدنيا
إذا كنت تنوح لأي سبب

(١) خدای را بخودم که کردگار مست زبان از غزل و مدح بندگانش بسود

كان بلاءها موجه
إلى كل ما تعلق القلب به (١)

ويقول وقد فهم حقيقة الحياة :

ما زهوك كله ووجودك نفسه سوى حلم
حكم الحلم هو حكم المجاز (٢)

وقد سبق عند الكلام على شيخوخة الرودكى أن لخصنا بعض معانيه في قصيدته المشهورة التي يشكو فيها الزمان ويتحسر على المجد والشباب الذي ولى ولن يعود . وهذه القصيدة من شعره الممتاز ، ولعلها من خير ما قيل في شكوى الزمان . انظر ص من هذا البحث . ويختتم الشاعر هذه القصيدة ببيت مؤثر يعبر فيه عن تغير الحال والزمان ، وتبدل الصحة ، وزوال النعمة فيقول :

تغير ذلك الزمان وتغيرت أنا الآخر
احضر الآن العا فان وقت العسا والخللة قد آن (٣)

الموسيقى والشعر عند الرودكى :

كان الرودكى ينشد أشعاره على نغمت الموسيقى فيضاعف ذلك من حسنها وتأثيرها . ويظهر أن ذلك كان خطة كبار الشعراء في العهد

وندر نهان سرشك هي باری
بود آنکه بود خیره جیغم داری
کثیث کی یذیرد هواری
زاری ممکن که تشیرد او زاری
کی رفته را بزاری باز آری
کر تو هر بهانه بیا زاری
بر هر که تو دل برو بکاری
خواب را حکم تو مگر بجاز
صا بیار وقت صاوانیان بود

(١) ای آنک نمکنی و مراواری
رفت آنک رفت و آمد آنک آمد
هراد کرد خوابی کیتی را
ستی ممکن که نشود او زاری
شونتقیات آمد زاری کن
آزار پیش زین کردن بینی
کرتی کا شته است بلای او
(٢) این همه باد و بود تو خوابست
(٣) کون زمانه دگر گشت و من دگر گشتم

الفارسية الإسلامية الأولى . وكان الشعراء الكبار أمثال الرودكى ومنجيك
الرمذى وفرغى من أمانة زمانهم فى الموسيقى . ومن الواضح أن هذا
الأسلوب فى انشاد الشعر قد جاءهم من العهد الساسانى . ومن هذه الناحية
نرى أن هناك أوجهاً كثيرة للمقارنة بين شاعرنا السامانى الرودكى وبين
باربد الساسانى .

وكما كان الرودكى مغنى نصر بن أحمد السامانى كان باربد مغنى
خسرو برويز الساسانى . وكما كان رجال الحاشية فى البلاط السامانى
يستعينون بالرودكى فيما لا يقدرّون أن يبلغوه الأمير بأنفسهم كان كذلك
رجال البلاط الساسانى إذا لم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة لأن يخبروا خسرو
برويز بخبر ما استعانوا بمغنيه باربد ليأتى اليه هذا الخبر فى شعر رائق وصوت
عذب ولحن جميل .

وقد روى أن خسرو برويز كان له حصان جميل حبيب إلى قلبه عزيز
على نفسه . وكان يسمى شيديز . فرض ذات يوم ، وألح عليه المرض فأقسم
خسرو ليقتل من ينعاه اليه . ولما نفق شيديز لم يجروا مروض خيله أن يبلغه
الخبر وخشى إن هو سأل عنه أن يبلغه أنه نفق فيكون فى هذا دلاسه ، فجاء
إلى باربد مغنى كسرى ورجاه أن ينظم هذا الخبر فى إحدى أغانيه التى
يغنىها أمام الملك . وقد استطاع باربد ببراعته فى النظم والثناء أن ينهى إلى الملك
خبر موت شيديز فى أسلوب غير مباشر . فلما سمع الملك الأغنية فهم أن
شيديز قد نفق فصاح « مات شيديز » فقال باربد على الفور « لم أقالها يا مولاي
أنت قلتها » فأعجب الملك بحسن العرض الذى لجأ اليه باربد وقال له « لقد
أنقذت نفسك وأنقذت غيرك حين رويت لى الخبر على هذا النحو » . وقد
روى هذه القصة كثير من المؤلفين العرب وقياس فيها أشعار عربية مختلفة .
وتروى عن خسرو برويز ومنه باربد قصة أخرى تشبه هذه ، فيذكر
ابن الفقيه أن السبب فى بناء قصر شيرين أن الملك أمر أن تقام له حديقة
واسعة يؤتى إليها من كل صيد حتى يتناسل ويكثر نسله فيها . فلما فرغ

العمال من انشاء هذه الحديقة حايها الملك وسربها فأمر فأنعموا على العمال بالأموال الكثيرة . وفي غمرة الفرح والسرور بهذه الحديقة ونشوة الخمر قال خمرو لزوجته ومحبوته شيرين «تغنى على شيئاً» قطبت أن يكون لها في هذه الحديقة قصر تجرى من تحته أنهار من خمر ولبن . فوعدها الملك بتحقيق ما طلبت إلا أنه نسي الوعد بعد ذلك واستحت هي أن تذكره فلجأت إلى باربد وطلبت إليه أن يذكر الملك في إحدى أغانيه بما وعدها على أن تكافئه بضيعة لها كانت في أصمهان . فوافق باربد ونظم شعراً في هذا الموضوع وهباً للموسيقى والغناء فلما سمعه خسرو تذكر ما كان ناسياً وأمر فنزوا القصر والقنوات . ووقت شيرين بدورها ووهبت باربد ضيعتها في أصمهان (١) :

وإذا كان صاحب تاريخ كزیده عند وصفه مظاهر الترف التي كان يحيا فيها خمرو برويز قد ذكر أن باربد كان له في مادب برويز ثلاثمائة وستون أغنية يغنى واحدة منها كل يوم (٢) ، فلا شك أن الرودكي كان له هو الآخر مجموعة كبيرة من الأغاني والألحان فقد كان ملازماً للأمير يغنيه صباحاً ومساءً كما كان يصاحبه في كل مكان سواء أكان الأمير مقبلاً في بخارى أو مرتحلاً خارجها . وهذه المصاحبة القوية تفرض على المعنى أن يكون واسع المادة ، متنوع البضاعة وإلا شمه الأمير وانحطت مكائده عنده .

ويمكن هنا أن نلخص أوجه الشبه بين الرودكي وباربد :

كان كل منهما شاعراً ومغنياً وملحناً .

كما كان كل منهما يأنشد الشعر مصحوباً بالغناء والموسيقى . وهو انجاء ساساني فلد في العهد الساساني .

(١) ابن الفقيه : مختصر البلدان ١٥٨ ط ليدن

(٢) تاريخ كزیده : ١/١٢٢ ط براون ١٩١٠

وكان كل منهما على المكانة عند مليكه ينسئ اليه أخطر الأخبار في أبرع
قلب .

واعترف لكل منهما معاصروه بالسبق واستفادوا من براعته وفه
الشيء الكثير .

ثقافة الرودكي :

قراءة أشعار الرودكي تدل على أنه كان ذا حظ من الثقافة العامة في
نواحيها المختلفة :

فهو ذو اطلاع في الميدان الفلسفي . ونظرية الطبيعيين اليونان كانت
معروفة عند الرودكي . ولا شك في أن الرودكي قد سمع عن نظرية طاليس
وموداها أن المادة الأولى هي الماء ، وعرف نظرية أنكسيانس الذي يرى
أن الهواء هو المادة الأولى ، وبلغته نظرية هرقليطس الذي ذهب إلى أن النار
هي المصدر الأول الذي تصدر عنه كل الأشياء وترجع إليه ، وسمع عن
نظرية أنيادقليس الذي اعتبر العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب
هي الأصل الذي تتكون منه كل الأشياء .

هذا المذهب الطبيعي لا شك أن الرودكي قد وقف عليه حين يقول
في قصيدته التي مدح فيها أباجعفر :

الخلق من تراب وماء ونار وريح

وهذا الملك من بريق جوهر ماسان (١)

وفي القصيدة نفسها يشبه ممدوحه في الحكمة بـسقراط أو أفلاطون .

والفكرة الثنوية القديمة لا تزال تتردد في شعر الرودكي ، فهو يرى
أن الروح منيرة مشرقة ، وهي من عالم السماء ، وأن الجسد مظلم حالك ،
وهو من عالم الأرض والتراب . واليك قوله في رثاء المرادي :

(١) خلق زخاك وزآب وآتش وبادند وبين مك از آفتاب كور ماسان

رد روحه الطاهرة إلى السماء
وأودع الأرض الجسد المظلم (١)

ويقول عنه أيضاً :

طرح قالب التراب في التراب
وحمل عقله وروحه نحو السموات (٢)

ولا جدال في أن غزو الاسكندر لبلاد إيران كان عاملاً قوياً في نشر الثقافة اليونانية التي وطدت أقدامها بعد ذلك في عهد خلفائه السلوقيين الذين خلفوه في حكم البلاد ، كما أن دولة البارث الذين انتهت على أيديهم دولة السلوقيين كانوا من المعجبين باليونان وقد أظهروا حبهم لهم وأعجبهم بهم في صور مختلفة حتى نقشوا على العملة نقوشاً يونانية ، وكذلك انتشرت الثقافة اليونانية في إيران في العهود المسيحية والاسلامية أيضاً . وكان لها مدارس في كثير من المدن كجند يابور التي أسسها سابور بن أردشير الساساني وغيرها .

ومن هنا نرى أن وصول مثل هذه المعلومات الفلسفية اليونانية إلى الرودكي أمر سهل ميسور .

وكان الرودكي ذا علم بالفقه ورجاله فهو يشبه ممدوحه أبا جعفر بأنه في العلم بالفقه الشافعي وأبو حنيفة وسفيان فيقول :

وان كنت فقيهاً تميل إلى الشرع
فهو الشافعي وأبو حنيفة وسفيان (٣)

كالب تيره يمانر سبور
جان ونورد سوى سخاوات برد
شافعي انككت وبو حنيفة وسفيان

(١) جان كرامى ييدر باز داد
(٢) قالب سخاكي سوى سخاكي فكنت
(٣) ورتو فقيهي دسوي شرع كرائ

من لم تعلمه الأيام
فلن يعلمه معلم قط (۱)

وَمَا يُؤْصَفُ لَهُ أَنْ تَرْجِعَ الرُّودَ كَيْ الشَّعْرَةِ هَذَا الْكِتَابَ لَمْ يَعْرِ عَلَيْهَا بَعْدَ
كَامِلَةٍ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْآيَاتِ .

(۱) هر که ناهفت از کفشت روزگار . نیز بآموزد ز هیچ آموزگار

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين

للككتور احمد مختار العبادي

موضوع هذا المقال يتناول نشأة دولة اسلامية مغربية مجاهدة ، وهي دولة المرابطين . ولقد تعرضت هذه الدولة ، للأسف ، لعداوات الكثيرين ممن جاءوا بعدها من الموحدين والاندرليين الذين حملوا عليها حلة ظالمة كان الدافع اليها إما تعصبا دينيا أو مذهبيا ، وإما كراهية سياسية أو قومية ، فحاولوا النيل منها (١) ، وتبعهم في تلك الكراهية بعض المؤرخين المستشرقين المحدثين أمثال العالم المرندي رأيهارت دوزي الذي دفعه إعجابه بالمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف إلى كره خالعههم المرابطين وأتهمهم ظلما بالجهل والوحشية والقضاء على العلم والحضارة في الأندلس (٢) وقد تبعه في ذلك نفر من المؤرخين المعاصرين (٣) .

وعلى الرغم من الغموض الذي اكتنف نشأة هذه الدولة المرابطية ، ونسبة المصادر التاريخية التي سجلت تاريخها بوجه عام ، والمراحل الأولى منه بوجه خاص فإن المحاولات التي اضطلع بها الباحثون المحدثون (٤) من أجل

(١) راجع على سبيل المثال (البندق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتناء دولة الموحدين) ، حيث نجد باباً خامساً في ذكر مثالب المرابطين ، وعبد الوهيد المراكشي والمحب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧٧ ، وكذلك الشقنسي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس والتي حاشم فيها يوسف ابن تاشفين والمرابطين وأتهمه بالجهل . (داسج - المقرو : فتح الطيب ج ٤ ص ١٧٧ ، ص ١٩٢) .

(٢) راجع كتابه الخاص بتاريخ بني عباد ملوك اثيبلي Locis Abbadides

(٣) نذكر منهم المؤرخ الأمريكي أرشيبالد لويس في كتابه "تقوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط" ص ٣٦٢ ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(٤) أمثال حسين مؤنس ومحمود بكى ، وحسن أحمد محمود وأريشي ميراندا Hsici Miranda وبرسك فيلا Bosch Villa وغيرهم .

كتابة تاريخ منتصف هذه الدولة المعاصرة تكشف لنا عن مآثر حيدة تملأ الصفحات الطوال بأحرف من نور . وحسبى في هذه الدراسة أن أقصر على عرض بعض صفحاتها الأولى التي تتناول مكان وزمان نشأتها والدفع التي أدت إلى قيامها بدورها التاريخي الخالد .

وتبدأ مقدمة هذه الصفحات في جناح المغرب الأيمن ، في الصحراء الغربية صحراء شنقيط (١) أو ما يسمى اليوم بموريتانيا . في هذه الصحراء الشاسعة التي تشبه في مجموعها البلاد الحجازية أرضاً وماشية ونباتاً ، والتي تحدها من الجنوب بلاد السودان حيث مملكة غانة الكبيرة ، وفي الغرب المحيط الأطلسي ، وفي الشرق نهر النيجر عندما يلتوى شمالاً إلى جهة نمبكتو ، وفي الشمال منطقة سجلماسه التي يقال لها اليوم تافيلالت (٢) ، في هذه الصحراء كانت تعيش قبائل صنهاجة اللثام البربرية ، ومن أشهرها : قبيلة لتونة في شمال الصحراء ، وتليها جنوباً مسوفة ، ثم جدالة بالقرب من نهرى السنغال والنيجر وساحل المحيط . وهذه القبائل الصنهاجية ، كانت امتداداً لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال ، والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغربين الأدنى والأوسط ، وكذلك الدولة الزيرية التي قامت في غرناطة بعد سقوط الخلافة الأموية أيام ملوك الطوائف .

(١) كلمة شنقيط أو شنقيط كانت تدل في الأصل على قرية من قرى ولاية أدرار . موريتانيا ومعنى شنقيط بالبربرية صون الليل ، ويقال أنها بنيت في القديم في القرن الثالث الهجري ، ثم جددت في القرن السابع في موضعها الحال ، ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله وصار أهلهم يعرفون بالشنابلة ومن الغريب أن الرحالة المسلمين الذين مروا بهذه البلاد مثل ابن بطرطة وليون الإفريقي لم يذكروا اسم شنقيط في كتاباتهم مع أنهم ذكروا مدناً أخرى أقل منها شأنًا . وما زالت مدينة شنقيط من العاصمة الروحية لبلاد أما العاصمة السياسية فهي مدينة نواكشوط على ساحل المحيط الأطلسي .

راجع (الشيخ ماء النعينين الشنقيط الشريف الإدريسي : الجغاش الربيط في الفضل من مغربية شنقيط ص ١١ ؛ محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا . (الدار البيضاء ١٩٦٢) .

(٢) يلاحظ أن تافيلالت الحالية تقابل مقاطعة سجلماسه القديمة أما مدينة سجلماسه القاطنة فتقابلها اليوم مدينة الرياني .

غير أن هذه القبائل الصحراوية الجنوبية ، كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تظم أو تنفع ، ولهذا سميت بصنهاجة اللثام(١).

ولعلها أخذت هذه العادة من زنوج افريقيا المجاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم(٢).

وفي ذلك يقول المؤرخ والجغراف المعاصر أبو عبيد البكري :-

”جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب ، وهو فوق اللثام ، حتى لا يبدو منه الا عجاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك في حال من الاحوال ، ولا يميز رجل منهم وليه ولا حيمه إلا إذا تنقب ، وكذلك في المراك ، إذا قتل منهم القتل وزال قناعه ، لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك الزم من جلودهم“ (٣).

ويضيف صاحب الروض المبتون أنه إلى جانب استعمال اللثام ، كانوا يلبسون العنابر (٤) القرمزية اللون ، والعائم ذات الذوابات(٥).

كذلك اشاد المؤرخون بشجاعة المشمين في القتال ، فقال البكري في هذا الصدد : ”ولهم في قتالهم شدة وجاد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت

(١) منهم في ذلك الشاعر أبو محمد بن حامد يقول :

فاحوروا اسرار كل نفيلة
غلب المياه عليهم ففتنوا

(المقري : نفع الطيب ج ٤ ص ١٩٣ ، ابن أبي ذرع : ووض القرياس ج ٢ ص ٣٨)

(٢) راجع André Julian : Histoire de l'Afrique de Nord. P. 77, Paris 1952

(٣) راجع البكري : المغرب في وصف افريقية والمغرب ص ١٧٠ ، نشردى ملان الجزائر (١٩١١) هذا ، ومازالت قبائل الطوارق أو التوارجة في صحراء الجزائر يستعملون اللثام ، ويقال لهم من قبيلة ترشه إحدى قبائل المشمين ، ويضعهم ابن غلاتون في كتلة البربر البرانس التي تسمى اليها صنهاجة . (حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٨) ..

(٤) النفارة : رداء واسع يلبسه الجنود عادة . ومازالت كلمة نفارة تستعمل في المغرب بمعنى السهام . راجع (R. Dozy : Supplement aux Dict. Arabes, 11 P. 218)

(٥) عثمان بن غازي : الروض المبتون في وصف مكنسة الزيتون ص ٦ .

ولقد استطاع هذا الفقيه ، بفضل ذكائه وإخلاصه وحزمه ، أن يخلق من قبائل المثلثين قوة دينية سلفية تقوم :

(أولاً) على الإيمان الراسخ وإقامة شعائر الإسلام وفق ما جاءت به السنة .

(ثانياً) على التمسك بمذهب مالك بن أنس فيما يرجعون إليه من قوانين دينية ودنيوية .

ويبدو أن عبد الله بن ياسين ، أراد أن يتوج أتباعه بتسمية تتفق مع تلك الأهداف السامية ، فساهم بتلك التسمية الخالدة : « المرابطون » ، وقد اختلف المؤرخون حول أصل هذا الاسم ، فهناك فريق أمثال صاحب روض القرطاس وابن خلدون والصلوى الناصرى ، يرجعونه إلى ذلك الرباط الذى اتخذته عبد الله بن ياسين فى بداية دعوته عند مصيب نهر السغال أو فى إحدى جزر الساحل الموريطانى على المحيط الأطلسى .

وهناك فريق آخر أمثال ابن عذارى ، وصاحب الحلل الموشية ، وصاحب كتاب مشاهير أعيان فاس ، يرون أن هذا اللقب أطلقه عبد الله بن ياسين على قبيلة لمتونه عقب معركة عتيبة انتصرت فيها على قبائل من البربر على غير دين الإسلام (١) عند جبل فى شمال الصحراء ، فساهم المرابطين بمعنى الصابرين المجاهدين فى سبيل الله دون التقييد برباط مادى يرابطون فيه . وصواء أكان هذا المعنى المادى أو ذاك المعنى المجازى الروحى ، أو كلاهما معاً هو أصل هذه التسمية ، فالذى يبدو من سير الطوادر أن المرابطين قد تفهموا جيداً المعانى النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة ، وفخموها من شأنها إلى درجة أنها صارت اسماً علماً لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك

(١) يرى صاحب كتاب مشاهير أعيان فاس ، أن هذه القبائل المشتركة كانت من برغواطه وإن الحركة دازت بتواحي بلاد المرس وسجلنامه .

مُثَابَة وسام عسكري يمنحه كل سلطان مرابطي لأتباعه المحامدين ، ليؤكد من جديد سنة أسلافه في إثارة الجهاد والرباط والدود عن الإسلام (١)

بهذه الرسالة الدينية السامية كان خروج المرابطين من الصحراء ، وروى بعض المؤرخين أن السبب في خروجهم يرجع إلى عامل سياسي وهو قوة مملكة غانا في الجنوب واشتداد ضغطها على المرابطين الذين اضطروا أمام هذا الضغط إلى الاتجاه شمالاً نحو المغرب (٢) .

وهذا التفسير لا يتفق مع طبيعة الأحداث ، لأن مملكة غانا هي التي تعرضت في الواقع لضغط جيوش المرابطين منذ قيام دولتهم ثم لم تلبث عاصمتها مدينة غانا أن سقطت في يد أمير المرابطين أبي بكر بن عمر سنة ١٠٧٦م (٨٤٦٨هـ) (٣) كذلك يروى كثير من المؤرخين أن سبب خروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين في التحكم في طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضي المغرب الحصية . ونحن لا ننكر دور العامل الاقتصادي في هجرات الشعوب إلا أن الاعتماد عليه وحده ، دون الالتفات إلى الدوافع الأساسية الأخرى ، لا يستقيم هنا في حالة المرابطين خصوصاً وأن الطريق التجاري الصحراوي بين أودغشت جنوباً وسلماسة شمالاً كان طريقاً معروفاً ومطروقاً من قديم ، وكذلك كانت قبائل صنمجة تعيش في صحرائها من قديم ، وكثيراً ما قاست من أهوال الجذب والقحط

(١) مثال ذلك قول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ «وحين ملك يوسف بن قاشقين جزيرة الأندلس ، تسمى هو وأصحابه بمرابطين ، وقوله في ترجمة ابنه حل «وقام بأمره ابنه حل بن يوسف بن قاشقين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه بالمرابطين ، فجبرى حل سنن أبيه في إيدار الجهاد والعبادة والعدل وحماية البلاد» انظر كذلك مقالنا (دراسة حول كتاب اطلال الموشية في ذكر الأخبار الغركشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان العدد الخامس سنة ١٩٩٠) .

(٢) راجع حل سبيل المثال (دكتور حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما على الصحراء الكبرى ص ٥٧) .

(٣) راجع ما كتبه الأستاذ قاسم الزهيري من المسائل الإسلامية القديمة في أفريقيا السوداء في مجلة دعوة الحق ، أعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ (١٩٩٢)

وكونت أحلافاً اقتصادية فيما بينها ، إلا أنها لم تقم بمثل هذه الهجرة الجماعية المنظمة إلى الشمال مما يدل على وجود عامل رئيسي جديد دفع بهذه القبائل إلى التكتل والاندفاع إلى خارج الصحراء شمالاً وجنوباً - وهذا العامل هو من غير شك : الإسلام (١) . فالمرابطون ، كما هو واضح من أسمهم ومن أعمالهم ، كانوا وقبل كل شيء أصحاب رسالة دينية يريدون تحقيقها وهذا هو السبب الأساسي في خروجهم من الصحراء شمالاً نحو المغرب وجنوباً نحو السودان .

ولكن هل كان هناك ما يوجب الجهاد الديني في البلاد المغربية في ذلك الوقت ؟ الإجابة على هذا السؤال تقتضي الكلام عن حالة المغرب قبيل غزو المرابطين :

إن الذي يدرس حالة المغرب في أوائل القرن الخامس الهجري ، يجد أنه كان يعاني عنة سياسية ودينية . وقد أعطانا البكري صورة واضحة لموجة التنبؤ والشعوذة التي عمت جزءاً كبيراً من بلاد المغرب الأقصى في تلك الفترة . كما صور لنا ابن عذارى حالة الفوضى السياسية التي كان يعيشها المغرب بتلك العادة المختصرة : «وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس» (٢).

(١) حاول المؤرخ الأمريكي أوشيبالد لورنس في كتابه : «القرى البحرية في حوض البحر المتوسط من ٣٦٢ ربط هجرة المرابطين بهجرات السلاجقة الأتراك والغرب الخلافة، حل أساس أنهم جميعاً قبائل رحل خرجوا من صحارهم في وقت واحد تقريباً ونتيجة ظروف سياسية أو اقتصادية أو متاخية ، وانتهى إلى اتهامه لم يقدم تقديرهم للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في البلاد التي اغاروا عليها ، وبأنهم كانوا محجرين لكل حضارة مستقرة . والواقع أن مثل هذا الحكم العام تموزه الدقة العلمية والدراسة التحليلية المقارنة : لأن كل شعب من هذه الشعوب له ظروفه وملابساته الخاصة به ولاوجه للمقارنة مطلقاً بين فساد العربان الخلافة مثلاً وبين أعمال المرابطين الإيجابية البناء التي انقذت الإسلام في المغرب والأندلس من انهيار محقق .

(٢) ورد هذا النص في النسخة الباقية من الجزء الخامس بتاريخ المرابطين من كتاب العين المغرب لابن عذارى نشرها المستشرق الأسباني أويثي ميراندا تحت عنوان :

Ambrosio Hulci Miranda : Un Fragmento inédito de Ibn Idari Sobre los Almoravides, Hespéris Vol 11. 1961. fasc. 1.

فابن عذارى قد شبه الحالة في المغرب بحالة الأندلس من حيث أن كلا من البلدين قد تحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات طائفية .

وإذا نحن حاولنا استعراض هذه الطوائف المختلفة التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين ، نجد أنها كانت تنحصر في هذه القوى الأربع :

(أولاً) قبائل غمارة في الشمال .

(ثانياً) قبائل برغواطة في الغرب .

(ثالثاً) قبائل زنانة التي كانت تكون نطفاً حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة .

(رابعاً) طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين في الجنوب .

أما عن الطائفة الأولى وهي قبائل غمارة ، فكانت تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر المتوسط من نواحي سبتة وطنجة غرباً ، إلى وادي نكور بالقرب من المزمرة أو الحُصَيْمَة الحالية شرقاً ، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب فاس . وكانت غمارة فرعاً من مصموده ، ويضهم من كلام المؤرخين أن عدداً كبيراً منها قد انخرط عن الاسلام في القرن الرابع الهجري وظهر فيهم متنبوون ومشعوذون ، كما قصدهم الخوارج للمنة في جبالهم . وفي ذلك يقول ابن خلدون ومصاحب كتاب الاستبصار :

وكان غمارة هؤلاء ، عريقين في الجاهلية بل الجاهلية ، والبعد عن الشرائع بالداوة والانتباز عن مواطن الخير ، وتنبأ فيهم إنسان يعرف بحميم بن من الله ، ولقب بالمفتري - وفي رواية أخرى بالمقتدى - ولعلها هي الأصل ثم حرفت إلى المفتري - والجبل الذي تنبأ فيه بنسب إليه ، وهو جبل حميم على مقربة من نيطوان ، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته ، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها ، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ووضع لهم قرآناً بلسانهم (أي البربرية) . ومن تعاليمه انه أحل لهم أكل انثى

الخزير ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء ، وحرم عليهم الخوت حتى
بذكى ، وحرم بيض كل طائر .. الخ (١).

ولقد قتل هذا المتنبي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ،
بأحواز طنجة في حروب له مع قبائل مصمودة الساحل (٢) على حد قول
البكري وابن خلدون ، أو في حروب مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمن
الناصر ، على حد قول صاحب الاستبصار وصاحب مفاخر البربر (٣) .

وعلى الرغم من انقضاء أمر هذا المقتضى في القرن الرابع الهجري ، فإنه
يبدو أن بقايا بدعه وضلالاته ، قد استمرت في عمارة حتى مجيء المرابطين
في القرن الخامس الهجري . فابن خلدون يشير إلى متنبيء آخر ظهر في عمارة
بعد حاكم اسمه عاصم بن جميل البردعوى (٤) . كذلك يفهم من كلام البكري
الذي عاصر تلك الفترة ، أن أحد أولاد حاكم واسه عيسى ، كان لا يزال
مبجلا في قومه نغاره ، وأن الإباحية بين النساء كانت مطابقة وأن رجالهم
كانوا يربون شعورهم كالنساء ويتخلدون بها صفائر ، ويطيبنها ويتعممون
بها .. الخ (٥) فلو أن هذه البدع كانت قد انتهت قبل مجيء المرابطين لما فات
البكري أن يشير إلى ذلك .

(١) انظر (كتاب الاستبصار في عجائب الأسناد) مؤلف مجهول ص ١٩٠ نشر الدكتور
سعد زغلول (مطبوعات جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) وكذلك ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٩

(٢) ينسب إليها قصر مصمودة أو قصر الحجاز أو القصر الصغير الذي بناه زعماء مصمودة
بالقرب من طنجة على عهد طارق بن زياد ، وتقابله بلدة طريف Tarifa على الساحل الأندلسي
المقابل ، والمسافة بينهما اث عشر ميلا .

راجع (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٠ - ٢١١) ، البكري : المغرب في وصف إفريقيا
والمغرب ص ١٠١ .

(٣) راجع (كتاب الاستبصار ص ١٩١ - ١٩٢ ، كتاب مفاخر البربر مؤلف مجهول
ص ٧٧) .

(٤) انظر (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٩) .

(٥) البكري : نفس المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠٢ .

أما الطائفة الثانية فهي دولة برغواطة :

نشأت هذه الدولة أول الأمر في القرن الثاني للهجرة في إقليم تامنا (١) أو ما يسمى اليوم بالشاوية (٢) . وهي الأراضي التي تبدأ من مكان مدينة الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها (٣) ، وتنتهي عند بلدة أزموور عند مصب وادي أم الربيع . ويروى ابن الخطيب أن هذه الدولة اتخذت في بعض الأوقات مدينة شالة عاصمة لها (٤) وهذه المدينة ، كما هو معروف ، مدينة قديمة مندرجة ، مازالت أطلالها باقية خارج أسوار مدينة الرباط ، وقبالة مدينة سلا التي لا يفصلها عنها سوى وادي أبو الرقاق ولذا عرفت بشالة سلا (٥) .

ولقد اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة ، فبعضهم يرى بأنه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد ، بل كان اسماً لاختلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل ، ادعى النبوة ، اسمه صالح ابن طريف بن شمعون البرباطي ، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس

(١) تامنا : كلمة بربرية ، بلهجة زناتة ، ومعناها البسيط الخالي ، وقد أطلقت على البسيط المستحل من المحيط من الرباط إلى اندلس البيضاء التي يسمى الآن بالشاوية ، وهو الآن تكسو للزروع والحدوات ، ولكنه بالأمس كان أرضاً من مدرة وعليق تروى فيها الأغنام . وقد صي أحد أبواب مدينة الرباط بهذا الاسم (باب تامنا) وهو الذي تمتد منه الطريق الداهية إلى اندلس البيضاء ، وقد حفر أخيراً . ولا زال لفظ تامنا يطلق في صحراء غدامس على الأرض القفر والبسيط الخالي . راجع (لاوس : لغويات ، مجلة المغرب ، عدد سبتمبر وأكتوبر ١٩٢٦ ، السنة الخامسة) .

(٢) لما تلاحقت برغواطة ، حل محلها العرب ولاسيما عرب سويد من ريف الملالين وذلك في أيام الدولة المرينية ، ومنعوا بعرب الشاوية نسبة إلى الشام ، لأنهم كانوا يقومون برعاية أغنام وماشية الدولة المرينية . راجع (أحمد العيسى : آسفي وما إليه ص ٣٥) .

(٣) البكري : نفس المرجع ص ٨٧

(٤) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث المختصر بتاريخ المغرب ص ١٨٤

(٥) المقرئ : فتح الطيب ج ٨ ص ٢٢٢ . راجع كذلك : Henri Bassot et

Provencal : Chellah, une Nécropole Merénide [Paris 1922].

في ذلك إلى المورثات - اليهودية التي توجد في ديانتها مثل استعمال كلمة ياكش التي يرجعونها إلى يوشع اسم النبي اليهودي ، ومثل تربية الشعوب على شكل ضغائر ، على أنها عادة متبعة عند يهود بولونيا واليمن ، ومثل تحريم البيض ، والاعتقاد في تأثير المعاب وهي عادة عند يهود طنجة ، ومثل تقديس الديك وهي عادة لا زالت رواسيها باقية في المناطق التي كانت فيها برغواطة مثل الشاوية ودكالة حيث يحضل أهل البادية في بعض مواسمهم بدفن عظام الديك ، ومثل الاهتمام بموسى في تعاليمهم وتقديمه على عيسى ، هذا إلى جانب أن مؤسس هذه الدولة يهودي الأصل من ولد شعرون كما أسلفنا .

ولا شك أن هناك تأثيرات يهودية واضحة في ديانة يرغواطة ، إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه ، أن التأثيرات الاسلامية أقوى وأوضح بحيث يمكن أن يقال أنها تفاد مشره للإسلام في أساليب وطابع محل بربرى .

ويبدو أن النزعات الاستقلالية والقومية التي انتشرت بانتشار مذهب الخوارج في المغرب ، قد جعلت بعض المتطرفين يتجهون إلى مثل هذا الاتجاه الديني المستقل عن الاسلام . وقد يدل على ذلك قول الرحالة البغدادى ابن حوقل الذي زار المغرب في القرن الرابع الهجرى :

«وكان صالح بربرى الأصل ، مغربي المولد ، ضليعاً بلغة البربر ، يفهم غير لسان من ألسنتهم ، فدعاهم إلى الايمان به ، وذكر أنه نبي ورَسُول مبعوث اليهم بلغة البربر ، واحتج بقوله تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومهم» ، وان عملاً عربى اللسان مبعوث إلى قومه . ثم يضيف ابن حوقل : «وفهم (أى البرغواطين) من يفهم القرآن ، ويحفظ منه السور إلى الآن ، ويتأول آياته المرافقة لكتابتهم وقراءتهم (١) .

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك (مسرد الأرض) ص ٥٦ - ٥٧ ، نشرى بحوية ، طبعة (تهد ١٨٧٢) .

وكيفما كان الأمر ، فالذي يهتاف في هذا الصدد هو أن هؤلاء البرغواطيين كانوا في نظر المسلمين مجرمين منحرفين مارقين عن الدين الخفيف ، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم . وتجمع المصادر التاريخية على أن جميع الملوك والحكام الذين تداولوا حكم المغرب قبل مجيء المرابطين ، كالأدارسة والأميريين والفاطميين والزيريين والزنانيين ، قد جاهدوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة حتى إنه ليخيل إلى القارئ أنه قد قضى عليها تماماً ، ولكننا مع ذلك نجد أن برغواطة ظلت باقية مستقلة ، بل كان خطرها يزداد شدة ، وحدودها تزداد اتساعاً على حساب المسلمين المجاورين لها .

ففي كتاب الاتحاف الوجيز لمحمد بن علي الدكالي (١) ، وكتاب آسفي وما اليه لمحمد بن أحمد العبدى (٢) ، نجد ما يفيد من أن الحدود الجنوبية لهذه الدولة قد امتدت جنوب الشاوية على طول سواحل المحيط الأطلسي حتى شملت أقاليم دكالة وعبيدة وغيرها من الأراضي الحوزية (٣) جنوب آسفي ونواحي مراكش ، وإن هذه الدولة قد أرغمت أهالي تلك البلاد المسلمين على التدين بديانتها ، فسفكت الدماء ، وخربت البلاد والمدن التي بين ملامسة .

ويؤيد هذا الكلام أيضاً مارواه ابن الزيات التادلي عن رباط شاكرا ، القائم حتى الآن بالقرب من مدينة مراكش في طريق الشاعية إلى شيشاوه ويسميه الأهالي هناك سيدي شيكر ، فيقول :

-
- (١) محمد بن علي الدكالي السلاوي (توفي ١٩٤٥م) : الاتحاف الوجيز بأخبار الدولتين مولانا عبد العزيز ، مخطوط بخرانة الرباط رقم D. 1320 .
 (٢) محمد بن أحمد العبدى الكانوني : آسفي وما اليه ص ٧٨ - ٧٩ .
 (٣) بلاد الحوز هي المناطق الخصبة التي تحد بوادي أم الربيع ودكالة لوجده والأطلس ، ويشقها نهر تانسيفت والأردية المنفرجة منه . وقد قسم المغرانيون بلاد الحوز إلى حوز غربي وأوسط وشرقي . ومن هوائيم الحوز القديمة ، اخمات وفقيص ، التمان اندرستا بمدينة وازدهار مدينة مراكش (٤٩٢ هـ = ١٠٧٠ م) .

«ومنها سفرهم في كل رمضان إلى رباط شاطر الذي ذكر أنه من أصحاب عقبة بن نافع الفهري ، وأنه مات هناك ، وأن يعلى بن مصلين الراجراجي هو الذي بناه ، وكان يقاتل كفار برغواطة ، وغزاهم عدة مرات ، وأن طبله (وفي قراء أخرى طبله) هو الباقي الآن (١) .

وهذا النص يبين أن رباط شاطر كان مركزاً حروبياً للجهاد برغواطة التي امتدت حدودها جنوباً إلى نواحي مراكش . وما يقال عن رباط شاطر يقال أيضاً عن رباطات ماسه وفوز ونفيس التي انتشرت - كما يقول البكري - على سواحل هذه المنطقة الجنوبية (٢) . . كذلك يذكر الرحالة ابن حوقل أن أمير سجلماسة (تافيلالت الحالية) محمد بن الفتح بن ملحوار الذي رفض مذهب الخوارج وتنقب بالمشاكر لله ، قد أخذ يدعو قومه إلى جهاد برغواطة في منتصف القرن الرابع الهجري ، إلا أنه لم يصل إلى غرضه لأن الفاطميين أسروه ثم قتلوه عندما استولوا على سجلماسة بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٤هـ (٣)

هذا إلى جانب ما ذكره صاحب كتاب مشاهير أعيان فاس من أن البرغواطيين في أوائل القرن الخامس الهجري كانوا يعيشون فساداً في بلاد الحوس وسجلماسة وأن الملتجئين للمعتنقين خاضوا معهم في تلك الأماكن معركة فاصلة هزمتهم على أثرها بالمرايطين (٤)

كل هذا يبين لنا مدى الخطر البرغواطي في هذه النواحي المغربية الجنوبية . أما عن الحدود الشمالية لهذه الدولة ، فالمعروف في كتب التاريخ ،

(١) انظر (أبو يعقوب يوسف التاطل المعروف بابن انزيات : اشرف إلى رجال التصوف ص ٢٦ ، نشر ادولف فور ، الرباط ١٩٥٨) ، راجع كذلك (عبد الحى الكتاني : اشرف بقمة وأقدس - بتاحية مراكش ، مجلة المغرب ، السنة الخامسة ، يونيو - يوليو ١٩٣٦).

(٢) البكري : نفس المرجع ص ٨٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٥٧ - ٤٨ ، راجع كذلك (البكري ص ١٥١ ، ابن خلدون المعبر ج ٦ ص ١٢٢) .

(٤) راجع (مجلة البحث العلمي ، العدد الثالث ، سبتمبر - ديسمبر ١٩٦٤ ص ٢٤) .

أنها كانت تصل إلى قرب موضع مدينة الرباط ، العاصمة الحالية للمملكة المغربية .

وواضح من اسم هذه المدينة وتاريخها أنها كانت في الأصل رباطاً لجهاد برغواطة وفي ذلك يقول ابن حوقل في القرن الرابع الهجري :

«ومن وراء وادي سبور (١) إلى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد (٢) وادي سلا (٣) ، إليه تنتهي سكنى المسلمين ، وهي رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة (يعني شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف (٤) بها ، وربما اجتمع في هذا المكان

(١) وادي سبور Sbou من أحطم الأودية بالمغرب ، ينبع من جبل أطلس المتوسط وتتفرع منه عدة أودية تسقى نواحي فاس ومكناس ومنطقة الغرب ، ويصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة المهدية الحالية بعد مروره بانقنطرة ، وطوله حوالي ٦٠٠ كيلومتر ، وتعاين البلاد من كثرة فيضاناته .

(٢) هي المسافة التي كان يقطعها عامل البريد ، وقد قدرها الفقيه وعلماء المسالك بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، أي أن البريد هو مسافة التي سحر ميلا تقريبا .

(٣) المراد بوادي سلا هنا هو الوادي الصغير الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط ، وهو المعروف الآن بوادي أبي الرقراق (بورجرج) ويصب في المحيط الأطلسي . وأبو الرقراق تسمية حديثة ذكرها الحسن الوزان (ليون الإفريقي) في القرن السادس عشر الميلادي في كتابه المعروف بوصف إفريقيا الذي كتبه بالإيطالية ثم ترجم إلى عظم اللغات ما عدا العربية للأسف . أما الجغرافيون والمؤرخون القدماء فقد أطلقوا على هذا الوادي عدة أسماء مثل وادي الرمان ووادي النبط ووادي أسير ووادي سلا راجع (من الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٨٥ حاشية ١ ، ٢) .

(٤) يفهم من هذا النص أنه كان يوجد في هذه المنطقة ، رباطان متجاوران يفصل بينهما وادي سلا أو أبو الرقراق الحالي ، أحدهما كان في مدينة سلا الحالية ، والآخر كان في مواضعها في مكان مدينة الرباط الحالية بجوار الطلال شالة . ومن المعروف أن المرعدين هم الذين حولوا هذا الرباط الأخير إلى مدينة عامرة أسمرها رباط الفتح ، إذ كانت جيوشهم تتجمع فيها لتجهيزها وتكوينها قبل أن تتجه إلى أسبانيا برسم الجهاد والفتح . حول تاريخ هذه المدينة التي أصبحت حاضرة للمملكة المغربية راجع : أبو عبد الله بوجنادر : مقدمه الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٤٥هـ) راجع كذلك : (J. Caillé : La Ville de Rabat, 3 tomes (Paris 1945) . وأيضا (محمد بن علي كالي السلاوي : الانتعاف الوحيد بأخبار الصوتين مولانا عبد العزيز ، مخطوط مجزأة الرباط رقم D. 1320) .

من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون وينقصون ، ورباطهم على برغواطة ،
وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصبين بهذه الجهة التي شئت (١)
عمارة بلد الاسلام إليها (٢) .

على أن تعيد ابن حوقل لموضع مدينة الرباط ، كحد فاصل تنهى
هذه عمارة الاسلام ، لم يحل دون تغلغل نفوذ البرغواطيين وراءه نحو الشمال .

فابن الخطيب يشير إلى أن البرغواطيين اتخذوا من شالة عاصمة لهم
في بعض الأوقات (٣) كذلك نجد في كتاب اتخاف أعلام الناس بجمال أخبار
حاضرة مكناس ، للمولى عبد الرحمن ابن زيدان ، ما يفيد بأن أمراء برغواطة
قد امتد نفوذهم إلى شمال الرباط وأنهم استولوا على مدينة المعصورة (٤)
(المهدية الحالية) من ابدى بنى بفران الزناتيين حكام سلا ، وأنهم خربوها
فيا خربوه من المدن (٥) .

أكثر من ذلك ، إذا نحن صعدنا شمالا إلى منطقة سبتة وطنجة ، نجد
أن هذه البلاد كان يحكمها بعض ممالك الحموديين ، الذين كانوا في الأصل
من سبي برغواطة ثم ولاهم الحموديون بعض أعمالهم في سبتة ، فأنهز أحدهم
واسمه سقوت أو سواجات البرغواطي ، فرصة ضعف الحموديين ، واستبد
بحكم سبتة ، وعين ولده الحاجب ضياء الدولة على طنجة ، وطرده الحموديين
من هذه المنطقة ، ولم تلبث قبائل عمارة أن دانت له بالطاعة (٦) .

(١) شئت بمعنى قلت أو شئت أو انتهت .

(٢) راجع (ابن حوقل : صورة الأرض ج ٢ ص ٥٩ (نشرى غوية ، ليد ١٨٧٣)

(٣) ابن الخطيب أعمال الأعلام : القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

(٤) مدينة المهدية الحالية بالمغرب الأقصى كانت تعرف قديما بملق الرومي (سبو) أو المعصورة
ثم سميت بالمهدية أيام المرابطين سنة ١٠٩٢هـ (١٦١٨م) عندما ضيق الحصار على الجيش الأسباني المرابط
فيها ، فخرج إليه قائد الجيش مسلحا ويده مفتوحة المدينة كهدية للسلطان فأمنه وقبل هديتهم
دخل المدينة وسماها المهدية . والمدينة تقع على ساحل المحيط عند مصب وادي سبو بالقرب من القنيطرة .

(٥) راجع (عبد الرحمن بن زيدان : اتخاف أعلام الناس ج ٢ ص ٧٢ ، الرباط ١٩٢٠)

(٦) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٩ ص ٢٢١) .

ويحق لنا أن نتعامل عما إذا كانت ثمة علاقة بين هذه الامارة البرغواطية الشمالية وبين دولة برغواطة التي كانت في جنوبها ؟

النصوص القليلة التي لدينا في هذا الصدد تربط بين هاتين الدولتين وتؤكد وجود اتصال بينهما ومثال ذلك قول صاحب كتاب متأخر البربر .

« وكان ظهور برغواطة في سنة ١٢٥ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك ، ولم يزل الملك فيهم إلى أول ظهور المسلمين وخروجهم من الصحراء وآخر ملوك برغواطة هو الحاجب البرغواطي ضياء الدولة صاحب سبتة وطنجة » (١)

كذلك يقول ابن خلدون حين يصف شعوب تلك المنطقة :

« وبعض ذلك اتصال مواطن عمارة بمواطن برغواطة من شعوب المصامدة على ساحل البحر الغربي وهو المحيط : (٢) »

كل هذا يفهم منه أنه كان هناك استمرار أو اتصال سياسي بين الدولتين وإن كنا نشك في أن يكون سقوط البرغواطي وزملاؤه قد اتبعوا ديانة برغواطة المارقة بحكم اتصالهم بالحموديين الأشراف الأدارسة منذ صغرهم ، وقد يؤيد ذلك ما رواه ابن عذارى من أن سقوط البرغواطي ، طلب من أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة قارئاً للقرآن . فعلق ابن جهور على هذا الطلب بقوله : « جاهل يطلب قارئاً » ثم وجه اليه قارئاً من طائفة قرطبة اسمه عون الله بن نوح (٣) . فهذه العبارة وإن كان فيها شيء من الاحتقار بشخصية سقوط إلا إنها لا تنكر كونه مسلماً .

ولكن على الرغم من ذلك فإن معظم المؤرخين قد أجمعوا على أن سقوط البرغواطي كان رجلاً مفلساً على غرار أسلافة البرغواطيين ، وأن أساطيله قد عاثت فساداً في مضيق جبل طارق ، وأضررت بمصالح المسلمين في منطقة العدوتين ، ومثال ذلك قول ابن بتمام : « ... من رجل استعان بالشر ،

(١) كتاب متأخر البربر ، نشر ليفي برونتال ص ٤٧ .

(٢) ابن خلدون : كتاب البربر ج ٦ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣/ ص ٢٥٠ ، نشر برونتال (باريس ١٩٣٠) .

وتهاون بالأمر ، لاسيما في البحر ، فإنه أُخبرم بلججه ناراً ولقى ريجه إعصاراً
أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف إلى كل رعباً ، فضجت منه الأرض
والسماء ، والتفت الشكوى عليه والدعاء ... إلى أن أذن الله لأمير المسلمين
يوسف بن تاشفين الخ (١) .

مما تقدم نرى أن المغرب في هذه الفترة التي سبقت مجئ المرابطين ،
كان يمانى محنة كبيرة من جراء هذه الدولة البرغواطية التي يبدو أن خطرها
كان أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ ، خصوصا بعد أن تبين لنا اتصالها
وتعاونها مع قبائل غمارة في جبال الريف .

الطائفة الثالثة وهي للدول الزناتية :

ونعني بذلك قبائل مكناسة ومغراوة وبنى يفران وغيرها من القبائل
الزناتية التي تداولت حكم المغرب قبل مجئ المرابطين . وهذه الدول الزناتية ،
كانت في نظر المؤرخين ، ولاسيما بعد زوال نفوذ الإدارة ، هي القوة
الشرعية الحاكمة في المغرب على اعتبار أنها كانت سنية مسماة .

وعلى الرغم من المنازعات والمنافسات الداخلية التي قامت بين هذه القبائل
الزناتية فإنها قامت بدور إيجابي فعال في جهاد برغواطة ، ونلاحظ ذلك بوضوح
من المواضيع أو المراكز التي استقرت فيها هذه الإمارات الزناتية ، إذ نجد
أنها كانت تكون نطقاً أو تضرب حصاراً حول هذه التكتلات السابقة
ولاسيما برغواطة . ومن أهم تلك المراكز الزناتية المذكور :

إمارة سلا وكان يحكمها بنو يفران ، وفاس وتحكمها مغراوة ، وتادلا
وتحكمها بنو يفران وانغمات وتحكمها مغراوة ، ثم سجلماسة في أقصى الجنوب
وتحكمها بنو خزرون المغراويون . وكانت إمارة سلا في أيام أميرها أبي
الكمال تميم اليفراني - في أوائل القرن الخامس الهجري - من أشد الإمارات
وطأة على برغواطة . يروي صاحب القرطاس والسلوى الناصري في هذا

(١) نقل هذا النص ، صاحب طائر البربر ص ٥٥ - ٥٦ .

هذا الصدد : " وكان أبو النكاح تميم اليفرائي ، مستقيماً في دينه ، مولعاً بجهاد برغواطة ، كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، قتل ابنه في حرب لمثونة ، فجاءوا به ليدفنوه إلى جانب قبر أبيه تميم ، فسموا من قبره تكبيراً وشهدوا كثيراً ، فقبشوا قبره ، فألقوه لم يتغير منه شيء ، ثم رأه بعض قرابته في النوم ، فقال له : ما هذا التكبير والشهد الذي سمعناه من قبرك قال : تلك الملائكة ، وكناهم الله بقبري ، يكبرون ويهللون ويسبحون ، ويكون ثواب ذلك لي إلى يوم القيامة . قال ويمثل ذلك ؟ قال مجاهد بن يبرغواطة (١) . هذه الرواية وإن كانت تنسب بطابع قصصي ، إلا أنها تبين أن حرب برغواطة كانت في نظر المسلمين واجباً دينياً وجهاداً في سبيل الله .

وعلى الرغم من تلك الجهود الطيبة التي قامت بها بعض هذه الدويلات في جهاد برغواطة ، إلا أنها كانت عاجزة تماماً في القضاء عليها ، وصار الأمر يتطلب قوة أخرى جديدة تحل محلها في هذا الميدان الذي أخفقت فيه .

الطائفة الرابعة من روافض الشيعة والوثنيين :

هذه الطائفة عبارة عن أقليات مبعثرة من روافض الشيعة والوثنيين الذين استعملوا بحكم بعض النواحي في أقصى جنوب المغرب في بلاد السوس .

أما الشيعة ، فقد انتشروا بصفة خاصة في مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا يعرفون باسم البجليين (٢) . وقد اختلفت الآراء حول مذهبهم وتاريخ نشيئهم : فصاحب القرطاس ومن نقل عنه مثل الصلاوي الناصري ، يرون أن هؤلاء الشيعة كانوا اسماعيلية وأنهم ينتسبون إلى علي بن عبد الله

(١) ابن أبي زرع : دوح القرطاس ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢ ، الصلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢٢١

(٢) قال القلقشندي في كتابه نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ص ١٧١ : ويترجم بفتح الباء واللام وسكون الجيم بينهما ، بطن من جهة (يقسم الياء) العدنانية . ويحمله أهم نسبوا إليها وهي جملة بنت هذاة بن مالك بن فهم الأزدي . والنسبة إليهم بالصككين .

البجلي الرافضي الذي نزل بلاد السوس أيام حركة الخليفة عبيد الله المهدي بأفريقية ، وهناك في بلاد السوس نشر مذهب الرافضة وتوارثوه عنه جيلا بعد جيل (١) . أما ابن حوقل وكذلك الإدريسي ، فيذكران أن هؤلاء الشيعة كانوا موسوية أي اثنا عشرية يقوون بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ولا يعترفون بإمامة أخيه اسماعيل امام الاسماعيلية . ويضيف ابن حوقل أن هؤلاء الشيعة كانوا ينتسبون إلى رجل يدعى محمد بن ورصند البجلي ، وأنهم كانوا على عداء مع جيرانهم المالكية في السوس ، وأن القتال والنار متصل بينهم ليلا ونهاراً ، وأنه كان لهم مسجد واحد يصلى فيه الفريقان فرادى ، فإذا صلى هؤلاء أتوا هؤلاء وهكذا ، ثم يصف ابن حوقل طباع هؤلاء القوم سواء أكانوا مالكية أو موسوية فيرميهم بالجهل والجناء وغلط الطبع .. الخ (٢) .

أما البكري وابن حزم ، فروايتهما تناقض هذه الروايات السابقة من حيث المذهب . فيقولان بأن هذه الطائفة كانت تنسب إلى رجل من أهل نقطة من أعمال قفصة جنوبي تونس ، يسمى الحسن بن علي بن ورصند البجلي ، وأن هذا الرجل رحل إلى بلاد السوس قبل وصول أبي عبد الله الشيعي الداعي إلى أفريقية وأن مذهبه كان شيعياً بمذهب الروافض ، إلا أنه كان يقول بأن الإمامة لا تكون إلا في سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب وليس الحسين كما تقول الاسماعيلية والاثنا عشرية ولهذا كانت أئمة البجليين في سلالة الأداوسة . وقد رماهم ابن حزم بالكفر والحاد (٣) أما الرحالة المقدسي ، فإنه انفرد برواية خاصة سمى فيها هذه الطائفة بالإدريسية

-
- (١) ابن أبي زرع : دوح القرطاس - ٢ من ٢١ ، السلاوي : الاستقصا - ٢ من ١٣
(٢) ابن حوقل : صورة الأرض من ٥٦ - ٦٦ الإدريسي : وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية (من كتاب زحمة المشتاق في اختراق الآفاق) نشره فرديناند بريس من ٣٩ الجزائر سنة ١٩٤٧ .
(٣) البكري : المغرب في وصف أفريقية والمغرب من ١٦٦ ، شردي سنان (الجزائر ١٩١١)
ابن حزم : كتاب الملل والنحل - ٤ من ١٨٣ .

وقال إن مذاهبهم كانت قريبة من مذهب القرامطة ، ثم ربط بين المعتزلة والشيعية وقال بأنهم جميعاً يقولون بمذهب الاستيعابية (١) .

ومبها يمكن من شيء ، فإن اختلاف المؤرخين حول تحديد مذهب هذه الطائفة ، لم يحل دون اتفاقهم جميعاً على أن هؤلاء البجليين كانوا من روافض الشيعة وأنهم كانوا أعداء الداء للمذهب السني في المغرب .

أما من جهة العناصر الوثنية التي كانت أيضاً تقيم في تلك الجهات الجنوبية ، فرجعنا فيها هو كتاب البكري الذي أشار إلى قبيلة مجاورة للبجليين ، كانت تقيم في جبل وعز بنواحي الأطلس الكبير ، وكان أفرادها يعبدون الكباش ، ويسترون عند دخول الأسواق (٢) . ومن المعروف أن الكباش كان لها في مصر الفرعونية ويسمى بالاله خنوم ، فهل هذه العبادة كانت من رواسب موثرات مصرية قديمة ؟

من هذا العرض العام لهذه الدويلات الطائفية ، يتبين لنا أن المغرب في ذلك العهد ، كان يعاني محنة دينية وسياسية خطيرة ، وأنه كان في حاجة إلى معجزة تنقذه من هذا الموقف العصيب ، وهنا يأتي دور المرابطين . ولا شك أن المرابطين كانوا على علم تام بخطورة الحالة في المغرب ولا سيما بخطورة برغواطة ، أقوى دولة طائفية في المغرب في ذلك الوقت . وقد سبق أن أشرنا إلى أن شيخ المالكية بالقبر وأن أبا عمران الفاسي ، حينما رسم خطة قيام دولة الملمثين مع زعيمهم يحيى بن إبراهيم الجدلالي أوصاه بحرب برغواطة بصفة خاصة . وقد يؤيد ذلك أيضاً أن الفقيه الذي اختير لمهمة هداية الملمثين وتوحيدهم

(١) راجع (المقدس : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٣٨ (نشرى خوية ١٨٧٧) هذا وقد أشار البيهقي والبكري والادريسي إلى أن ملكة الإدارة كانت موطناً للاعتزال وأن عبد الله وأخته المولى ادريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة ، وأن قبيلة أوربه التي ساندت المولى ادريس كانت تدعى بالاعتزال راجع مقالنا (الموحدون والرسنة الإسلامية في مجلة التربية الوطنية المغربية ، العددان ١ ، ٢ ، مارس ، أبريل ١٩٩٢) .

(٢) البكري ص ١٦١ .

صفوفهم وهو عبد الله بن ياسين ، كان على علم تام بأحوال برغواطة قبل دخوله الصحراء ، وقد وصف ابن عذارى رحلة هذا الفقيه في بلاد المغرب وصفا مدعما بالأرقام ، وأغلب الظن أنها كانت رحلة استطلاعية تتعلق بالمهمة التي وكلت إليه ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : " ثم نزل عبد الله ابن ياسين بلاد المغرب الأقصى فربنا سنا ، فوجد فيها أمما لا تخصي ، أكثرهم تحت إمراء البرغواطة وكان عسكر إمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنضاف إليهم من سائر القبائل ما بين فارس وراجل ، أزيد من عشرين ألفا من جراوه وزغاره ومظفره والبرانس وركونه وغيرها" (١)

كذلك يشير صاحب القرطاس إلى اهتمام المرابطين بأمر برغواطة بقوله : فلما علم عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الضلال ، رأى أن الواجب الديني يقتضي تقديم جهادهم على غيرهم" (٢) .

وفي هذا المعنى يقول لسان الدين بن الخطيب :
 "وظهر أمر الامتورين ، ودعوتهم راجعة إلى أساس من فقه ودين ، فجمعوا من برغواطة جهادا قريبا" (٣) .

ثم يأتي صاحب كتاب الامتصار فيقولوا كلمة صريحة :
 "وكان خروج هذه القبائل الصحراوية لقتال برغواطة المرتدين عن ديانة الاسلام" (٤) .

وواضح من كل ما تقدم من نصوص أن المرابطين كانوا أصحاب رسالة سامية وأن خروجهم من الصحراء كان مرسوما وفق خطة موضوعة تقوم

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب أو البيان المرابطي : وهي قطعة خاصة بتاريخ المرابطين نشرها المستشرق الاسياني أريث ميراندا في مجلة (Hispania Vol 11, 1961, p. 48)
 (٢) ابن أبي زرع : دوض القرطاس - ٢ ص ٢٧ .
 (٣) ابن الخطيب : كتاب أعمال الاملام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ص ١٨٦ .
 (٤) كتاب الامتصار ، نشر محمد زغلول ص ٢٠ .

عن القضاء على أهل الزيغ والضلالة من البرغواطيين وغيرهم . كذا كان للمرابطين الى جانب هذه سياسة اصلاحية لم تثبت أن ظهرت نتائجها واستقرت أوضاعها في المغرب منذ بداية دولتهم إلى يومنا هذا ، وهذه السياسة تقوم على عدم السماح بتعدد المذاهب الدينية التي انتشرت بشكل ملحوظ في المغرب كالحوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والمالكية ، مما جعل البلاد عرضة للفتن والحلقات المذهبية . ولما كان المغرب كالأندلس ، يعتبر ثغراً للإسلام في أقصى الغرب ، فقد حرص المرابطون على الاكتفاء بسياسة المذهب الواحد وهو المذهب المالكي الذي قامت عليه دولتهم ، فتمسكوا به واتخذوه أساساً في كل ما يرجعون اليه من أمور دينية ودينية . وكان الأندلس قد سبق المغرب في هذا المضمار منذ أيام هشام بن عبد الرحمن الأموي في القرن الهجري الثاني ، إذ يروي المقدسي في هذا الصدد أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظراً يوماً بين يدي السلطان فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة فقال : وما لك ؟ قالوا : من المدينة ، قال عالم دار الهجرة يكفيناه ، فأمر بالخراج أصحاب أبي حنيفة وقال : لأحب أن يكون في عملي مذهبان^(١) . ولا شك أن هذه السياسة قد حفظت لهذه الثغور الإسلامية سلامتها ووحدتها الروحية فكانت لذلك درعاً حامياً للإسلام في أقصى الغرب . ومن الطريف أن الممالك المسيحية التي كانت متاخمة للمسلمين في هذه المنطقة وأعني بذلك إسبانيا ، قد اتبعت هي الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد باعتبارها هي الأخرى ثغراً للمسيحية في هذه المنطقة ، فاقترنت على المذهب الكاثوليكي وتعصبت له حتى ضرب بها المثل فقيل إنها أكثر تعصباً للبابوية أي للكاثوليكية من البابا نفسه "Mas Papista que el Papa" .

وهذه العبارة تذكرنا بموقف أهل الأندلس من المذهب المالكي عند قول المقدسي على لسانهم "وهم يقولون ولا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك"^(٢) .

(١) راجع Al Muqaddasi : Description de L'occident musulmane au IV-X siècle , texte arabe et traduction française Par Charles Pellat. P. 44 (Alger 1930)

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٠

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني عبد الله بن ياسين ، وقائدهم الحربي أبو بكر بن عمر اللمتوني . فانجهوا أولا إلى بلاد السوس واستولوا على قاعدتها تارودانت ، وقضوا على الشيعة والوثنيين كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة (١) .

ثم انجهوا بعد ذلك إلى بلاد الحوز واستولوا على عاصمتها أغمات ، وقد ترتب على هذا الفتح أن قتل أمير أغمات لقوت المغراوي ، وتزوج الامير أبو بكر بن عمر ارملة زينب النفزاوية التي أشاد المؤرخون بحماها وذكائها.

ونظراً لأهمية أغمات كدبنة متحضرة من جهة ، ولقربها من الصحراء من جهة أخرى ، فقد اختارها المرابطون عاصمة مؤقتة لهم إلى أن تم بناء عاصمتهم الجديدة مراكش التي أسسها اميرهم أبو بكر بن عمر سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠) (٢) .

وتحركات المرابطين بعد استيلائهم على أغمات ، نجدها تنحج نحو هذه التكتلات الرئيسية المارقة : برغواطة وغمارة . اتجه عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر اللمتوني نحو برغواطة ، بينما اتجه القائد يوسف بن تاشفين بعد ذلك نحو غمارة . ويبدو من تحركات جيوش المرابطين ، أن العمليات العسكرية الرئيسية التي قاموا بها قد دارت في الشمال بصفة خاصة . فباتقرب من مدينة الرباط الحالية في منطقة زعير دارت معركة عنيفة بين المرابطين والبرغواطيين ، استشهد فيها زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين (٣) سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . مات هذا الزعيم على الرغم من نصائحه ومبادئه التي

(١) دوح القوطاس - ٢١ - ٢٤

(٢) راجع مقالنا حول أهمية كتاب الحلل المشية في مجلة تطوان ، العدد الخامس (١٩٩٠)

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣٠

كان يرددها دائماً من أن حياة الجيش تتوقف على حياة قائدة ، إذ يروى أنه غضب يوماً على الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، وضربه بالسوط على برجله لأنه عرض حياته للخطر أثناء القتال وقال له : " أن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة جنده ، وهلاكه هو هلاكهم " (١) ولكن نشاء الأقدار أن يقع هو نفسه في هذا المحذور . ودفن عبد الله بن ياسين على ربوة قريبة من الرباط نطل على وادي كريفلة أحد فروع وادي أبي الرقراق ، ولا يزال قبره هناك في هذا المكان ويسميه أهالي تلك الناحية سيدي عبد الله مول الفارة (٢) .

وتولى الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني زعامة المرابطين الروحية والعسكرية ، وأخذ يعمل على توحيد صفوفه من جديد بعد تلك الكارثة التي حلت بجيشه من جراء وفاة زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين ، فيروى ابن الأثير أن أبا بكر بن عمر صلى بجنوده ، ثم دعا ربه بدعاء سمعه معظم جيشه : " اللهم أن كذا على حق فأنصرنا ، وإلا فأرحنا من هذه الدنيا " ثم اندفع بجنوده نحو برغواطة فاستأصل شأفتهم وعادعوهم وأسلم الباقون منهم إسلاماً جديداً (٣) .

أما الحملة التي قام بها يوسف بن تاشفين في بلاد غمارة ، فأنها اتخذت نفس الهدف والاتجاه ، إذ ينهم من كلام المؤرخين أن يوسف بن تاشفين قد تحاشى الاصطدام بالقوات الزناتية ، وأنه دخل فاس صلحاً سنة ٤٥٠ هـ وترك فيها حامية صغيرة ثم تقدم صوب الشمال إلى بلاد غمارة ، ففتح جبالها وبلادها من الريف إلى طنجة واستعان في مهاجمتها بحصون وقلاع أسسها في مواجهتها مثل حصن ناودا أو بني توده وحصن Amergo أمرجو ،

(١) ابن خلدون : البيان المغرب ، الجزء الخامس بالمرابطين في (Hespéris, Vol. II, 1961)

(٢) راجع Jacques Caillé : La Ville de Rabat, tome I p. 43

(٣) ابن الأثير : الكامل ٩ ص ٢٥٩ وينهم عن روايات بعض المؤرخين أن القضاء النهائي على برغواطة لم يتم إلا في عهد الموحدين على يد خليفته الأول عبد المؤمن بن علي الكومي راجع (ابن أبي زرع : روض القرطاس ٢ ص ١٤٢ - ١٤٥).

وقد أشاد المؤرخون بمناعة تلك الحصون والدور الحام الذي قامت به في فتح هذه البلاد وتطهيرها من الفساد المنتشر فيها ، ومثال ذلك قول صاحب كتاب الاستبصار :

”وكانت تودا مدينة كبيرة ، أسسها المثلثون ليتملكوا منها جبل غمارة ، وكان يكتنحها ولاية المغرب منهم بالعسكر وكانت في أيامهم معمورة بالمباني الجمال والقصور المنيعة ، وهي على وادي ورغة ، وعليها جبل مشيف ، فيه حصن كبير من بناء المثلثين يسمى أمرجو ، وهو مبني بالحجارة والجير ، لا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة“ (١) .

وما زالت اطلال مدينة تودا باقية إلى اليوم شمالى فاس بنحو تسعين كيلومترا في طريق وزان وتعرف الآن بقاعة فاس الياالي (٢) .

ومن الطريف أنه توجد في مصر الآن أسرة معروفة باسم التودى ، فلعلها تنسب في الأصل إلى هذه المدينة المغربية المجاهدة .

وبينا كان يوسف بن تاشفين يحارب غمارة في الشمال ، إذا بالزناتيين في فاس يتكثرون ضده ويقاتلون حاميته ويستولون على المدينة ، فاضطر يوسف أن يعود ادراجه وأن يقاتل الزناتيين ويتنصر عليهم ثم يدخل فاس للمرة الثانية سنة ٤٦٢ هـ (٣) .

ولقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يوسف بن تاشفين قد أخطأ خطأ حربياً جسيماً بالدفاعه نحو غمارة أولا ، وتركه للزناتيين يتكثرون وراءه

(١) كتاب الاستبصار ص ١٩٠ .

(٢) حلت تودا في أوائل أيام الموحدين ، ثم عادت فُضرت من جديد إلى أن حلتها أول ملوك السعديين أبو عبد الله القائم بأمر الله في أوائل القرن السادس عشر ، ومازالت انقاضها تحتل مساحة كبيرة . ومن الأطلال جدار ارتفاعه ٣ إلى ٥ متر وحام مربع الشكل مقسم إلى ثلاث غرف . راجع (الصديق بن العربي : كتاب المغرب ص ١١٩ ، عبد العزيز ابن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية = ٢ / ص ٥٤) كذلك (Le guide Blue : Maroc, p. 395)

(٣) السلاوي التامري : كتاب الاستبصار ج ٢ ص ٢٧

ويتفقون حاميه في فاس ، وانتهوا إلى أمام يوسف بن تاشفين بالطمع والاندفاع (١) . والواقع أننا بعد أن بينا أهداف المرابطين التي قامت على تقديم جهاد المارقين قبل أى جهاد آخر ، ندرك لماذا يادر المرابطون إلى قتال برغواطة وغمارة قبل الزناتيين فحطة الغزو المرابطى نراها واضحة وسابحة ومدبرة تدبيراً محكماً .

بما تقدم نرى أن المرابطين قد نجحوا إلى حد كبير في تحقيق رسالتهم ، ولعل أبسط دليل على ذلك هو أن تلك المناطق التي كانت موطناً للمتبئين وذوى العقائد الضعيفة ، قد أصبحت في القرنين السادس واليابع أى في عهد المرابطين ثم الموحديين بعدهم ، من أشد المناطق تديناً ، بل واغراقاً في الزهد والتصوف :

فتى جبال غمارة ، ظهر عدد كبير من الصالحاء والمتصوفة الذين أفرد لهم عبد الحق البادمي كتاباً خاصاً تحت عنوان : "المقصد الشريف والمزرع اللطيف في ذكر صالحاء الزيد" (٢) . وحسبى ان أشير إلى بعض أقطابهم أمثال عبد السلام بن مشيش وتلميذه أبى الحسن الشاذلى (٣) . كذلك يلاحظ أن عادة تربية الشعور بين رجال غمارة التي وصيغها البكرى في أوائل القرن الخامس الهجرى ، قد اختفت بعد ذلك فحلق الناس رؤوسهم ، وورث ذلك الأبناء عن الآباء - وقد لاحظ هذا التغير صاحب كتاب الاستبصار في القرن السادس الهجرى وعلل ذلك بأنه نتيجة لتغلغل الاسلام (٤) في بلادهم. أما المنطقة الغربية والجنوبية التي كانت مهداً للبرغواطيين فقد تحولت هي

-
- (١) راجع عل سبيل المثال (دكتور حسن أحد محمود : قيام دولة المرابطين من ٢٠٣) .
(٢) هذا الكتاب ألّفه عبد الحق البادمي سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وقد ترجمه إلى اللغة الفرنسية للمشرق الفرنسي g. s. Colin كروان في 1926 (Archives Marocaines XXVI, paris 1926)
(٣) هو تقي الدين أبو الحسن عل بن عبد الجبار الشاذلى (٤٩٣ - ٥٦٥ هـ = ١١٩٧ - ١٢٥٨ م) راجع ماكتبه عنه الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه أهلام الاسكندرية في العصر الاسلامى من ١٦١ (القاهرة ١٩٦٥) .
(٤) كتب الاستبصار من ١٩٣ .

الأخرى إلى مسرح خصيب لحركة صوفية شعبية قوية . ويكفي أن نشير إلى سلسلة الرباطات التي انتشرت على طول الساحل الغربي في آنفا وأزمور وآسفى وتيط وغيرها . هذا إلى جانب الصلحاء والمريدين والمتصوفة الذين ظهروا بكثرة في هذه المنطقة على عهد المرابطين والموحدين وقد أفرد لهم ابن الزيات التادى كتاباً خاصاً تحت عنوان : «التشوف إلى رجال التصوف» (١).

هذا وبلا حظ أن هذه الحركة الصوفية كانت في ذلك الوقت سليمة وبعيدة عن الشوائب والبدع ، لأن المشرفين على حكم المغرب في ذلك الوقت كانوا متشبعين بالروح الصوفية السليمة ، فلم يسمحوا لظهور أى بدعة في بلادهم . وقد عبر عن هذه الحالة ، الامام الزاهد أبو بكر الطرطوشي نزير الاسكندرية ، عندما بعث برسالة إلى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين يذكره فيها بالحديث النبوى الشريف :

«لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» ثم يضيف معتقاً : والله أعلم ، هل أرادكم بذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أو أراد أهل المغرب لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع» (٢).

جهاد المرابطين في السودان الغربي :

لم تقتصر مآثر المرابطين على جهاد المارقين في بلاد المغرب شمالاً ، بل امتدت إلى جهاد الوثنيين في بلاد السودان جنوباً ، وكان لها من النتائج الهامة مثل ما كان لجهادهم في الشمال .

وكان يحكم بلاد السودان الغربي في ذلك الوقت ، ممكة غانا التي تعتبر أقدم دولة في غرب إفريقيا شمالى نطاق الغابات . وقد رجح المؤرخون

(١) هذا الكتاب ألفه ابن الزيات في القرن السابع الهجرى ، وقد تمحاش ذكر الأحياء من معاصريه . وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسى أدولف نور في الرباط سنة ١٩٥٨ م .

(٢) راجع : عبد الواحد المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥ ، عبد العزيز ابن عبد الله : الفكر الصوفى بالمغرب ، مجلة البينة ، (الإعداد : ٤ ، ٦ ، ٧ سنة ١٩٦٢).

أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث الميلادي ، وإنها كانت تسمى بامباطورية بافور ، ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم غانا وهو اللقب الذي كان يحمله ملوكها ، ثم توسعوا في استعماله حتى صار يشمل اسم الدولة والعاصمة معاً . ولقد اندرست مدينة غانا العاصمة واندرست معالمها ، إلا أن الحفريات التي قام بها العلماء ، قد كشفت عن مدائن تمتد عدة كيلو مترات قرب مدينة النعمة في منطقة الحوض من موريطانيا على مسافة ثلاثمائة كيلو متر من باماكو ، وهي تشهد بحضارة دولة غانا ورقيا (١) .

وكان ملوك هذه الدولة وعامة شعبها يدينون بالوثنية ، إلا أنه كانت توجد بينهم أيضاً أقلية إسلامية لها مساجدها وتتمتع بحرية تامة في مزاوله شعائرها الدينية . وقد أعطانا المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب أمثال ابن حوقل والبكري ، صورة واضحة عن مدى ما بلغت هذه الدولة من حضارة ورقى .

ويبدو أن هذه الدولة قد بلغت أوج عزها وعظمتها فيما بين القرن الثالث وأوائل الخامس الهجري ، وأن نفوذها قد امتد إلى تمبوكتو شرقاً وبلاد الشكرو أو السنغال غرباً ، وينابيع النيجر جنوباً ، وأغلب الصحراء الغربية (موريطانيا) شمالاً .

ولم تكن العلاقة طيبة بين مملكة غانا وبين جيرانها المسلمين في الشمال . فقد كثرت المنازعات بينهما ، وحاول كل منهما أن يعتدي على أرض الآخر . وكثيراً ما استغلت غانا تفرق شمل هذه القبائل الصمائية ، كى تبسط سيطرتها على هذه المنطقة . على أن هذا الوضع السياسى لم يلبث أن تغير تماماً بعد هذه الانتفاضة الدينية التى وجدت شمل هذه القبائل ، وجعلت

(١) راجع ماكيب الأستاذ قاسم الزميرى حول الممالك الإسلامية القديمة في أفريقيا السوداء في مجلة دعوة الحق (الأعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ سنة ١٩٦٢) دكتور حسن إبراهيم سنن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرق القارة الافريقية وغربها ص ٥٤-٥٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

منها قوة يخشى بأسمها على مملكة غانا نفسها ، والأحداث التاريخية التي تلت ذلك تدل على أن نهاية مملكة غانا كانت في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وعلى يد هؤلاء المثلثين الصحابيين أو بتعبير أصبح المرابطين . وتفصيل ذلك أن الأمير أبا بكر عمر اللمتوني ، بعد أن وطد نفوذ المرابطين في المغرب ، وبني لهم مدينة مراکش لتكون قاعدة لملكهم هناك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) ترك الأمر هناك لابن عمه يوسف بن تاسفين ، وانجبه عبر الصحراء جنوباً للجهاد في الجبهة الثانية ضد مملكة غانا الوثنية . وفي سبيل هذا الهدف العظيم ، اضطر الأمير المجاهد أبو بكر بن عمر ، أن يترك زوجته وأهله ووطنه ، وأن يبيع نفسه من الله ، يروي أنه قال لزوجته زينب النزاعية عند فراقها لها : يا زينب ، اني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعل أرزق الشهادة والغور بالأجر الوافر ، ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي ، فان أنمت ، كنت مسؤولاً عنك ، والرأي أن أطلقك ثم طلقها ، ويقال انه قال لابن عمه يوسف بن تاسفين : «تزوجها فانها امرأة مسودة. فتزوجها يوسف» (١) ثم خرج أبو بكر بن عمر إلى غزو مملكة غانا ، وفي ذلك يقول السلادى الناصرى : ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وثلاثي أمرهم في المائة الخامسة ، واستفحل أسر المثلثين المجاورين لهم من جهة الشمال ، وزحف اليهم فاتح المغرب الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني وفتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر ، وحمل الكثير منهم ممن لم يكن قد أسلم قبل ذلك ، على الإسلام ، فدأبوا به ، ثم أضمحل ملك أهل غانة بالكلية . ثم غلب أهل مائ على الأعم المجاورين لهم وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدي أهل غانة. (٢) .

وقال صاحب الخلل الموشية : «وأسلم أهل غانة ، وحسن إسلامهم عند خروج الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني اليهم» (٣) .

(١) راجع (ابن حذارى: البيان المغرب، الجزء الخامس والمرابطين في Hâperis - Tamuda Vol-II, 1961).

(راجع كذلك (روضع تقرطاس = ٢ ص ٢٣) .

(٢) السلادى : الاستقصا = ٥ ص ١٠٠ .

(٣) الخلل الموشية لتؤلف مجهول ص ٧ (نشر حلوش)

كذلك يقول صاحب القرطاس : وخرج أبو بكر إلى غزو بلاد السودان ، فجاءهم حتى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر إلى أن استشهد بسهم مسموم بعد أن استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان (١).

فن هذه النصوص وغيرها ، نجد أن سقوط مملكة غانا ، وانتشار الإسلام بين أهلها ، ثم قيام مملكة مالي الإسلامية على أنقاضها ، كان ثمرة من ثمرات جهاد هذا الأمير وجنوده المرابطين (٢) .

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد الكبير بالشهادة التي كان ياشدها ، فلذكرنا بالشهيد عقبه .

وبعد ، فهذه هي بعض الصفحات الأولى التي خطها المرابطون بسيرهم ودمائهم ضد المارقين والمشركين في المغرب والصحراء والسودان ، فنصروا الإسلام وأدوا رسالتهم أحسن الأداء .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٢٥ ، ولعل المقصود بجبل الذهب هنا هو بلاد ونقارة Wangata التي كانت تقع خارج حدود غانة والتي كانت شعوب الماندينجو تخرج منها الذهب وتبديله بالملح والسلع الأخرى من غانة . راجع (حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة ص ٥٦)

(٢) يقال أن عدداً كبيراً من أهل غانا قروا من الموت أمام زحف المرابطين ، وقصروا ساحل الذهب وعمروها . ولهذا اختار الرئيس السابق نكروما إطلاق اسم غانا على دولته إحياء لذكرى هذه الدولة القديمة العريقة .

أبو تمام في مصر

للكنوز طه الحامري

١

نضى أبو تمام فترة حدائته في مصر ، وحدائته الرجل هي - في حقيقة الأمر - الفترة التي تجتمع فيها معظم العوامل التي تعين وجهته ، وتطبع شخصيته ، وترسم الخطوط الكبرى في منهج حياته . ففى هذه الفترة التي قضها أبو تمام في مصر شقت شاعريته سبيلها ، واختارت له مقاديره الوجهة التي جعل يتجه إليها ، وتكونت لشاعريته عناصرها الأولى التي مالبت أن تمت وامتدت وترعرعت وهيأت له ذلك المكان الرفيع الذي تزواه بين شعراء القرن الثالث ، وذلك اللون الخاص الذي عرف به في تاريخ الأدب العربي .

ومع هذه الخطورة الظاهرة التي تمتاز بها هذه الفترة من حياة أبي تمام فانما مضت مغمورة مطوية ، لا يكاد أحد يعنى بها أو يقف عندها ، ممن ترجموا له من علمائنا المتقدمين ؛ إذ لم تظفر منهم إلا بما قد يعد طرفه تبتعث الدهشة ، من أنه بدأ حياته في مصر وهو يصطنع السقاية في المسجد ، ياتمس بها عيشه ، ويقيم بها أوده . فيقول الخطيب البغدادي مثلاً : « كان بمصر في حدائته يستنى الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس الأدباء فأخذ منهم وتعلم منهم » (١) ، ثم يحى بعده ابن خلكان فلا يزيد على ترديد هذا الخبر ، إذ يقول : « ونشأ بمصر ، قيل أنه كان يسقى الناس ماء بالجرة في جامع مصر » (٢)

(١) تاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨ ، ط القاهرة ، سنة ١٩٣١ -

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٧

أما ما عدا ذلك من ألوان حياته بمصر ، وصروف صلاته بها ، وما أتبع له فيها من مقومات حياته ، وما تقلب عليه من أحداث وما عاناه من خطوب ، وما تعرض له فيها من تجارب نفسية ، فقد ذهب مغلوياً في الغمرات التي كانت تلف حياة شاعر ناشئ ، مثله ، في إقليم بعيد عن مركز النشاط العلمي والأدبي كمصر .

وقد عرض لأبي تمام جماعة ممن عتوا بتاريخ الأدب العربي والتأليف فيه من علمائنا المعاصرين ، فمنهم من عرض له في سياق كلامه عن تاريخ الأدب عامة ، أو تلك المرحلة التي تقع فيها حياة أبي تمام من ذلك التاريخ ، فكان من الطبيعي الاتجاء العذائية بأبي تمام في مصر متبعاً لها في ذلك الإجمال .

ومنهم من عرض له في سياق دراسته لتاريخ الأدب العربي في مصر كالـ دكتور محمد كامل حسين ، ولكنه - وإن تلبث عنده برهه - لم يلبث أن مضى عنه معجلاً ، لأن حياة أبي تمام في مصر غامضة أشد الغموض ، إذ لم يصلنا عنه شيء كثير في مصر ، ولا نعرف عن أحد علومه ، كما لا نعرف شيئاً عن اتصاله بأشراف مصر وشعرائهم ، كما هو نص عبارته (١)

ومنهم من توفّر عليه ، فأفرده بالدرس وخصه بكتاب على حدة ، كالأستاذ عمر فروخ في كتاب سماه : «أبو تمام» شاعر الخليفة محمد بن المعتصم بالله (٢) والأستاذ نجيب محمد الهبيتي في كتابه : «أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره» (٣) ومن الطبيعي أن نتوقع في مثل هذا النمط من التأليف أن نجد فيه لهذه الفترة ، فترة حياة أبي تمام في مصر ، مكاناً خاصاً يتسع لتفصيل القول فيها ، إذ كانت جزءاً من حياته ، ومرحلة كبيرة الخطر بين مراحلها .

(١) في الأدب المصري الاسلامي من الفتح الاسلامي إلى دخول الناصريين ، ص ١٩١ . مطبعة الاعياد بمصر .

(٢) طبع بمطبعة الانكشاف ، في بيروت ١٩٣٥ م .

(٣) طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ، في القاهرة ١٩٤٥ م .

بيد أن هذين الكتابين اللذين يمثلان هذا النمط يتفاوتان فيما بينهما تفاوتاً كبيراً في أسلوب التفكير ومنهج الدراسة ، وخاصة فيما يتعلق بالكلام عن أبي تمام في مصر . فلم يكن صاحب كتاب «أبو تمام شاعر الخليفة...» يلم بهذه الفترة من حياة أبي تمام ، ويجعل القول إجحافاً في صلته بعياش بن هاشم حتى يمضي عنها . في حين وقف صاحب كتاب «أبو تمام الطائي» عندها وقفة طويلة بعض الشيء ، مقدراً ما لها من خطر ، وأخذ في وقفته هذه يردد النظر ويقابل بين وجهه الرأي ، ويستقرئ ألوان ثقافة أبي تمام ، كما يشير إليها شعره ، على اعتبار أن هذه الثقافة إنما تكونت له في مصر ، وأن تعرفها إنما يعد تعرفاً لهذه الفترة من حياته . وبذلك جاز لنا القول بأن الدكتور نجيب البهيتي أول من اتجه إلى العناية بتجلية حياة أبي تمام في مصر بغض النظر عن مبلغ ما أصاب في ذلك من توفيق ، وما بلغه من مدى . فقد يبدو لنا أنه لم يتقص شعر أبي تمام على الوجه الذي يمكن له من هذه التجلية بما يتفق مع مكانة هذه الفترة في تاريخه وفي سيرته الشعرية . ولكننا — على كل حال — أول محاولة جدية من هذا القبيل ، فلها بذلك هذه الفضيلة ، وإن جاءت بشربة ببعض مظاهر النقص والاضطراب .

ونحن في هذه الدراسة التي نقدمها اليوم ، والتي أردنا بها أن نسهم في هذه الناحية ، نرجو أن يكون قد اتضح لنا من التوفر على تعرف حياة أبي تمام في مصر ، ما يجعلها أدنى إلى الاحاطة ، وأقرب إلى إبراز صورة واضحة دقيقة لها ، وإلى تبين العوامل والملازمات المختلفة التي أحاطت بأبي تمام فيها ، وكان لها أثرها الكبير في توجيه ملكاته الفنية وإنتاجه الشعري هذه الوجهة التي نراها .

٢

متى قدم أبو تمام مصر ؟ ومتى رحل عنها ؟ أو بعبارة أخرى : ما هي حدود الفترة التي أقامها فيها ؟ .

هذه هي المسألة الأولى التي لا بد من القضاء فيها قبل كل شيء . ولا سبيل إلى أن تبلغ من ذلك مقطع الحق أو ما هو أشبه به ، كما لا سبيل إلى تصوير

شيء من حياته في هذه الفترة ، إلا أن نعتمد على شعره ، نقصاه جهد ما نملك ، ونسبظته غاية ما نستطيع ، ونستلهمه في بصيرة وحذر ، ونستخرج منه ما عسى أن يكون فيه من الأعلام الهادية المميزة ، نهدى بها في هذا المجهل المبهم الغامض من حياته ، مع المقارنة بما عسى أن يكون هنالك من الأحداث التاريخية الملتبسة بهذا الشعر ، مما أتبع له أن يظفر بعناية المؤرخين الذين بلغت آثارهم .

ومن ذلك ما احتفظ لنا به أبو عمر الكندي في كتابه عن قضاة مصر وولاتها ، في سياق كلامه عن عبد الله بن طاهر وولايته مصر ، وما كان بينه وبين ابن السرى من أحداث ، سنة ٢١١ ، مما قاله شاعرنا أبو تمام في مدح ابن طاهر ، والثبوت بتلك الموقعة التي انتصر فيها على خصمه ابن السرى . فلهذا - ولأريب - دلالة القاطعة على أن أبا تمام كان بمصر في ذلك الوقت ، سنة ٢١١ .

ومن ذلك أيضاً ما احتفظ به ديوان أبي تمام الذي بين أيدينا من الشعر الذي قاله في رثاء عمير بن الوليد . فإذا علمنا أن عميراً هذا قتل سنة ٢١٤ ، كان في ذلك ما يدلنا على أن أبا تمام ظل في مصر إلى هذا العام .

ولكننا لا نلبث حتى نجد مصر المذكورة في قصيدة أخرى له قالها في مدح المأمون ، مما يرجع لدينا أنه قالها وهو لا يزال مقيماً في مصر ، وذلك إذ يقول فيها :

أهلاً وسهلاً بالامام ومرحباً ، سهات حزونة كل أمر قرد
متجرداً ثبت المواطن ، عزمه متجرد للحوادث المتجرد
فانتاش مصر من التتيا والتي بتجاوز وتناط وتغمد

فلعله إنما كان يشير بذلك إلى تلك الفتن المتصلة التي كانت مصر تضطرب بها في ذلك الوقت ، والتي حفزت الخليفة المأمون إلى أن يمضى بنفسه إليها ،

للماجنيتها واطفاء نائرتها ، سنة ٢١٧ . فاذا صبح ذلك ، وهو — فيما يبدو لنا صحيح — كان لنا أن نذهب إلى القول بأن أبا تمام ظل في مصر إلى هذه السنة سنة ٢١٧ ، وإذ رأينا أنه كان فيها منذ سنة ٢١١ ، كان لنا أن نذهب إلى القول أيضاً بأن إقامته بها لم تكن أقل من ستة أعوام (١) .

وذلك هو ما يمكن أن يؤول إليه إلينا شعر أبي تمام في هذه المسألة ، مقارناً بما اتبع له أن يلفظنا من الأحداث التاريخية المتصلة به .

أما صاحب «أبو تمام شاعر الخليفة...» فقد ذهب في ذلك إلى افتراض ذهابه إلى مصر فيما بين سنتي ٢٠٨ ، ٢٠٩ . ولكنه — إذ يقرر ذلك — يرسله لإرسالاً ، دون رواية تستدعيه ، أو دليل يعتمد عليه ، أو شبهة تذكر معه . فهو اذن فرض نحكمي ، لا علينا أن نتجاوزه دون مناقشة .

وأما صاحب «أبو تمام الطائي» فقد ذهب في ذلك مذهباً طريفاً يختلف كل الاختلاف مع ما ذكرنا ، إذ يجعل مقام أبي تمام في مصر في فترتين ويجعل مقدمه إليها مرتين ، أولاهما حول سنة ١٩٥ حتى سنة ١٩٨ ، وقد اتصل — عنده — في هذه الفترة بعباش بن طه الحضرى ، والأخرى سنة ٢١١ وقد اتصل فيها بعباد الله بن طاهر ، ثم بعصير بن الوليد ، حتى غادرها أخيراً إلى العراق بعد مقتل عصير ، سنة ٢١٤ .

وبحسب الأستاذ البهيتي ، حين يذهب هذا المذهب الطريف في بيان اتصال أبي تمام بمصر ، بما في ذلك من تجانف عن المقرر ومخالفة للمعروف فيقول في سياق تقريره له : «وليس في التاريخ ذكر لمقدم أبي تمام» ،

(١) يشير أبو تمام في إحدى قصائده التي يشكو فيها حيشه في مصر ، إلى أن إقامته بلغت خمس سنين ، وذلك إذ يقول :

أخسة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان لكل من الشكل (الديوان ص ٣٥٩)
حل أنه ليس في انقصية كلها مايدل على أنه قالها وهو مرتحل من مصر . فليس في هذا البيت دليل أو شبه دليل على أن مقامة في مصر كان خمسة أعوام لا أكثر ، وإنما يبلغ مايدل عليه هذا البيت أن مقامة فيها لم يكن أقل من خمسة أعوام .

أن ننظر في هذه الضرورات التي اعتبرها في ذلك الفرض ، ورسم عليها ذلك النسق ، نرى مبلغ ما يمكن أن نصل إليه من ذلك .

أما أن أبا تمام كان في مصر سنة ٢١١ أو ٢١٠ بمدح عبد الله بن طاهر ، فهذا ما لا ريب فيه عندنا . وكذلك القول بأنه اتصل بعياش بن هبة فيها ، فهذا ما لا نحسب أحداً يملك إنكاره أو المجادلة فيه . وأما أن اتصاله بعياش ابن هبة هذا وامتداحه لا يمكن إلا أن يكون قبل سنة ٢٠١ ، وهي السنة التي تولى فيها الشرطة ، واختفى بعدها من التاريخ ، على حد تعبيره ، فسأله فيما نظر . ذلك أن اختفاء عياش من التاريخ لا يعني مطلقاً اختفاءه من الحياة ، حتى ما يجوز لحي أن يتصل به ، كما لا يعني تجرده من كل شيء من الجاه ، حتى ما ينبغي لشاعر أن يقصده . وإذا جازلنا أن نشق بالتاريخ واستقصاءه للدقائق واحاطته بالتفاصيل — وما نرى أن ذلك مما يجوز في أي حال من الأحوال — فما ينبغي أن نحمل اختفاء عياش من التاريخ على أكثر مما يحتمل ، فهو لا يدل على أكثر من ابتعاده عن الحياة الرسمية التي يعنى المؤرخون بحفظها وتسجيلها والتنويه بها ، إذ لم يعد له في مناصب الدولة مكان ملحوظ .

على أن الأستاذ البهيتي يجد نفسه مضطراً (خضوعاً للنسق الذي رسمه ، وإن ظهر أنه متأفك وعرضه للخلل في غير موضع منه) إلى أن يجعل اتصال أبي تمام بعياش بن هبة قبل أن يلي الشرطة في سنة ٢٠١ ، إذ كان ذلك يقضى بأن يترك أبو تمام مصر في سنة ١٩٨ ، كما رأينا منذ قليل ، واذن فولاية عياش للشرطة لا تدخل لها — كما يرى هنا — في صلة أبي تمام به وامتداحه له (١) . فإذا كان الأمر كذلك فأى ضرورة تلزمنا أن نجعل

(١) ومع هذا فإننا نلج في كلام الأستاذ عن هذه المسألة شيئاً من الاضطراب أيضاً ، كما رأيت ذلك فيما سبق . فليتنا يقرر هنا (ص ٦١) أن أبا تمام اتصل بعياش بن هبة قبل سنة ٢٠١ نراه يخالف ذلك الرأي في موضع آخر ، فيقول في (ص ٥٩) : «وأغلب ظني أن أبا تمام اتصل به في ولايته للشرطة لا بعدها . وفي شعره ما يشير أنه كان كذلك أيام اتصال أبي تمام به . يقول : يهونك أن تلقاه صدراً محفل ونحواً لأعداء وقلباً لمركب»

اتصاله به في هذه الفترة المفترضة افتراضاً دون الفترة الثانية ؟ إذا كنا لا نملك القطع بان الرجل مات قبل مقدم ابي تمام مصر سنة ٢١١ أو ٢١٠ ، وكنا مع هذا لا نرتب مدح ابي تمام له على أنه كان يتولى منصباً من مناصب الدولة ، فلم تعد هناك ضرورة تلجئ الباحث إلى ذلك الفرض ، وتحمله على التزام مثل هذا التاريخ . وبذلك تكون هذه الضرورة من الضرورات التي انبنى عليها ذلك المذهب واهية باطلة لا حقيقة لها .

فهذه واحدة . وأما اتصالاته بأبي المغيث موسى بن ابراهيم الراققي ومحمد بن حسان الضبي ، وقد زعم انه اتصل بالأول بعد خروجه من مصر إلى الشام سنة ١٩٨ ، واتصل بالثاني بعد أن ترك الشام إلى الرقة ، فليس في شيء منهما شبهة تلزم الباحث تاريخاً معيناً . وما زعمه من ذلك ليس الا فرضاً مجرداً ، لا ضرورة تحمل عليه أو تلجئ اليه ، فلا يمكن أن يستند اليه في فرض آخر . وعندنا أن اتصال ابي تمام بأبي المغيث الراققي كان بعد خروجه من مصر سنة ٢١٧ إلى الشام ، وربما كانت نشأة هذه الصلة قبل ذلك وهما في مصر ، كما قد تعرض لذلك في موضع آخر من هذا البحث . وأما امتداحه اياه قائماً كان — على كل حال — وهما باشام . وكذلك نرى أن اتصاله بمحمد بن حسان انما كان في أثناء ولايته الطويلة بالجزيرة ، وقد تولى مظالم الجزيرة ووقنسرين والعواصم والنخوص سنة ٢١٥ ، وولاه المعتمد مظالم الرقة سنة ٢٢٤ ، وأقره الوائق عليها .

ومثل هذا اتصال ابي تمام بمالك بن طوق ، وقد افترض الأستاذ الهبتي سنة ٢٠٠ تاريخاً له ، إذ مدحه بقصيدته البائية التي أشار فيها إلى ما كان من فتنة بين بني تغلب وبني أسامة بن بكو ، وقد زعم أن هذه الفتنة انما هي التي أشار ابن الأثير إليها في حوادث سنة ٢٠٠ ، فإذا صح ذلك فما بد أن يكون ذلك هو تاريخ القصيدة ، وتاريخ اتصال ابي تمام بمالك ابن طوق ، ولكن كيف يمكن القطع بان ما أشار اليه أبو تمام في قصيدته هو نفسه ما ذكره ابن الأثير في حوادث تلك السنة ؟ ولم يفت صاحب ذلك

القول أن محس بما فيه من تحكيم لا سند له ، فقال معقبا عليه : « وقد يعترض على هذا ، بأنه ليس لنا أن نقطع بان ابن الأثير قد ذكر كل الفتن التي حدثت في تلك الأيام ، وليس ما يمنع أن تتكرر الفتنة بين جماعتين بينهما في ازمة تقاعد ، فيأتي ابن الأثير فيذكر واحدة لاهيتها ، ويترك الباقي ثم يأتي أبو تمام فيذكر الأخرى لانصالحها بمدوحه ، فيلتبس التاريخ بالشعر بما يثير في الظن انهما عن حادثة واحدة ، وليس ذلك صحيحا ، وهذا — كما نرى — اعتراض واضح قوى ، يحل به منتهج على سديد . ولكنه لا يكاد يفرغ من تقريره ، حتى يذكر النسخة التي وضعه لحياة أبي تمام ، فيغالي حرصه عليه وافتتانه به ، فاذا هو يسرع في رد هذا الاعتراض بقوله : « هذا حتى ولكن ليس فيه ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة ، فهو احتمال لا أذهب إلى القطع به : (١) . وليس في هذا ما يدحض ذلك الاعتراض ولا قيمة للقول بان ليس فيه ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة ، فإلى هذا بنى القول فيه ، وانما يكفي ان يقال انه ليس هنالك ما يقطع بان هذه القصيدة قيلت في هذه الفتنة أو في غيرها ، ليعطل الاستدلال بها ، والاستناد إليها في ادعاء ذلك التاريخ لها .

وإذن فالقول بان اتصال أبي تمام بماتك بن طوق كان في سنة ٢٠٠ قول لا دليل عليه ولا سند له ، وبذلك لا يصالح هو أيضاً أن يكون القطة ارتكاز في رسم ذلك النسق .

ومثل هذا أيضاً ما ذكره عن علي بن مر ، وانراضه ان صلة أبي تمام به نشأت بينهما في اذربيجان ، في ابان ثورته على الدولة ، بعد قتل الأمين . وكان هذا في حساب ذلك النسق بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٠٠ ، كما رأينا فيما نقلناه عنه في هذا الفصل .

(١) أبو تمام انطى من ٥٢ ، ٥٣ .

وفي موضع آخر ذكر صاحب «أبو تمام الطائي» علي بن مر ، وصلة
 أبي تمام به ، هذه العبارات : « وفي سنة ١٩٨ أيضاً يتل الأمين ، وتزلزل
 أرجاء العالم الاسلامي بفنن كانت تلتهمه كالنار ، فيخرج بكل قطار من
 استطاع أن يخرج به .. ومن بين الخارجين بأذربيجان ، علي بن مر ممدوح
 أبي تمام وصديقه ؛ ولكن لم تلبث أذربيجان أن أعيدت إلى حظيرة الخلافة
 ولاشك في أن علي بن مر هذا كان مغضوباً عليه إذ ذاك من الخليفة .
 ويظهر انه رضى عنه بعد ذلك في زمن لا نعرفه . ثم يشير بعد ذلك إلى
 القصيدة التوثية التي مدح أبو تمام بها علي بن مر ، وما جاء بها من اشارات
 إلى رضا الخليفة عنه ، واستخدامه اياه في قمع بعض الفتن ، كما يذكر أن
 سنة أبي تمام به ترجع إلى أيام جفوة السلطان له ، كما قد تدل على ذلك
 هذه الأبيات من تلك القصيدة :

لي حرمة بك ، فاحفظها وجازها يا حاسف العهد والعواد باليمن
 أولى البرية حقاً أن تراعيه عند السرور الذي آتاك في الحزن
 ان الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان بألفهم في المنزل الخشن (١)

هذا ما أورده الأستاذ الهيتي في أمر هذه الصلة ، مما كنا نرجو أن
 نجد فيه تفسيراً لما ذكره في نسق حياة أبي تمام من أن صلته بعلي بن مر كانت
 في ذلك التاريخ ، فإذا به لا يتضمن شيئاً يمكن أن يكون دليلاً أو شبه دليل
 على ذلك . وانما مبلغ ما يمكن أن يقال — إذا صح ان ابا تمام يشير بتلك
 الأبيات إلى فترة الجفوة — انه كان على اتصال به في اثنائها ، وإذا كانت
 هذه الفترة مجهولة الغاية كما بصرح هو بذلك ، فكيف يمكن أن يستند
 اليها في افتراض وقت معين لحدوث هذه الصلة ليجعل من ذلك نقطة من
 النقط التي تحدد النسق العام لحياة أبي تمام .

وهكذا نسقط أيضاً هذه الجزئية من جزئيات ذلك النسق .

بقى بعد ذلك من الشبه التي اعتبرها الأستاذ البهيتي ، ورسم عليها ذلك النسق ، وبنى عليها ذلك المذهب ، ما جاء في ديوان أبي تمام من مدح الحسن بن سهل وزير المأمون . ووجه الشبهة عنده «أن حادثاً حدث في تاريخ الحسن بن سهل يجعلنا نرجح أن مدائح أبي تمام فيه كانت قبل سنة ٢٠٣ فتمى هذه السنة يروى لنا الطبري وابن الأثير أن الحسن قد أصيب بالسوداء إصابة شديدة ، حتى إنه وضع في الحديد وحبس» (١) .

وهذه شبهة غريبة لا تدرى كيف استطاعت أن تتأق له وتعرضه . إذ كيف تحملنا إصابة الحسن بن سهل بالسوداء سنة ٢٠٣ على الذهاب إلى القول بأن مدح أبي تمام إياه إنما كان قبل هذه السنة لا بعدها ؟ ذلك شيء لا يمكن تصوره إلا أن نفترض مع هذه الإصابة التي نزلت بالحسن أنه بقي ممروراً موثقاً في الحديد محبوساً في محبسه ثلاثة وثلاثين عاماً متصلة ، منذ أصيب في بغداد ذلك العام إلى أن مات في سرخس سنة ٢٣٦ . فهل نملك هذا الفرض ليصبح ذلك الزعم ؟

هذا شيء لا سبيل إليه . فما أكثر ما نرى الحسن بن سهل في هذه الفترة بريثاً من تلك الصورة التي ادها المورخون عنه في سنة ٢٠٣ . فهو مرة في مجلس الخليفة المأمون ، يشفع لديه في إبراهيم بن المهدي ، ومرة أخرى يستمع معه إلى غنائه ، إلى غير ذلك من الصور التي تمثلها لنا وقد برىء من تلك الذرية الطارئة ، وإن لم تعد أعصابه تحتمل مكاره الحكم ومشايق الولاية . ولعل من الصور التي لا تغيب عن خيالنا صورته في قم الصليح ، سنة ٢١٠ يشهد زفاف ابنته بوران إلى الخليفة المأمون ، ويشارك في إعداد مظاهر الفرح والبهجة ، ويجلس للشعراء الوافدين عليه ، يستمع إلى مدائحهم ، ويطرب لتهنئتهم ، ويغلق الجوائز لهم . فكيف يستقيم مع هذا أن نجعل سنة ٢٠٣ نهاية لحياته الحرة المتحركة ، حتى ما يملك شاعر أن يقصده بمدحة ، أو يرجو عنده عطاء ، ثم نحض فتجحر على أنفسنا وأسماء ، إذ نأبى إلا أن يكون مدح

(١) ص ٥١ ، وانظر أيضاً : ص ٩٧ .

أبي تمام له قبل هذا التاريخ ، ثم نتخذ من ذلك أساساً لتعيين المراحل المختلفة التي مرت بها حياة ذلك الشاعر ؟

وبعد ، فهذه هي الضرورات التي أقام عليها صاحبه «أبو تمام الطائي» نسقه ، والتي جعلته يعدل عن المعروف المألوف والأصل المقرر في مجيء أبي تمام إلى مصر ، وذهبت به إلى أن يشكاف ألواناً من التكلف في تقسيم شعره فيها إلى طائفتين يفصل بينهما عهد طويل مملوء بالتجارب المختلفة ، وقد كان جديراً بذلك لو صح أن يكون له أثره في التطور الفني لذلك الشعر وأن يكون ذلك الأثر ظاهراً قوياً لا خفاء فيه ، ولا اختلاف عليه ، فقد تهافت هذه الضرورات كلها واحدة إثر الأخرى ، وبقي الأصل المقرر قائماً لا شيء يربينا فيه أو يعدل بنا عنه ، وهو أن أبا تمام أقام في مصر إقامة واحدة متصلة منذ دخلها إلى أن تركها ، على النحو الذي رأيناه .

وبهذا ، وبما رجح لدينا من أن مولد أبي تمام كان في سنة ١٩٢ ، يستقيم القول في هذا البيت من شعره الذي اشرنا إليه قبل ، وهو :

وان الذي أحلاني الشيب للذي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر

بعد أن اضطرب طويلاً بين الفروض والتحولات المختلفة يضرب بعضها بعضاً (١) . كما رأينا صورة من ذلك ، إذ كان لا ريب في أن هذه القصيدة التي جاء فيها هذا البيت هي إحدى قصائده المصرية الصريحة التسمية . وقد صرح هو بذلك فيها ، إذ يقول :

وان نكيرا أن يضيق بمن له عشيرة مثلي أو وسيلته مصر

غير أني أميل ميلاً شديداً إلى القول بأن كلمة «السبع» في ذلك البيت معرفة عن كلمة «التسع» ، وذلك تحريف قريب شائع مفهوم الأسباب ، وبذلك تكون سنة عند قول هذه القصيدة تسعة عشر عاماً ، فيكون تاريخها

(١) انظر : أبو تمام الطائي ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٤ .

على هذا سنة ٢١١ ، وذلك يتفق تماماً مع تاريخ وجوده في مصر ، على القول الذي ذهبنا إليه .

على أن هناك اعتراضاً آخر أحسب أنه — لا بد — موجه إلى ، ومعارض به على . فلنعرض له ، قبل أن نفرغ من هذا الجزء من البحث .

٣

ما بال تلك القصائد الرائعة التي قالها أبو تمام في رثاء محمد بن حميد واحتفظ لها ديوانه (١) ؟ ان كتب التاريخ تجمع على جعل مقتل محمد بن حميد هذا في سنة ٢١٤ ، فاذا بحث الدعوى أن أبا تمام كان في مصر حتى سنة ٢١٧ فكيف يمكن أن يتفق هذا مع ما ثبت من رثائه محمد بن حميد ، الا إذا أمكن القول بأنه إنما رثاه وهو في مصر — وقد قتل محمد بن حميد في أذربيجان — ووجه قصائده فيه ممّا ، وذلك أمر بعيد الاحتمال جداً ؟ الا يدعو هذا إلى القول بأن أبا تمام كان قد ترك مصر قبل ذلك ، وانه في الوقت الذي قتل فيه محمد بن حميد كان في إقليم شديد الاتصال بمثل تلك الأحداث ، كالعراق مثلاً ، كما يذهب إلى ذلك صاحب «أبو تمام الطائي» في صورة جازمة قاطعة ؟ (٢)

وهذا الاعتراض يبدو — كما نرى — قوياً مضحاً ، لولا أن هناك من الأمور الملائمة ما يشير التساؤل :

لقد رثى أبو تمام عمير بن الوليد يقصيدتين لاشك في أنه قالهما وهو في مصر (٣) ، وفي ثاني القصيدتين مدح ابنه محمداً الذي جعلت إليه ولاية مصر بعد أبيه ، وان لم تطل هذه الولاية له أكثر من شهر واحد ، وكما انه لم يداخلك الشك في المكان الذي صدرت عنه هاتان القصيدتان ، وهو مصر كذلك لا يداخلك الشك في الزمان الذي قيلتا فيه ، إذ كان مقتل عمير بن الوليد معروفاً معيناً تعييناً دقيقاً ، وهو — كما يقول الكندي — يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من ربيع الآخر (٤) . وإلى جانب ذلك يبدو أن أبا تمام لم يكن وقت

(١) ص ٥٩ . وانظر أيضاً : ص ٢٠٣ .

(٢) ديوان أبي تمام ، ص ٣١٢ ، ٣٣٥ ، مطبعة حجازي بالقاهرة ، ١٩٤٢ .

(٣) يعني من سنة ٢١٤ ، انظر : الولاة والنقصاء ، ص ١٨ ط ليبسك ، ١٩٢٥ م

ذلك الحادث على نية الرجل عن مصر ، فليس في شعره ما يمكن أن نلمح من خلاله مثل هذه النية . بل لعنا نرى فيه — على نحو ما — ما قد يشير إلى نية استمرار الإقامة ، في نحو قوله :

فلا شغلن بمدح ذا وبندب ذا ابدا لسانى ما ملكت لسانى

في ذلك الوقت الذى كان أبو تمام فيه قارأً بمصر ، مطمئناً إلى مقامه فيها غير مزعج بالرحيل عنها ، كان محمد بن حيد الطائى قد استشهد في المعركة التى شنتها الدولة على بابك الحرمى ، في هشتابا داردشير باذرييجان ، الخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول (١) ، (أى قبل مقتل عمير بن الوليد بثمانية عشر يوماً) .

فنحن إذن بازاء مشكلة تتوقف الاجابة على ذلك السؤال الذى صدر به الاعتراض على حلها والقضاء فيها ، إذ كان من المحال أن يكون الرجل في مصر والعراق في وقت مما .

هذا هو ما يبدو للباحث لأول وهلة حين يواجه ذلك الاعتراض ويأخذ في تحقيقه . فليس الأمر إذن من اليسر والقرب كما يتوهم المفترض .

فهو يمكن القول بان أبا تمام رأى محمد بن حيد وهو في مصر ، أو أنه رأى عمير بن الوليد وهو في العراق ؟ كلا الفرضين بعيد لا دليل عليه ، والفرض الثانى أشد في البعد اخراقاً ، كما قدّمنا

أمكن القول بان مراثيه في محمد بن حيد زائفة لتصح مراثيه في عمير بن الوليد ، أو أن مراثيه في عمير غير صحيحة النسبة لتصح مراثيه في محمد بن حيد ؟ كلا الفرضين كذلك بعيد بعداً شديداً فليس لواحد منهما سند يسنده أو شبه ترجمه .

وأخيراً ، أمكن أن يكون عمير بن الوليد الذى يرثيه أبو تمام بذلك الشعر رجلاً آخر غير عمير بن الوليد المقتول في تلك الموقعة ، سنة ٢١٤ ،

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٠ ط الحسينية ، القاهرة .

أم يكون محمد بن حميد المذكور اسمه في باب المراثي من ديوان أبي تمام
شخصاً آخر غير ذلك الذي يذكر في حرب بابك ، في تلك القصة التي
يحكيها المؤرخون ؟

أما أن عمير بن الوليد انقضى يرثيه أبو تمام رجل آخر غير الذي نعرفه
في مصر ، ففرض لا سند له . وفضلاً عن انا لا نعرف في ما وقع لنا من
نصوص أو أخبار رجلاً آخر بهذا الاسم ، فانا نجد أبا تمام يشير إلى مقتله
على النحو الذي يرويهِ المؤرخون فيه ، حتى إنه يذكر في رثائه له اليوم
الذي يذكر أن قتل فيه ، وهو — كما رأينا فيما نقانا قبل عن الكندي —
يوم الثلاثاء . وذلك إذ يقول :

فيا يوم الثلاثاء اصطبختنا غداة منك هائلة الورود

وهكذا لا يبقى من الفروض التي افترضناها لحل تلك المشكلة إلا أن
يكون محمد بن حميد الذي يرثيه أبو تمام شخصاً آخر غير محمد بن حميد الذي
قتله بابك سنة ٢١٤ ، فإذا عسى أن يكون نصيب هذا الفرض الذي نعرف
مبلغ خطره ، إذ لم يبق لنا من الفروض في هذه المسألة غيره ؟

على أنه ينبغي لنا — ونحن ننظر في هذه المسألة — أن نتجرد من التأثير
بما قرره في ذلك بعض المؤرخين والأدباء كابن الأثير والبيدعي ، حين
ربطوا بين مقتل محمد بن حميد شهيد حرب بابك وبين مرثيته أبي تمام ،
ففسروا هذه بتلك ، واستشهدوا بها ، فلعل الأمر لا يعدو أن يكون وهماً
من الأوهام الكثيرة التي تعرض لها المتقدمون ، ثم اندفع من بعدهم في سبيلهم
متأثرين بهم ، في غير نحر أو تمحيص .

ونحن إذ ندرس المسألة مستقلين تلاحظ أول ما نلاحظ أنه كان هنالك
في ذلك العصر غير واحد ، يسمى كل منهم «محمد بن حميد» . فهناك

(١) ديوان أبي تمام ، ص ٣٢٥ . وأنظر في ذلك أيضاً سائر مرثياته في أبو حميد .

محمد بن حميد الذي يذكره الطبري وابن الأثير في حرب بابك ، من غير
تسمية ، وهناك محمد بن حميد ، أبو نصر ، الذي يرثيه أبو تمام ، ويصح
في بعض مرثياته إياه باسمه وكنيته ، إذ يقول مثلاً :

كفى ، فقتل محمد لي شاهد إن العزيز مع القضاء ذليل
السي أبا نصر ؟ نسيت إذن يدي في حيث ينتصر الفسقى ويذبل

وهناك محمد بن حميد ، أبو نضال ، ممدوح البحري ، وهو يذكره
باسمه في مثل قوله (١) :

وللي سراة بني حميد ، أنهم أمرا كواكب ملجج ابنة ملجج
سادوا وسادهم الأغر محمد بخلال ابلج في المراهز ابلج

وفي شعر أبي تمام نفسه ما يدل على تعدد المسمين بمحمد بن حميد ،
إذ يقول في إحدى قصائد الرثاء هذه :

أضحت عراض محمد ومحمد وأخيها وكأنهن طاول (٢)

وإذن فقد كان هناك في عصر واحد غير واحد يدعى كل منهم
ومحمد بن حميد ، وذلك وحده كاف لاسقاط القطع بأن محمد بن حميد
صاحب أبي تمام هو محمد بن حميد المقتول في حرب بابك ، لا غيره ،
إذا لم يكن ثبت ما يعتمد عليه الادعاء الا توافق الاسم ، فقد أصبح ذلك
التوافق بعد ما رأينا لا يعني شيئاً . فلا بد لذلك الادعاء من دليل آخر . فهل
نجد في شعر أبي تمام الذي قاله في رثاء محمد بن حميد ما يمكن أن يدل على أن
مرثيه هو محمد بن حميد المقتول سنة ٢١٤ ؟

أما أنا فلم أجده شيئاً من هذا أو قريباً منه . وإنما لاحظت أمراً جديراً
بالاعتبار في هذه المسألة :

(١) ديوان البحري ١ : ١٠١ طهتبه وانظر أيضاً : معجم الشعراء المرزباني ، ص ٤٢٧

(٢) الديوان ، ص ٣٢٦

ذلك هو أن أبا تمام الذى استطاع الى حد بعيد أن يطوع عبارته الشعرية
 إما تطويع ، وأن يجعل شعره منسجماً للأسماء الأعجمية ، مثل اليد وأرشق
 وأبرشتويم وسندبايا ، وما إلى ذلك من أسماء المواقع المختلفة التى دارت
 فيها الحرب بين بابك والمسلمين ، دون أن ينبوعها أو يضيق بغيراتها ،
 وكأنما أراد أن يستغل ما كانت هذه الأسماء تثيره في النفوس من مشاعر
 خاصة صادرة عن هذه الحروب ومتصلة بها ، وما كان ينبعث عنها من
 ظلال معنوية كبيرة الدلالة قوة الأثر ، ليحقق لشعره الحيوية الفنية بوضع
 هذه الأسماء في مواضعها من شعره ، أبر تمام هذا الذى نعرف عن شاعريته
 هذا الحس الدقيق الذى يدفعه في ذلك الاتجاه . لم يكن من المتوقع أن يغفل ،
 وهو يرثى شهيداً في موقعة من هذه المواقع ، ذلك اللون من ألوان التعبير
 الشعرى ، وذلك النحو من انحاء التأثير الفني ، فيخلل شعره من بعض هذه
 الأسماء ، بل ويترك نسبة اليوم الذى أصيب فيه محمد بن حميد .

ولكن هذا الذى لا يتوقعه الباحث هو ما نراه هنا في الشعر الذى صاغه
 أبو تمام في رثاء محمد بن حميد ، إذ لا نجد فيه إشارة ما إلى بابك أو أذربيجان
 أو أى اسم من هذه الأسماء التى كانت لها في نفوس المسلمين ظلماً الملازمة
 لها ، ومشاعرها الخاصة بها ، بل لا نجد أيضاً ما يمكن أن يكون إشارة
 إلى شيء من طبيعة هذه المواقع التى حدثت فيها الحرب بين الدولة وبابك
 في حين أنا نجد أبا تمام نفسه في موضع آخر من شعره ، في سياق مدحه
 لأحد الحميديين ، وهو أصرم بن حميد ، يذكر محمد بن حميد شهيد معركة
 بابك ، فيسمى تلك المعركة التى استشهد فيها «يوم بابك» ، وذلك إذ يقول (١)

بنى حميد ، الله فضلكم ابقى لكم اصراً فأسعدكم
 لو كان في «يوم بابك» لكم لم تفقدوا في اللقاء سيدكم

(١) الديوان ، ص ٢٢٤ .

أما في رثاء الشهيد نفسه فتعني هذه الشاعرية عيباً صلباً ، ليس لها أدنى حس بما يضطرب به الجو حولها إما اضطراب ، وما تدوى به نفوس المسلمين عن هذه الأحداث التي قتل فيها ذلك القائد . يمكن أن يكون هذا ؟ ليس في هذه المغارقة ما يثير التساؤل ، وما يجب أن يحملنا على مراجعة أنفسنا فيما تلقيناه قضية مسلمة عن محمد بن حيد هذا صاحب أبي تمام ؟

و الواقع أن جر هذه القصائد ، قصائد أبي تمام في محمد بن حيد ، بعيد كل البعد عن أذربيجان وحرب بابل ، أما إذا أردنا أن نتلمس فيها شيئاً من الإشارة إلى الناحية التي قتل بها محمد بن حيد ، وجدنا مثل هذا البيت :

مصيف اقاض الحزن فيه جدالاً من الدمع حتى خاتمه صار مربعاً (١)

وإذن فقتل محمد بن حيد إنما كان في ناحية تعتبر مصيفاً ، وما نحسب أن أذربيجان كانت من ذلك في شيء ، إنما كان ذلك عند أهل العراق والجزيرة هو إقليم الجبل في الشرق ، وبعض جهات الشام في الغرب . فهذه الإشارة إلى المصيف تبعد بنا - فيما نرى - بعداً كبيراً عن حروب بابل وميدانها ، وتحصننا - فيما نحسب - في هاتين المنطقتين المتاخمتين للعراق والجزيرة .

ولفناً نستطيع أن نجد تفسير هذه الإشارة وتحرير المراد بها ، في كلمة «النباج» التي ترد في غير موضع من هذه المراثي ، كقولها :

بأبي وغير أبي - وذاك قليل - ثاو عليه ثرى النباج مهيل (٢)

والتي يسمي بها المعركة التي قتل فيها ، إذ يطلق عليها «يوم النباج» ، كما يطلق على المعركة التي قتل فيها سميه المستشهد في حروب بابل «يوم بابل» ، كما رأينا منذ قليل ، فيقول :

«يوم النباج» لقد أقيمت بأنجة احشاؤنا أبداً من ذكرها قطع (٣)

(١) الديوان ، ص ٢٢٤

(٢) الديوان ، ص ٢٢٤ .

(٣) الديوان ، ص ٣٢٢

ومهما يختلف إطلاق كلمة «النجاج» على غير موضع في بلاد نجد والجمامة والشام ، كما تذكر كتب البلدان ، فإنها جميعاً مواضع عربية لا صلة بينها وبين أفرييجان ، فليس واحد منها من أفرييجان في شيء .

وإذ سبقت الإشارة إلى أن مقتله كان في أحد المصيفين المعروفين ، فقد تعين أن المقصود بكلمة «النجاج» هنا هو ذلك المكان الذي يذكره البحري - في رواية ياقوت - في قوله :

إذا جزت صحراء والنجاج مغرباً وجازتك بطحاء السواجير يأسعد
فقل لبني الضحاك : مهلاً ، فاني أنا الأفعوان الصل والضبيح الورد (١)

وإذ كانت السواجير تطلق - كما يقول ياقوت ، نقلاً عن السكري - على «نهر مشهور من عمل منيع بالشام» (٢) ، فالنجاج التي يعنها أبو تمام قرية من نهر السواجير هذا ، وبذلك تكون واقعة في إقليم منيع ، بالشام .

وإذن فقد كان مقتل محمد بن حميد ، مرثى أبي تمام ، هناك في إقليم منيع أو قريباً منه ، في تلك الجهات الواقعة إلى غربي الفرات ، والتي كانت مأتزال ميداناً شديد النشاط للمعارك المتصلة بين القبائل العربية النازلة هناك . وأكبر الظن أن مقتل ابن حميد كان في إحدى هذه المعارك . وفي شعر أبي تمام في رثائه شواهد تؤيد ذلك لا تطيل بذكرها ، فليس ذلك من الموضوع الذي نعالجه ، وهو هذه المشككة التي واجهتنا ، ونحن نريد أن نقبين وجه الحق في مقام أبي تمام بمصر ، حين رأيناه يرقى رجلين في وقت معاً ، في صورة تدل على أنه كان حاضراً ، أحدهما في أقصى الغرب ، والآخر في أقصى الشرق ، على ما يذهب إليه مؤرخو ذلك الشاعر .

(١) هذه هي رواية ياقوت في معجم البلدان (٨ : ٢٤٤) ، أما رواية انديوان في طبعته التي بين أيدينا فتصح كلمة «لتغو يرو» بدلاً من «النجاج» .

(٢) انظر معجم البلدان ٥ : ١٥٨ ، ٨ : ٢٤٤ ، مطبعة «المساعدة» ، القاهرة ، ١٩٠٦ .

وإذ قد انتهى بنا البحث إلى تخلص هذه المسألة وتحلية وجه الحق فيها وكشف تلك الظلمات التي كانت مطبقة عليها ، وإزالة ذلك الوهم الكبير السائد بين القدماء والمحدثين ، فلا علينا أن نتجاوز هذه القصائد ونغضى عنها ، فلها موضعها الذي هو أملاكها ، فانما كانت غايتنا من ذلك كله هو دفع ما قد يوجه إلينا من اعتراض بهذه القصائد على مذهبنا إليه في تاريخ إقامة أبي تمام في مصر .

وإذا كنا قد استطعنا بهذا التقصي أن نضع الأمور في نصابها ، وأن ندفع ذلك التعارض التاريخي ، وأن نقضي في هذه المشكلة التي تتصل بترتيب شعر أبي تمام ترتيباً زمنياً ، فلعلنا استطعنا بذلك أيضاً أن نقضي في مشكلة أخرى لعلها أخطر من هذه المشكلة التاريخية ، وهي مشكلة التفاوت الكبير الواضح من الناحية الفنية الخالصة بين شعر أبي تمام في عمير بن الوليد وشعره في محمد بن حميد ، وهو تفاوت ما كنا نملك أن نجد تأويلاً صحيحاً له ، إلا أن نصرب في مزاحات التحولات ، لو صبح انهما صدرا في وقت واحد . أما الآن فقد أصبح ذلك التفاوت طبيعياً مفهوماً لا شذوذ فيه ولا غرابة .

{

وإذ فرغنا من تعيين الفترة التي أمضاها أبو تمام في مصر ، وانتهينا - فيما نقدر - من إزاحة ما كان يفتنى هذه المسألة من غواش وشبه ، فبنا أن نسأل أنفسنا بعد ذلك : كيف انجبه أبو تمام إلى مصر ، وكيف نهيات له الرحلة إليها ؟ بل كيف انجبه خياله نحوها ، فقصد قصدها ؟

والصلة بين الشام ومصر قديمة موغلة في القدم متصلة طوال أعصر التاريخ حتى لقد كانا يعدان - في بعض الاعتبارات - أقلهما واحداً ، ولكنها كانت حتى ذلك العهد الذي نتحدث هنا عنه - صلات في أكثر أمرها تجارية وسياسية أو ما إلى ذلك ، ولعلها لم تبلغ أن تكون صلات أدبية أو ثقافية بالمعنى الخالص إلا بعد ذلك بقرون ، فأما في ذلك العهد فما نحسب أن الصلة بين البلدين كانت تجعل الانجباء إليها من مثل أبي تمام (وقد كان يقيم في شمال

الثام) في مثل تلك السن المبكرة اتجاها طبيعياً لا يشترئناول) ، ولا بيعث
على تلمس بعض الظروف الخاصة وافراضها .

فأن يغادر أبو تمام مقامه في موطنه إلى مصر ، وهو لا يزال في تلك
السن المترددة بين الصبا والشباب ، ولا شيء يدعو به إلى مثل هذه الرحلة
الطويلة الشاقة إلا ضيق ذات يده ، وقد امتحتته الحياة عنة شديدة في التماس
أسباب العيش بين حمص ودهشق ، أو الرغبة الساذجة في التماس المجد
الأدبي قدر ما يتصوره شاب ناشئ . مثله ، فأمر لا يعدو - فيما نحسب -
أن يكون شاذاً غير مألوف . وليس الشاذ هو الرحلة نفسها ، فالرحلة هي
الوسيلة الطبيعية القريبة المعروفة لمثل ذلك ، ولكن الشاذ هو الرحلة إلى مصر
بالذات ، فلعل الجزيرة أو العراق - وقد قصدهما أخيراً - كانتا أقرب
إليه ، وأقل في الرحيل اليهما مشقة ، وأكثر في الاذهان صيتاً وشهرة ،
وأدنى إلى أن يحققا له ما كانت تضطرب به نفسه من التماس الثروة ، أو العيش
الرخي ، أو المجد الأدبي ، فكيف عدل إلى مصر عنهما ؟

أكبر الظن أن بعض الملابس الخاصة اتبعت له ، ولا يست هذه
الرحلة ، فإذا عسى أن تكون هذه الملابس التي عبت له وجهته ، ورسمت
له طريقة ، ومضت به إلى مصر ؟

لقد رأينا من قبل أن ابا تمام كان في مصر سنة ٢١٠ أو ٢١١ ، ونستطيع
في غير كبير تخرج أن نفترض ذلك العام تاريخ قصده مصر ، ومبدأ مقامه
فيها . فإذا صبح ذلك الفرض - وظواهر الأمور تدعو إليه - وأخذنا نرجع
بأنفسنا إلى ذلك التاريخ ، ونضع أنفسنا في ذلك الموطن الذي كان أبو تمام
يعيش فيه إذ ذاك ، قبيل مقدمه مصر ، وجعلنا نتمثل صور الأحداث الحارية
هنالك ، ومشاهد الحياة الطارئة في تلك البيئة ، كان من أول ما يحضرنا
ذلك الحدث الذي كان - فيما يظهر - من الأحداث الكبيرة البايغة الأثر
في اذهان أهل حمص (حيث كان يقيم أبو تمام في ذلك الوقت) ، وكان مثار
كثير من الأحاديث بينهم ، ومناط آمال الكثير منهم ، ذلك هو مرور

عبد الله بن طاهر بها ، في طريقه من الجزيرة إلى مصر ، إذ وجهه الخليفة إليها لإقرار السكينة بها ، ووضع حد للفتن الكثيرة التي كانت ما تزال تضطرب فيها ، وتفسد على الدولة أمرها .

وكان عبد الله بن طاهر شاباً من أروع شبان عصر ذكاء قلب وبعد همة وسراوة نفس ، ومن أكثر المترفين في ذلك الوقت اصطناعاً لمظاهر الترف في صورها المادية والمعنوية . وقد جرى من ذلك على تقاليد الأمراء والسراة . وكان قد قضى إذ ذاك في الجزيرة خمس سنوات أميراً عليها ، محارباً لنصر بن شيبث الناصر على الدولة فيها ، فكان بها — طوال هذه الفترة — مثال الأمير النبيل بكل معاني النبيل : شهامة وشجاء وارعية واطف حسن . وكان السخاء طبعاً في آل طاهر ، وخلقاً بحرصون عليه ويتواصون به . ولعلنا نستطيع أن نتمثل ذلك — إلى جانب الأخبار المنشورة في كتب الأدب والمحاضرات — في هذه الفقرات من كتاب طاهر إلى ابنه عبد الله هذا ، حين ولي الجزيرة :

«ولا تدخلن في مشورتك أهل الدقة واليخل ، ولا تسمعن لهم قولاً فان ضررهم أكثر من منفعتهم . وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت من أمر رعيته من الشح . واعلم انك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك الا قليلاً ، فان رعيته انما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاء أولياتك لك بالافضال عليهم ، وحن العطية لهم . فاجتنب الشح ، واعلم انه أول ما عصي به الانسان ربه ، وان العاصي بمنزلة خزى ، وهو قول الله عز وجل (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من افضل أعمال العباد ، فاعدهد نفسك خلقاً ، وارضى به عملاً ومذهباً ، (١)

(١) أنظر : تاريخ الطبري ١٠ : ٢٦١ .

إليه ، إذ كان معظم شعر هذه الفترة — أن لم يكن كله — قد تلاشى دون
دون أثر يدل عليه إلا تلك البقايا التي أشرنا إليها . ولولا الرواة المصريون
ثم أبو عمر الكندي مؤرخ مصر الأول — وقد كان دقيقاً في تسجيل تاريخ
هذه الفترة وتتبع الآثار الباقية عليها — لما أتبع لنا — في أكبر الظن — أن نعرف
أن أبا تمام مدح ابن طاهر في مصر ، وذكر الموقعة بينه وبين ابن السري ،
بقصيدة من الشعر احتفظ لنا منها بتلك البقايا .

ومهما يكن من شيء فقد انتهت هذه المحاولات الشعرية الأولى التي
التي انقطعت عنا أخبارها — وإن كنا لا نجد بداً من افتراضها — إلى بعض
الغايات المرجوة التي كانت تبرج لأبي تمام وتخيّل في نفسه ، وهي أن
يعقد أسبابه بأحد هؤلاء السراة ، يتخذ ممدوحاً له ، يصوغ فيه شعره ،
ويظهر بأعطيائه ، ويرضى بمثل هذه الصلة ذلك الغرور الذي كان يملأ
نفسه ويملك عليه أمره . وكذلك لا نأبى حتى نرى أبا تمام متصلاً بعياش
ابن طيعه الحضرمي — وقد سبقنا الإشارة إليه — إذ يتقدم إليه بقصيدة حكمة
الصنع ، يملح بها ، لعاش أول قصيدة رضى بها عن نفسه ، وأحسن لديها
أن شيئاً ذا بال في صناعة الشعر قد أتبع له . وقد حكى الصولي عن البحري
أنه قال : « سمعت أبا تمام يقول : أول شعر قلته : — نقي جهاني لست
طوع مؤنبي — ومدحت بها عياش بن طيعه ، فاعطاني خمسة آلاف درهم (١)
وإذا صح هذا القول عن أبي تمام ، وليس لدينا ما يعارضه أو ما يعتبر
اعتراضاً عليه ، فأنما يعني بذلك أول شعر رضى به ، أما ما كان منه قبل ذلك
فكأنما أهدره ولم يعتبره .

أما كيف أتبع لأبي تمام أن يتصل بعياش بن طيعه هذا ، فإن الشعراء
يجدون سبيلهم دائماً إلى السراة ، والسراة من جانبهم لا يمتنعون على الشعر
بل يرحبون به ويشجعون عليه . ولكن الأمر بالقياس إلى شاعر ناشئ
مبتدئ مثل أبي تمام يحتاج إلى شيء من النظر . وليس يعد عندنا

(١) أخبار أبي تمام ، ص ١٢١ ، طبعة المؤلف والترجمة والنشر ، ١٩٢٧ م

أن تكون هذه الصلة قد أتاحت له عن طريق صلته بالمسجد ، وبسبب من دراسته فيه وتردده بين حلقاته ، فقد يبدو أن عياشاً لم يكن غريباً عن المسجد ، بل كان ذا صلة قريبة به ، إذ كان — فيما يظهر — من أحد بيوت العلم والدين ، وأن أباه كان رجلاً من رجال الحديث ، كما نجد الإشارة إلى ذلك في بعض شعر أبي تمام فيه ، بعد أن فسد الأمر بينهما — كما سئرى ذلك بعد سأنخذ به جره ، وجعل يمرض — في سياق الهجاء — بأبيه ، فكان مما قال في ذلك هذا البيت :

«لاحم من لباب الشعر نسي قراءة أبوك كتب أبي قبيل (٢)»

فالرجل لم يكن ، إذن ، بعيداً عن تلك البيئة التي كان أبو تمام في ذلك الوقت وثيق الصلة بها ، وهي بيئة المسجد ، فليس يبعد أن يكون ذلك أحد الأسباب القريبة التي هدته إليه ووصفته به . وإذا كان — إلى جانب هذا — رجلاً من سراة أهل مصر المعروفين ، وقد تولى غير منصب للدولة . ثم كان مع هذا رجلاً يمينياً ، يرجع في عصبية إلى الأصل الذي يمت أبو تمام به فقد كان في ذلك كله ماشق السبيل أمامه إليه ، ومهدداً له ، حتى اتصل ما بينه وبينه .

أما من هو أبو عياش هذا الذي أشار إليه في ذلك الشعر ، فذلك ما لا ندريه على وجه التحقيق ، وإن كان الذي نستظهره أنه لميعة بن عيسى الحضرمي الذي تولى قضاء مصر — على ما يقول الكندي — من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٤ . ولعل «عيسى» الذي ورد في هذا البيت من شعر أبي تمام في مدح عياش :

«كم دعوة لي إذا مكروهة نزلت واستفحل الخطب: يا عياش يا عيسى»

إنما كان يعني به «عيسى» جده ، أباً «لميعة بن عيسى» هذا .

(١) الأديوان ، ص ٢٩٢

(٢) الأديوان ، ص ١٢٨ .

فأما عياش نفسه فقد سبقت الإشارة إلى ما أورده الكندي عنه من أنه كان يتولى الشرطة ، في ولاية سليمان بن غالب بن جبريل ، وإلى مصر في عهد المأمون ، سنة إحدى ومائتين . ثم سكنت عنه فلم يعد إلى ذكره بعد ذلك . على أن الشيخ يوسف البديعي يذكر في سياق شرحه لبعض شعر أبي تمام أن عياش بن طيبة الحضرمي كان على خراج مصر وقت قدوم أبي تمام إلى مصر (١) . ومهما يكن من أمر ، وسواء كان حين امتداح أبي تمام إياه على بعض المناصب أم لا ، فقد كان واحداً من كبار أهل مصر ومن سراتها المرموقين . وقد رأينا — فيما افترضناه واستظهرناه — كيف كانت سبيل أبي تمام إليه . وكيف كان مبدأ صلته به .

ولم تخض هذه الصلة هيئة لينة طاردة ، وإنما حانت صنوفاً من الخن وألواناً من التقلبات ، ولكنها كانت بذلك كله — فيما نرى — من خير ما يتيح لشاعرية أبي تمام ، إذ عرضت عليه ألواناً من التجارب النفسية أنضجت حسه وأمدت مرهبته الشعرية بما أرفقها ووسع من آفاقها ، وأتاح لها أن تظهر مكنونها وتبرز بخصائصها وتجدد ميادين نشاطها . وبذلك نحسب أن هذه الصلة بوجهها المختلفة كانت بعيدة الأثر في حياة أبي تمام الفنية ، جذيرة بذلك أن يقف الباحث عندها وبطول تأمله لها .

وقد انتهت هذه الصلة التي بدأت صلة حب وإعجاب ، بعد الخن والصروف التي تعرضت لها ، إلى القطيعة . وبذلك مر شعر أبي تمام في عياش ابن طيبة بأدوار ثلاثة ، على ما يمثلها لنا ديوانه ، وهي المدح ثم العتاب ثم المجاء . ويجلدر بنا الآن أن نعرض هذه الأدوار الثلاثة ، وندين — قدر ما يتاح لنا — ما تشف عنه من حالات أبي تمام النفسية وخصائصه الفنية في كل منها .

٧

نحتفظ لنا ديوان أبي تمام من مدائحه في عياش بن طيبة بقصيدتين ، أكبر الظن عندنا أنهما ليسا كل ما وجهه إليه من ذلك التقبيل ، فأما ينبغي

(١) حبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، ص ١٨١ ، ط مصر ، ١٩٣٤ .

ان تكون مدائح له أكثر عدداً ، ولا سيما إذا لاحظنا ماوجه اليه في قصائده التي صاغها عتاباً له مما يشير إلى انقطاعه اليه ، واكثاره من مدحه ، مما لا يكاد يتفق مع القول بأنه لم يمدحه بأكثر من هاتين القصيدتين . ولكننا — على كل حال — نستطيع أن نمثل فيهما هذا الوجه من أوجه علاقته بعياض ، وهذا الدور من أدوار نشاطه الفني ، تمثيلاً كافياً .

أما أولى القصيدتين فهي التي سبقت الإشارة إليها في حكاية البحري عن أبي تمام ، وهي :

تقى جماعتي لست طوع موثبي وأيس حبيبي ان عدلت بمصحب (١)
وأما الأخرى فتصيدة سينة مطلعها :

أحبا حشاشة قلب كان محالوما ورم بالصبر عقلا كان مألوماً (٢)

والمدح يكون بآ من أرباب الفن المعتبرة ، وصورة من صور الجديرة به ، حين يكون صادق التلميح ، صحيح التعبير عما يحبه الشاعر ويضميره صادراً عن تأثر نفسي بالمدح واعجاب به واستجابة طبيعية لذلك التأثير فيكون المدح من الشاعر مصدر إلزام له ، ويصبح بذلك موضوعاً من موضوعات شاعريته . أما فيما عدا ذلك فليس — في حقيقة الأمر — الا صناعة شعرية محضة ، ووسيلة غير كريمة من وسائل التماس العيش وطالب المكسبة . فذلك هو — فيما نحسب — الفرق بين المدح الذي يتسم بسمة الفن ويستحق اسمه ويدخل في نطاقه ، والمدح الذي لا يعدو أن يكون صناعة مفتعلة ملفقة ، وكلاماً مزوراً متكلفاً ، في الأصل الذي يصدر هذا وذاك عنه .

وإذ كان بينهما هذا الفرق في مصدرهما وأصل وضعهما ، فلا بد أن يكون بينهما — تبعاً لذلك — مثل ذلك الفرق في الصورة الشعرية لكل منهما .

(١) ديوان أبي تمام ، ص ٢٠ — ٢٢ .

(٢) ديوان أبي تمام ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

فالمديح الذى هو صورة من صور الفن وتعبير من تعبيراته ينبغي أن يصور الشخص الممدوح كما تأثرت به نفس المادح ، وكما انطبع في خيال الشاعر ، وعلى هذا وجب أن تكون شخصية الممدوح ظاهرة فيه ، متميزة بخصائصها وملاعها وقسماتها التى تنفرد بها ، كما تظهر فيه - إلى جانب ذلك - شخصية الشاعر وطابعه في شعره من حيث انفعال بهذه الصورة ، وبذلك تكون قصيدة المديح صورة للممدوح حية نابضة ، محيطة له ، معبرة عنه ، كأنها لوحة فنية ، كما تعبر عن شخصية المادح وذاتيته وتكون قصائد المديح بذلك أيضاً مجموعة من الصور تختلف كل واحدة عن الأخرى فيما تمثله وتعبّر عنه ، بقدر اختلاف الأصل ، واختلاف الحالة الانفعالية التى صحبت القصيدة .

وأما المديح الذى هو صناعة شعرية فلا شيء من ذلك فيه ، إذ كان المادح لا يصدر عن نفسه ولا عن انفعال خاص انفعله لقاء ممدوحه ، وإنما هو ينظم أبياتاً يتملقه بها ، ويحاول أن يصوره فيها الصورة التى ترضى غروره ، فهو ينتمسها في صفات المدح العامة المختلفة ، يتناولها ويأخذ في تنسيقها وتلفيقها وصياغتها كما يصاغ الشعر ، ولكنها تجيء بالرغم من كل ما يبذل فيه وأسبغه عليها شيئاً لا حياة فيه ، ولا روح تفيض في أجزائه ، ولا تعبير يصدر عنه . وقد تروّع أحياناً ، ولكنها هي روعة الصناعة الباردة ، والصياغة المفتنة ، والحدق في التأليف والتصنيف والتلفيق والتنسيق . ومن الطبعي - إذ كانت كذلك - ألا نجد فيها صورة الممدوح خاصة ، وإنما نجد فيها - إذا وجدنا - صورة عامة ليست هي أجدر بالممدوح منه بغيره . وإنما تختلف المداخل المصنوعة هذه الصناعة باختلاف القدرة على سبك التلفيق والاجادة في وجوه التنسيق ، والبراعة في الصياغة الشعرية .

ذلك هو - فيما ترى - الفرق بين نوعي المديح . وتلك هي الوجوه التى يبدو فيها هذا الفرق . ونحن نستطيع أن نقين ما قررنا من ذلك في دواوين الشعر التى بين أيدينا ، كما نستطيع أن نتخذ معياراً نزن به ونقدر على أساسه ما يمرض لنا من شعر المديح الذى درج الكثير من دارسي الأدب

على أن يطرحوه جملة واحدة . فأى منزلة من هاتين المنزلتين نستطيع أن نرَها ذلك الشعر الذي بين أيدينا من مدح أبي تمام لعياش بن لمعة ؟ أكان أبو تمام يصدر في ذلك الشعر عن انفعاله بالممدوح وتأثره بشخصيته واعجابه بصناعاته البارزة ، فكان شعره فيه صدق لذلك الانفعال ، واستجابة لذلك الاعجاب ؟ أكانت صلة أبي تمام بعياش صلة شعرية فنية على ما هو الأصل في الفن ؟ أيستطيع ذلك الشعر أن يعرفنا بعياش بن لمعة ، ويؤدى إلينا صورة منه حية نابضة معبرة عنه ، ممثلة لخصائص شخصيته ، كما تلقينا نفس أبي تمام ؟

عياش بن لمعة ، كما يقدمه إلينا أبو تمام في قصيدتيه اللتين اشترنا إليهما ، رجل عالى الهمة ، شديد البأس ، كريم فياض الندى ، رفيع المكانة بين قومه من حضرموت ويعرب . ثم هو — إلى جانب هذه الصفات — نافذ البصيرة إذا رأى شيئاً ، واضح العبارة إذا عبر عنه. هذه هي صصرة الرجل قدر ما ما استطاع أبو تمام أن يصوره ويقدمه إلينا في شعره الذى مدحه به ، أو في هذه البقية الباقية من ذلك الشعر . ثم لا شيء وراء ذلك الا طائفة من الصور البيانية للتعبير عن تلك الصفات التى ذكرناها لتلك الصورة . فهى — كما نرى — منبهة شديدة الانبهام ، لا يكاد الناظر إليها يستطيع أن يتبين فيها شيئاً من الملامح الخاصة أو القسمات المميزة ، على كثرة ما فيها من صناعة التشبيه والاستعارة وما إليهما ، مما يبدو أن أبا تمام انفق فيه جهداً غير قليل . ولكن هذه الصناعة لا يمكن أن نخدعنا عن حقيقة تلك الصورة الأولية التى هى أدنى إلى الشروع ، وأشبه بأن تكون صورة مفتعلة مصنوعة ، لفقت صفاتها من هنا وهنا ، ثم اسبغت عليها هذه المجموعة المتكاثفة من التشبيهات والاستعارات

ذلك هو ما يبدو — بادىء الرأى — فى تفسير ذلك الانبهام فى الصورة وذلك الشروع فى مدلولها . على أن هنالك اعتباراً آخر يبنى الا تغفله ونحن نبحث هذه الظاهرة وننتبين أصولها ، لنقدر شعر أبي تمام فى ذلك اللون وفى تلك المرحلة . ذلك انه كان فى ذلك الوقت شاباً ناشئاً ، صغير السن قليل التجربة

حديث العهد بالتأمرس بالرجال . والصغار لا يدركون - بطبيعة الحال -
من الرجال الا صورهم العامة التي تأخذهم ، والخطوط الكبرى البارزة
من شئناهم ، أما الدقائق والتفصيلات فقل أن يملكوا القدرة على ملاحظتها .
ومن طبيعة هذه الصور العامة أنها تصدق على الكثيرين ، فهي بذلك أدنى
إلى الشروع في أفراد الجنس منها إلى الاختصاص بواحد معين . فإذا نحن
أخذنا هذا الاعتبار وجعلناه في موضع تقديرنا ، وجدنا الأمر هنا في مثل
هاتين القصيدتين ليس أمر تكاف وتلفيق وتقليد نحسب ، ولكنه مع ذلك
أمر السن وحكمه وطبيعته .

وهذا عندنا اعتبار صحيح ، وشعر أبي تمام في هذه المرحلة متأثر به ،
خاضع له ، إلى حد بعيد .

ولكن أين شخصية أبي تمام المميّزة له في هذا الشعر ؟ ولنا نقصد
شخصيته في الصناعة الشعرية والأسلوب الفني ، فليس ذلك مما يعنينا هنا .
ولكننا نعي بذلك الشخصية التي تظهر أكثر ما تظهر في عاطفة الشاعر
نحو الموضوع الذي يعالجه بالشعر . ولاريب أن هذه العاطفة تكون أشد
رهافة وأكثر طواعية وأدنى إلى الانفعال والتأثر حين ينشئ الشاعر شعره ،
فأين هي هذه العاطفة التي تتميز بها شخصية أبي تمام في حال انشائه لهاتين
القصيدتين ؟ نستطيع أن نرى فيهما ميوله وأهواءه وحركات نفسه ، فترى
فيهما صورة نفسية منه ؟

إذا حين نقرأ القصيدة الأولى لناتمس فيها هذه الناحية لانكاد نظفر
بشيء ، فإن الصناعة المتكلفة ، والصياغة التقليدية ، تكاد تستغرقها ، حتى
ما يبدو شيء عداها ، الا شيئاً ضئيلاً واهياً خافتاً ينم عن بعض العاطفة ،
ولكنها مع ذلك شيء بعيد عما نحن فيه . أنها عاطفة أبي تمام فيما يتصل بأماله
في المدوح ومطامعه التي جعلت تخلق فوقه وتحوم حوله ، لا فيما يتعلق
بالممدوح نفسه ، كما قد يظهر ذلك في مثل هذا البيت :

تركت حطاماً منكب الدهر اذ نوى زحامي لما أن جعلتك منكبي

وما اليه مما تبدو فيه عاطفته هذه ضعيفة خافتة ، لا تكاد تبلغ نفس القارىء .

فأما القصيدة الأخرى السنية فإنها تختلف من هذه الناحية عن القصيدة البائية اختلافاً غير قليل ، فالعاطفة فيها ظاهرة قوية ، تبلغ نفس القارىء في غير معاناة ، كما يستطيع القارىء أن يدين من خلالها شخصية ابى تمام واضحة جلية . ولكنها هي أيضاً لا تتصل بعياش ولا بصورته على الوجه الذى يمكن أن تفعل به نفس الشاعر ، إذ هي — فى حقيقة الأمر — عاطفته هو وأحاديث نفسه خالصة من الالتباس بالممدوح ، إذ يذكر بالده التى فارقها ، وقد جعل يحس الأسى لفراقها ، كما يذكر مسارح هواه فيها ، ومعانى لموه بين أرجائها . وقد أخذ نفسه بالمثل عنها ، وجعل يرم بالنصير ما تصدع من عقله لابتعاده عنها . ثم لا يكاد يملك التحدى فى هذا النصير . وذلك إذ يقول فى هذه الأبيات الجميلة الرائعة التى تروع قبل كل شيء بصدق تعبيرها عن الاحاميس التى كانت نفس الشاعر تضطرب بها ، إذ تودى إلينا صورة حية نابضة منها ، تستطيع بحيويتها هذه أن تنفذ إلى أعماق شاعرنا ، وأن تشاركنا مع صاحبها . وقد جعل أبو تمام هذه الأبيات فاتحة لقصيدته ، ومقدمة لمدحته :

أحيا حشاسة قلب كان مغلوماً	ورم بالصبر عقلا كان مألوماً
مرى رداء الهوى فى حين جلده	وأها له منه مسروا وملبوما
لو تشهدنى أقاصى الدمع منهماً	والليل مرتنج الابواب مطموماً
استنبت القلب من لوعاته شجراً	من الظوم فأجته الوسوايا
أهل الفردائس لم أقصد لذكركم	الا مقى ورعى الله الفردايا
إذ لا تعطل منها منظراً أنفاً	وملعباً بمهسى اللذات مانوماً

فها هي ذى عاطفة قوية محتمة تبرز بها شخصية ابى تمام فى هذه الأبيات بروزاً واضحاً لاخفاء فيه ، وما هو ذا شاعرنا قد استطاع أن يطوع الشعر للتعبير عن أحاسيسه ، وأن يوفق بين ذلك وبين الديباجة العربية التى يبدو أنه كان — منذ أول أمره — حريصاً عليها ، وأن اهلر شاعره فى سبيلها

ولكن أين في هذه القصيدة تأثر أبي تمام بمدوحه ، وانفعاله بشخصيته ؟
واين هي العاطفة التي يمكن أن يقال أنها صادرة عن لك التأثر ؟ أم يمكن أن
نقول أيضاً ، في هذه المسألة ، كما قلنا من قبل فيما يتصل بقدرة أبي تمام
على تصوير المدوح في صورة تبرز شخصيته ، ان الأمر متصل هنا كذلك
بطبيعته من حيث صغر سنه وقلة تجربته وحداثة تمرسه بالحياة والناس ،
فهو المسرولة هنا أيضاً عن مثل ذلك القصور ، إذ كان التأثر بالرجل شرطاً
لابد منه لنشوء تلك العاطفة ، وإذا كان ذلك التأثر انما يجيء في المكان الثاني
من تقديره له ، والتقدير أمر لا يتاح للصغار ، إذ كان محتاجاً ، أول شيء ،
إلى التجربة والخبرة ، واين هم منهما . ومن أجل ذلك جاء شعر أبي تمام
في عياش بن ربيعة شعراً مصنوعاً ملفقاً مقلداً ، لا ينبع من النفس . أم يمكن
أن نذهب هذا المذهب في تأويل عدم وضوح شخصيته في ذلك الشعر على
الوجه الذي قدمنا بيانه ؟ .

قد يكون ذلك قولاً مقبولاً إلى حد ما في تأويل ذلك الطابع التقليدي
الذي نشهده غالباً على ذلك الشعر ، ولا سيما في أبيات المديح الخالص .

ولكن مهما يكن من أمر هذا الاعتبار فانه لا ينبغي أن تغفل في هذا
المقام اعتباراً آخر ، لعله من أول ما يجب ملاحظته وتقديره في هذا
الصدد ، ذلك هو منزلة العنصر التقليدي في الفنون جميعاً ، فهو عنصر أساسي
لا بد منه ولا غناء عنه ، على اختلاف في المنزلة التي ينزلها بين هذا الرجل
وذاك من رجال الفن ، ولكنه على كل حال عنصر له مكانه في أصول الفن
وله قدره وخطره . والأمر هنا ينبغي أن يكون أظهر أثراً ، فني شعر شاعر
ناشئ ، كأي تمام في هذه الفترة ، ما يزال بصدر — أكثر ما يصدر —
فيما يتاح له من إنتاج فني ، عن تلك المثل القنبية المشتلة في شعر الشعراء
المقدمين ، وقد عكف عليها واستغرق فيها يتأملها ويطيل درسها ويتخذها
إماماً له في صناعته ، ويجعلها نصب عينيه في كل ما يعالج ، فان ذلك العنصر
التقليدي لابد أن يأخذ المكان الأول عنده ، وخاصة في مثل صناعة المديح

التي يجد نفسه مضطراً لمعاتاتها ، ويرى أنها سبيله إلى المجد الأدنى الذي يأنسه
إذا استطاع أن يظفر برضا النقاد الذين اتخذوا من الشعر القديم معاييرهم .

ذلك هو الوضع الذي ينبغي — فيما نرى — أن نضع فيه شعر أبي تمام
في مدح عياش بن لمعة . فإذا كان هذا الشعر لا يرضينا من وجهة النظر
الفنية التي قدمناها ، فإنما كان ذلك شيئاً طبيعياً بالقياس إلى شاعر ناشئ
مثله ، يقتحم هذا الفن الذي يعتبر — في حقيقة الأمر — من أدق الفنون
الشعرية وأشقها ، وأكثرها حاجة إلى الشاعرية القوية الناضجة ، تملها
معرفة واسعة ، وخبرة مستقصية ، وبصيرة بحقائق الرجال نافذة .

٨

لم تلبث علاقة أبي تمام بعياش بن لمعة أن تراخت وفترت . فلم يعد
عياش يرى في أبي تمام ما كان يراه فيه من قبل ، حين كان يقدره ويجزل
له العطاء ، كما فعل في أول قصيدة توجه إليه بها ، فأعطاه فيها — كما سبق
القول — خمسة آلاف درهم . ولم يعد يهش له ، ويقبل عليه ، ويتحفى به ،
كما كان شأنه معه أول أمره . فما عدا مما بدا ؟ ماذا عسى أن يكون هنالك
مما جعل عياشاً يصرف عن أبي تمام وجهه ، ويصد عنه بجانبيه ؟ أمكن أن يقال
أن مدح أبي تمام له لم يقع منه بعد الموقع الذي كان يرضاه ، لأنه — كما رأينا —
شعر متكافئ مصنوع ، فكان ذلك سبباً في انصرافه عنه ، وتأبيه عن تقديره
ومجازاته ؟ كلا ! ذلك فرض لا نرى أنه قريب سائغ ، لا لأن شعر أبي تمام
في قصيدته الثانية لم يكن دون شعره في قصيدته الأولى التي ظفرت بأعجابه
وتقديره ، فحسب ؛ ولكن لأن ذلك الفرض يبعده عندنا أيضاً ما درء الأوف
معروف من طبائع الناس الغالية عليهم والمصرفة لهم ، وخاصة سرانهم وأهل
الزلف فيهم ، من استئناسهم إلى من يتناقضهم ، وعجزهم عن الاعتصام
من نفاقه ، أو تبين زيفه وتكلفه . فهذه ناحية ضعف قل من يرى منها
أو تغلب عليها ، ومن أجل ذلك قل إن نرى تملوحاً من هذه الطبقة لم يندفع
فيما يقدم إليه من مدح ، فيراه متكلفاً مفتعلاً لا حقيقة يؤمن بها المادح ويصدر

فيها عن نفسه ، ويعبر في ذلك الشعر عنها . انه قدر مشترك من الغرور
والإيمان بالذات في الناس جميعاً ، وكلما ارتفعت بالمرء طبقة ، وارتفت
حياته ، عظم من الغرور نصيبه ، وضوئت قدرته على الحكم وتميز الحقائق
من هذه الناحية .

ولا نريد أن نقف هنا ما ليس لنا به علم ، فقلبه كان هنالك بين الرجلين
من أسباب الخفوة ما لم يبلغنا شيء منه . وقد حكى ابن عبد ربه في الفصل
الذي عقده على (من مدح أميراً فخبه) أن حبيبا الطائي مدح عياش بن طيبة
وقدم عليه مصر ، واستسلمه مائتي مثقال ، فشاور فيها زوجته ، فقالت له
هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً ، فاعتل عنه ، واعتذر اليه ، ولم يقض
حاجته . فقال فيه ... (١) وهذا خبر لا نريد أن نقف عنده ، إذ كان — فيما
يبدو — من تلك الأخبار التي توضع للاستطراف . ولنا نرى فيه ، ولا في
طبيعة هذا البحث الذي نعالجه ، ما يجعلنا نبيع لأنفسنا أن نصبر عنه أو ننتد
اليه .

إن الأصل في مثل هذا البحث أن نجعل مصدرنا الأول هو شعر أبي تمام
نفسه ، فإذا يمكن أن نصدر به عن هذا الشعر في هذه المسألة ؟ ألا يمكن
أن نرى فيه ما لعله يكون دليلاً على ما كان هنالك ، مما جعل يدب بين أبي
تمام وعياش بن طيبة ، ويعمل في تغيير نفس عياش على صاحبه ؟

بلى ، في شعر أبي تمام اشارات صريحة إلى شيء من هذا ، إذ يشير
إلى أنه كان بين أصحاب عياش وأهل عجله من جعلوا يطلقون السهم
في أبي تمام : وشاية به عنده ، وتهويناً من أمره لديه ، وإبصاراً لصدره عليه .
وذلك إذ يقول في إحدى قصائده التي جعلها في معاتبة عياش ، يشير إلى هؤلاء
ويصف نظرهم اليه :

(١) السند التريدي ١ : ٢٣٠ ، طبعة التأليف والترجمة والنشر .

لظن عندك أقواماً وأحسبهم لم يأكلوا في ما أعدوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضي وانتظار غد والكظم حتم على الدهر - مفترض
لما فككت رقاب الشمر عن فكري ولا رقابهم إلا وهم حيض
أصبحت يرى نباهاتي بخامله من كله لبالي كلها غرض (١)

فقد كان أبو تمام إذن يرتاب في هؤلاء «الأقوام» الذين يجالسون عياشاً
ويتهكم بهم بأنهم هم الذين أوغروا صدره عليه ، وصرفوا وجهه عنه ، بما كانوا
يسطرون من ألسنتهم فيه عنده . وذلك فيما نحسب قريب ، فليس عجيباً
أن يشير أبو تمام ، وقد استطاع أن يبلغ من عياش ذلك المبالغ ، وإن يظفر
منه في أول مدحة يتقدم بها إليه ، بخمسة آلاف درهم . وهو مع ذلك رجل
طاري ، وشاعر ناشيء ، ليس عجيباً أن يشير بذلك الحسد والحفيظة ،
ويملأ قلوب أصحاب عياش وجلدائه اضطغاناً عليه وكراهية لمكانه من صاحبهم
فلا يجادلون إلا أن يمدحوا بحالهم عند عياش بالوقوف فيه والنيل منه ، ملتصين
بذلك أن يصرفوا صاحبهم عنه ، ثم لا يزالون به حتى يبلغوا ما أرادوا ،
فيفسد ما بين الرجلين .

فهذه واحدة لا نرى في أنفسنا حرجاً من أن نعتدها من أول ما أحدث
تلك الجفوة بين أبي تمام ومدححه عياش . بل هي - فيما نحسب - الأصل
الذي جدت منه وتكاثر عنه وتنبى عليه أسباب الفساد الأخرى ،
حتى انتهت إلى غايتها ، وهي القطيعة . ولعلنا لا نبعد كثيراً إذا نحن اعتبرنا
في ذلك ما نعرفه على وجه ما من خلق أبي تمام في هذه السن الغضة ، من اعتداده
بنفسه ، وبمبالغته في المبالاة بقدره ، والتنويه بما يستطيع أن يبلغ بشعره ،
مما هو أدنى إلى الغرور الصبياني ، وأشبه أن يجعله بغيضاً ثقيل الظل ، إلى حد ما .
وحسبنا لتبيين ذلك اللون من خلق ذلك الفتى ، أن نقرأ له هذا البيت الذي

(١) ديوان أبو تمام ، ص ٢٤٤ .

يختم به قصيدته في عياش ، ويعقب به على ما يذكر من آلائه عليه ورعايته له :
وهاك ثياب المدح ، فاجرر ذيلها : عليك ، وهذا مركب الحمد فاركب

أو قوله في موضع آخر ، وهو يعاتبه ويريد أن يرضاه :

جش لي ببجر واحد أغرقك في مدح أجيش لها بسبعة أبحر
كم من كثير البذل قد جازيته شكراً بأطيب من نداء وأكثر
وأعلم بأنى اليوم غرس محامد تزكو فتجنبا غدا في العسكر (١)

فتلك — كما نشعر في ذلك الشعر — لهجة بغیضة ثقيلة ، وخاصة حين تكون صادرة عن شاعر ناشئ مبتدئ . وهي تكشف لنا عن مبلغ الغرور الفج الذي يضمره هذا الشاب وتمتلاء به نفسه ، كما نستطيع أن نرى منها أن مسلكه من ممدوحه — وغيره — كان تعبيراً غير متجمل عن هذا الغرور الفج الغفل الثقيل ، في صور قد تكون مثيرة . وهو بذلك قد مكن لقلوب الحاقدة المضطغنة ، والألسنة الحاقدة المنبسطة ، للنيل منه ، وبلوغ مأربهم عند عياش فيه ، فلم يابث أن رآه معرضاً عنه بوجهه ، ثم صارفاً العطاء دونه .

وحين نرى في الابيات الضادية التي أوردناها منذ قليل كيف كان موقفه من جلساء عياش ، وكيف كان حديثه عنهم ومهاجمته إياهم ، في عبارات نابية أقرب إلى القحة ، نستطيع أن نمثل إلى أى حد كانت طبيعة أبي تمام التي وصفنا مسووله عن ذلك الفساد الذي أصاب ما بينه وبين عياش

وهكذا انتهت في صلته به المرحلة الأولى . وهي المرحلة التي يمثلها الديوان بالمديح ، وبدأت المرحلة الثانية التي ندير عليها الحديث في هذا الفصل ، وهي المرحلة التي يمثلها الديوان بقصائد العتاب .

وقد احتفظ لنا الديوان من شعر هذه المرحلة بقصائد أربع ، لا نلري إلى أى حد تمثل هذا الشعر فيها ، وما هي ذى ، كما وردت في الديوان .

(١) الديوان ، ص ٣٤١ .

قصيدة رائية بدأها بالحديث عن نفسه ، مطلعها :

صدفت لها قلبي المستهتر فبقيت نهب صباية وتفكر (١)

وقطعة صغيرة من ستة أبيات ، بدأها بقوله :

ليس يدري إلا اللطيف الخبير أى شيء تطوى عليه الصدور (٢)

وقصيدة صغيرة ضادية ، أوردنا بعض أبياتها منذ قليل ، ومطلعها :

ذل الحوَال شجى في الحلقى معترض من دونه شرق ، من نغته جرض (٣)

فأما القصيدة الرابعة فقد جاءت في الديوان في باب الهجاء منه ، وهي إلى معاني العتاب أقرب ، فاعتبرناها بذلك الاعتبار ، وضمنناها إلى اختوائها وهي :

قلت أمرى في بدء وفى عقب ورضت حالى في جور ومقتصد (٤)

وهناك قصيدة أخرى أوردناها الديوان في باب العتاب ، حللناها مما قيل في عياش بن طيعة ، وهي القصيدة التي تبدأ هكذا :

يضحك من أسف الشباب المدبر فيكبن من ضحكات شيب مفر

ولكننا أغفلناها إذ ليست في عياش قطعاً ، وإن ذكر ذلك في ترجمتها ولكنها - كما يؤخذ من القصيدة نفسها - في رجل اسمه جعفر ، وكنيته أبو الفضل . أما اسمه فيدل عليه من القصيدة هذا البيت :

يعجب من أن ضحكت بمهجنى وكذلك أعجب من سماحة جعفر

(١) الديوان ، ص ٣٤٠ .

(٢) الديوان ، ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ، ص ٣٤٤ .

(٤) الديوان ، ص ٢٧٥ .

(٥) الديوان ، ص ٣٤٢ .

وأما كنيته فقد جاءت الإشارة إليها أيضاً ، في هذا البيت من القصيدة :

أني انتجمتك يا أبا الفضل الذي بالجود قرب موردى من مصدرى

ولذا كنا لم نتبين — كما قررنا من قبل — في الشعر الذي قاله أبو تمام في مدح عياش بن ربيعة شيئاً من سمات الفن الشعري أو المدح الفني الذي ينبعث عن نفس الشاعر اعجاباً بالمدح واكباراً له وتقديراً لمزاياه ومآثره ، والذي يتجه إلى تصوير شخصيته تصويراً واضحاً معبراً ، فإن الأمر على خلاف هذا فيما بقي لدينا من الشعر الذي قاله في معانيته على انصرافه عنه ، واغفاله أمره ، إذ نستطيع في يسر أن نتبين فيه كثيراً من الخصائص الفنية ، كصدق اللمحة ، وانبعائه انبعائاً طبيعياً من أعماق النفس ، والملازمة بين المعنى والعبارة ، والبساطة في التعبير دون تكلف أو تصنع — كما نتبين ذلك أيضاً في القصائد العدة التي هجاه بها — وهذا الخلاف بين هذين النوعين من شعر أبي تمام في هذه الفترة يرجع — بين ما يرجع إليه — إلى ما أشرنا إليه آنفاً من دقة فن المديح ووعورة ملكه ، وحاجته أكثر من غيره إلى شاعرية ناضجة . كما يرجع مع هذا إلى أن في المدح قدراً من الموضوعية في حين أن العتاب — وقريب منه في ذلك الهجاء — ذاتية خالصة أو كالحالصة . والشاعر إنما يعبر فيه عن نفسه وحدها .

لقد كبر على أبي تمام أن يقف عياش منه هذا الموقف ، وأن يصد آماله فيه ذلك الصد ، فلم يلبث أن أحس بالوخز ينال كبريائه ، ويحاول أن يطاطب من غروره ، فانتفضت نفسه ، وثارت كبرياؤه الجويحة به ، فانطلقت شاعريته تعبر عن احساس الوجيع الذي أصابه في أعز شيء لديه ، وهو كبرياؤه . وبذلك اتخذت ثورته النفسية هذه الصورة الفنية التي نراها في ذلك الشعر ، وقد بدأت هادئة مطلقة مرفقة ، ثم أخذت تشتد قليلاً قليلاً ، وتعنف شيئاً فشيئاً ، بقدر ما كانت مشاعره تتعقد في نفسه ، فيشتد احساسه بالوجيع ، وترتفع صيحة كبريائه به ، إلى أن بلغت غاية الشدة

وانتهت إلى حالة من العتب لا تكاد تقف عند حده، ولا تكاد تبقى على شيء ، كما سرى ذلك عندما تعرض لهجائه عياشاً .

وليس بنا في هذه الدراسة أن نحلل قصائده الأربع في معانيه عياشاً تحليلًا مفصلاً ، ولا أن نطيل النظر في خصائصها الفنية التي اهتمنا بالإشارة إليها ، ولكننا نكتفي من ذلك بشعر صورة من حياته النفسية في هذه المرحلة كما تتمثل في شعره . وهذه الصورة هي التي ينبغي أن تكون أساساً لكل تحليل فني .

هاهو ذا صاحبنا يدخل على عياش كما كان يدخل عليه . ولكنه يحس في هذه المرة شيئاً لا عهد له به من قبل ، يداخل جو الحساس ، ويبحث في قلبه شعور الانكار ، فصاحبه منقبض الوجه ، لا يتהלل له ولا يتحفي به ، كما كان شأنه قبل اليوم في استقباله . ما هذه الغشاوة التي تنتشر على وجهه وتحجب دونه ما كان يعرفه ويأنس له قبل في أساريه ، من دشاشة وبشاشة ومن بشر ونطق ؟ أما إن بابه لا يزال مفتوحاً له ، فلا حاجب من دونه يحجبه ، ويجلسه لا يزال متاحاً له ، فليس من يتمتع بحضره . ولكن ما جدوى ذلك ، وقد قامت «الكآبة والبسور» اللذان يغشيان وجه عياش مقام الحاجب الشديد المراس ، فلا هو يستطيع أن يداخل نفسه ، ولا هو يستطيع أن يقين في وجهه ما يداخل تلك النفس من معان تثير الريبة وتبحث الحيرة ، ولكنه يحس ذلك التقبض فتشدد ريبته ، ثم لا يلبث أن يرى رأي العين إعراضه عنه ، وانصرافه بلحظه إلى غيره من أصحاب مجلسه ، فينصرف فاق النفس وقد جعلت أشباح هؤلاء الجلساء تمر أمام خاطره ، تنبعث منها الكراهية والبغض . ولم تملك شاعريته إزاء تلك الصور وهذه المشاعر إلا أن تعبر عن نفسها ، فانطلقت بهذه الأبيات التي يوجه فيها القول إلى عياش حيناً ليناً هادئاً مطمئناً ، وإن كانت روح القلق تترقق في خلالها ؟

ليس يلدرى الا اللطيف الخبير أى شيء تطوى عليه الصدور
ويقولون : انك المرء بالغى ب محام عن الصديق تصور

فإذا جث زائراً حجت وجهك عنى كآبة وسرور
فتطلق من العناية أن البشسر في معظم الأمور يشير
أما البشر روضة ، فإذا كان يسلل فروضه وغدير
واقسم لاحظ بيتنا أن في اللحن لحن ما تجن الصدور

فهل استطاع أبو تمام أن يبلغ بهذه الأبيات الهيئة اللينة المتلطفة المترفة
شيئاً ؟ هل استطاع أن يعطف صاحبه إليه فيرد إلى نفسه الطمأنينة الدائمة ؟
كلا ! بل لعل أصحاب مجلس عياش قد البيع لهم من خلالها متفد جديد ينفذون
منه إليه ، ويأخذون السبل عليه ، فيسقطون فيه ألسنتهم ، ويزيدون ما بينه
وبين عياش فساداً . فهاهو ذا لا يزال ماضياً في غرايته : يقرن نفسه بعياش
ويضع نفسه منه — وأين هو منه ؟ — ذلك الموضع ، إذ يراه قريبه ، ويعتده
صديقه ، ويقف منه موقف الند لند ، لاموقف الطالب المستمع من السيد
الباذل المقصود ، وذلك في الوقت الذي يعرض فيه بهم ، وبما ينالونه به
في مجلسه :

ويقولون : انك المرء بالغى بتمام عن الصديق نصور

وهكذا جعلت نفس عياش تزداد صدوقاً عن أبي تمام ، وأخذت الفجوة
بينهما تمتد وتوسع ، كما أخذت تمتلئ بأحاديث السوء التي هي بطبيعتها
سريعة الترائد والتكاثر . وانقبضت يد عياش عن أبي تمام كما انقبضت نفسه ،
وجعل صاحبا يتجه إليه وهولا يلصقت لفته ، ويرجوه وهو مغرق في إعراضه .
وضاق بذلك أشد الضيق ، وقد جعل « ذل السؤال » يعضه ، وكان يحس به
كالشجا في حلقه ، يعترض أنفاسه ، « من دونه شرق » ، من تحته جرضه .
ولكن ماذا عساه يصنع ؟ « من يشتكى ؟ وإلى من يعترى ؟ وندى من يحتدى ؟ »
كما كان يتمول في إحدى قصائده : فقد جعلت الحيزة تنقادفه وتأخذ من
يمين وشمال ، وهولا يكاد يملك أزاءها إلا هذا الشعر يسرّوح إليه ويتنفس
به . فهو حريص على كرامته أشد الحرص ، يشعر بها شعوراً صادقاً قوياً
تنفخ فيه كبرياؤه الغريزة ، فهو يملك عليه أمره كله ، إذ ليس في

«ماء كف» عياش عوض يمكن أن يستعوضه عن «ماء وجهه» إذا هو أراقه وأفناه ، ولكنه في الوقت نفسه لا يجد له منصرفاً عنه ، ومطالب حياته تستجده وتحفزه وتأخذ بأظامه ، وثمنه من تلك الكبرياء ، فما بد من أن يغمض قليلاً على القذى . وهكذا يظل يتردد على عياش يرضاه ويستمتع عطاه حولاً كاملاً ، ويقول له :

الفطر والأضحى قد انسلخا ، ولي أمل بيبابك صائم لم يفطر
حول ولم ينتج نذاك ، وانما تتوقع الحبل لتقسمة أشهر
وعياش لا يزداد مع ذلك الا اعراضاً عنه وغضباً عليه واستخفافاً بأمره .

. ولعل مثل هذا الأسلوب الذي كان أبو تمام يصطنعه في شعره ، وهذه الاستعارات التي تشي بروح السخرية ، كان مما يثير عياشاً قيمعاً في موقفه منه . والحياة تعض أبا تمام بأنبياء وتنوشه بأظافرها . وقد جعل يعز عليه ويشق على نفسه أن يبتلى مرة أخرى بالضيق والشظف ، وأن تصوح آماله وأحلامه بالحياة الراضية والمجد الأدنى بعد أن نضرت وتفتحت ولم يكلمه بالجه ، هذه المرة ، شك في أنها نضرة دائمة . وانه لينظر في هذه المحنة المحيقة به ، وهذا البلاء الموكل بآماله ، ثم ينظر مرة أخرى في نفسه ، فلا يعرف لهذا الذي يحين به مآل . لكانما كانت حياة أبي تمام نوعاً من «الطباقي» ، كما كان فنه الشعري ، فرضته الحياة على شخصه ، فذهب هو يفرضه على شعره ، ولكانما كان هذا الاحساس بالتناقض في الحياة ، وقد جعل يلج عليه . هو الأصل في ذلك اللون القبي الذي فنن به ، وانصرف إلى الانتنان في إسباغه على شعره .

وقد لجأ أبو تمام في محنته هذه إلى التنفيس عن نفسه بالشعر ، يلجأ بصناعته من ناحية ، وينفث فيه همومه وآلامه من ناحية أخرى ، فلم يعد يقصر القصيدة على معاقبة عياش وتوجيه الحديث اليه ، بل جعل - إلى جانب ذلك - يستروح بالحديث إلى نفسه وتأمل ما عرض لها في حياته الماضية والحاضرة ، ونرى صورة صادقة من هذا الاتجاه في قصيدته الرائية :

«صدفت لهما قلبي المشتهر» ، إذ يقول فيها — مثلاً — بعد أن يعرض جانباً من ذكريات صباه ، وإن لهذه الذكريات مكانها فيما يرجوه من تنفيس واسترواح :

ورأت شحوباً رابها في جسمه ماذا يربيك من جواد مضر
غرض الحوادث ، ماتزال ملحة ترميه عن شرن بألم حبوكر
صدكت به الأقدار ، حتى أنها لتكاد تفجؤه بما لم يقدر
ماكع عن حرب الزمان ورميه بالصبر ، إلا أنه لم ينصر
ما إن يزال يحد حزم مفيل متوطناً اعقاب رزق مدبر

وما أروع ذلك تعبيراً عن الضيق الذي يأخذ بأكظامه ، وتصويراً للاضطراب الذي يغشى حياته النفسية ، وشعور التناقض الذي يلح عليه ، بين ما يتذرع به من أسباب الظفر والسبق ، وما يفرضه الحياة عليه من الحرمة والتخلف .

ثم يأخذ أبو تمام من ذلك في محاولة صرف عياش عن مرقنه منه ، في أسلوب بين اللطف والشدّة التي تحاذر أن تشد . ولكنه في خلال ذلك لا يفوته التعبير عن شعور الاعتداد بنفسه والامتان بشعره ، وأن عطاء المدح مردود عليه ثناءً مضاعفاً ، يرى بذلك أنه يحقق شخصيته إزاء مدوحه ، كما يحب بذلك أنه يشير المدوح ونهضة ويرده اليه ، ولا يعلم المسكين أي أثر سيء تتركه هذه الالهجة في نفس عياش ، فهو لا يزداد إلا اعراضاً عنه ونجاشاً له . وتكاد نفس أبي تمام تتميز غضباً وغيطاً ، ولكنه يمسك نفسه المتميزة ، ويربط على مشاعره الثائرة المتفجرة ، ويحبس لسانه الذي يوشك أن ينطلق بعبارات الحفيظة والسخط والموجدة ، فهو ما يزال يرجو العائدة ، كما يصور ذلك إذ يقول في قصيدة أخرى :

قلبت أرى في بدء وفي عقب ورضت حالي في جور ومقتصد
فا فتحت في إلا كعنت في وما مددت يدي إلا رددت يدي

وهكذا بلغت الحيرة النفسية بأى تمام ذلك المبلغ الشاق المؤلم ، فما يدري
بعد أى صنيع يصنع وأى سبيل يسلك ، وأى وجهة يولها . على أنه على أى
حال يريد أن ينتهى إلى حد فاصل يقرر عليه أمره ، وتتقضى به هذه الحيرة ،
فأما رجاء محقق خلىق أن ينتهى إلى غايته ، وأما يأمن مطلق يقضى إلى نوع
من الراحة والطمأنينة . فهو يهيب بعباش فى هذه القصيدة قائلا :

قل قوله فيصلا تمضى حكومتها فى المنع ان عن لى منع أو الصفد
محض بها سدى ، أو بمنع عضدى أو يدنى أمدى ، أو يعتدل أودى
أو التى طالما أفقت وعورتها من الأمور إلى منهاجها الجدد

ولكنه لا يكاد ينتهى إلى هذه العبارة الهادئة عن نفسه الموجعة وجية
الحيرة والتلق ، والوقف الطويلة فى مفترق الطرق ، حتى تهبج به كبرياؤه
الجريئة ، فإذا به يصبح بعباش قائلا ، فى لهجة أشبه بان تكون لهجة توعد
وتهدد ، تنتفض الثورة المكبوتة . وهى على كل حال لهجة مغيظ محقق
بلغ غاية جهده فى كظم غيظه وأماك غضبه وحفيظته :

ان كنت فى المثل ذا صبر وذا جلد فلت فى الدم ذا صبر وذا جلد
فقل - وراعك ، فى سقى وفى بعد فأننى فيك أهل السحق والبعد

وكانت هذه الصبحة البائسة آخر ما قاله - فيما نقدر - مما ينسم بسمة
العتاب ، وتغلب عليه روح التجمل والابقاء . وهكذا فرغ من الحيرة
والتلق ، إذ صرح له أمره على حقيقته ، ولم يعد هناك موضع لتعاه يتعلل
بها ، فاطمان إلى إحدى الراحتين ، كما يقال . وكأنما أخذته الأنف من هذه
الضراعة ، ومما كان يستشعره فى موقفه ذلك من هوان وضعة ، فأبهى ذلك
الموقف هذه الصبحة . وبذلك انتهى من هذا الدور ، دور العتاب ، أو دور
العلاقة الروائية المضطربة ، لتدخل علاقته بعباش فى دورها الثالث ، دور
القطيعة الباتة ، يمثلها فى ديوانه الهجاء الصريح الذى لا تجمل فيه ولا مراوية
ولا تلميح .

هذه هي القصائد والمقطوعات التي قلما أبرقنا — على ما جاء في ديوانه — في هجاء عياش بن هبيبة ، حين ضاق بالتماس الوسيلة إلى رضاه عنه واختابه إياه ، فاندفع مع شاعريته يهجو هجاء يعبر عما كان يعلأ نفسه من مرارة وما كان يتضرم فيها من سخط وألم .

وكما رأينا أبا تمام بدأ عتابه عياشاً هيناً ليناً متأنياً مترقفاً ، كذلك نرى هذه الظاهرة هنا في هجائه ، إذ نراه يبدؤه في القصيدة التي افترضنا أنها أولى قصائده في هذا الدور الثالث ، في هدوء وإنابة وطمأنينة . كأنما يتأمل بشعره تأملاً ، ويتحدث إلى نفسه حديثاً رقيقاً ، لا ثورة فيه ولا عنف كالذي سنلاحظه بعد في هذا الشعر ، وكأنه حين انتهى من تلك الخيرة التي كانت تأخذ عايه سبيله ، وكانت تعبت بحماته الغصبة أشد العث وتكيد لما أشق الكيد ، وتفرض عليها ألواناً من الجهد والمعاناة ، وحين بلغ من ذلك حالة اليأس ، أخذ يستشعر شيئاً من الروح ، كالمكدود حين يصل إلى نهاية الشرط فلا يكون من همه إلا أن يجلس ليسترخ ، وكذلك كان صاحبنا . فالإن بلغ تلك الغاية حتى انتحى بنفسه ناحية بسترخ ويتأمل أمره ويستعرض ما مر به . ولا مكان بطبيعة الأمر في تلك الحال لشيء من الثورة والانفعال .

وهكذا نراه في هذه القصيدة التي اشرنا إليها هادئاً أو كانهادى ، متسهلاً متأنياً ، تغلب عليه روح ادنى إلى الحزن والأسى ، وهو يتحدث فيها عن نفسه حديثاً نشعر فيه شعوراً قوياً بالحزن الهاديء أو الهدوء المخزون وهو يكاد يرجع عليها باللائمة في غيبة الأمل التي حاقت به ، إذ يسترجع ماضيه مع عياش ، ويتأمل ذلك الرجاء الذي عقده به زماناً ، ثم لم يلبث أن انهار وتبدد وتلاشى :

رجاء حل من عرصات قلبي	حل البخل من قلب البخيل
وواى هز حسن الظن حتى	جرى ماءه في عرضي وطولي
فأجدى موقفى بلراك جدوى	وقوف الصب في الظلل المحمل

وأعكفت المنى في ذات صدرى عكوف اللحظ في الخلد الأسيل
وكت أغر عزا من قسوع تعوضه صفوح عن جهول
فصرت اذل من معنى دقيق به فقر إلى فهم جليل
فأ أدري : عماى عن ارتيادى دهانى ، أم عماك عن الجميل ؟

هذه هى الروح السارية في القصيدة ، روح أدنى إلى الهدوء وأقرب إلى الحزن . وكأنه لم يكن يقصد فيها إلى الهجاء قدر ما كان يقصد إلى التورية عن نفسه والتنفيس عن حومه ، والتعزى عن آلام الحبية اتى فى بها في علاقته بعياش ، وهى خيبة لا ترجع — في رأيه — اليه هو ، وانما ترجع إلى ذلك الرجل الذى ارتبط به ، وعقد به اسبابه ، ثم لم يثبت أن انكره ، كما ترجع إلى موضعه من حوله ، بالمعنى الذى يشير اليه بقوله إنه صار اذل من معنى دقيق ، به فقر إلى فهم جليل ، واذن فليس يعدو هذا الهوان الذى يعاينه أن يكون أمراً طبيعياً بالقياس إلى رجل مثله ، يعيش بين قوم لم تهياً نفوسهم لفهمه ، كالمعنى الدقيق الذى لا يجد فهماً قوياً نفاذاً يجابه .

لم يكن بأبى تمام — فيما يظهر — أن يهجو عياشاً إذ ذاك ، فقد كانت حالته النفسية على ما وصفنا ، ومن ذلك جاءت هذه القصيدة وليس بها من معانى الهجاء الا تلك التعريضات والغمزات العارضة ، نجىء في سياق تأمله حالته ونظره في أعطاف نفسه ، والا ذلك التهديد والوعيد ، بصدر عما يختنق وراء ذلك الحزن الهادىء من ثورة كامنة تأبى الا أن يكون لها مظهرها في خلال تلك القصيدة . فهو مرة يقول لعياش فيها :

أعياش ا ارع أولاً ترع حتى وصل أولاً تصل ابدأ وسيل
أراك — ومن أراك الغى رشداً — مستلبس حلقى قمال وقيل
ملاحم من لباب الشعر تنسى قراءة ابيك كتب أبى قبيل

ومرة أخرى يوجه اليه الوعيد على هذه الصورة :

روبيك ! إن جهلك سوف يجلو لك الظلماء عن خزي طويل
وأقلل ، إن كيدك حين تصلى بغيرنى أقل من القليل

هذه هي الحالات النفسية التي كانت تغلب على أبي تمام في هذه الفترة
التي تعبر عنها هذه القصيدة . ومن ذلك جاءت وكأنما هي تمهيد لهذا الدور
الثالث من أدوار علاقته بعاشق . وكأنه كان يروض نفسه على ذلك المنهج
الذي يريد أن يصططحه ، ويروود ذلك الطريق الذي لم يتح له من قبل أن يسلكه .
وانما مرجع الأمر - في الحقيقة - إلى تلك الحالة النفسية التي رأيناها .

ولكن هذه الحالة قد انتهت بانتهاء هذه القصيدة ، وأخذت تلك الثورة
الكامنة التي رأيناها تطل برأسها ثم تخفى ، تترك مكانها وتبرز في الميدان
صاحبة مجلجلة . وكذلك جعل أبو تمام يظهر لنا بعد تلك القصيدة وقد فارقته
تلك الأناة ، ومضى عنه ذلك الترفق ، فهو مندفع في عنف عنيف وصحب
صاحب ، لا يبالي شيئاً . قد ركب شيطان الغضب ، واستولت عليه الرغبة
العارمة في أن يثار لنفسه المكرومة ، وكبرياته الجريحة ، وآماله الخفية
المردودة . وبينما نراه في تلك القصيدة التي وقف بها على رأس سبيله تلك
الجديدة طويل النفس إلى حد ما ، قد بلغ بها الثلاثين من الأبيات وتجاوزها
نرى شعره بعد ذلك ضربات قصيرة ، لا تكاد تبدأ حتى تنتهي ، فهي
مقطوعات تزاوح بين الثلاثة الأبيات والاثني عشر ، لا يكاد يتجاوزها ،
فهو فيها لا يصنع ولا يتمهل ولا يروى ولا يتأمل ، فالثورة التي يضطرب
بها صدره لا تدع له سبيلاً إلى شيء من ذلك ، فليس إلا أن يعبر عن انفعالاته
الناثرة ، ويستجيب لتلك الجروح التي ماتزال تنفر في أحشائه ، ونصرخ
منها مشاعره .

ذلك هو الطابع العام لتلك الأهجيات ، وذلك هو الأثر الأول الذي
تتركه في نفوسنا عند قراءتها .

فاذا انتقلنا من ذلك إلى الموضوعات التي اتخذ منها أبو تمام مادة لأهاجيه

بدا كأن أبرزها هو عربية عباس بن خبيص ، وانكار أبي تمام لهذه العربية ،
وتفننه في ذلك ألواناً من التفنن ، وذهابه في تصويره المذاهب المختلفة .

وقد كانت مصر تعاني في ذلك الوقت فتنة شديدة بين عنصرى أهلها :
العنصر الفاتح وهو العنصر العربي ، والعنصر الأصيل وهو العنصر القبطي ،
واضطرب جو مصر بهذه الفتنة ، وكان من آثارها أو مظاهرها أن أخذ
كثير من القبط يحاولون الانتفاء من قبطيتهم ، ويلتمسون تصحيح أنسابهم
كما كانوا يقولون . ولكن الأمر لم يقف عند ذلك ، فقد أخذ العرب لقاء
هذه المحاولة ينكرون عليهم ما يذهبون إليه من ذلك ، ويتمنون القضاة
الذين آزرهم ، كما نجد شرح ذلك عند الكندي في تبسط واستيفاء (١) .

وقد شارك الشعر في التعبير عن هذه الفتنة وترديد اصداؤها . شاركة
كبيرة ، فكان ذلك الموضوع من الموضوعات التي لجح فيها الشعراء المصريون
في ذلك الوقت لجأجاً ظاهراً ، فلا جرم كان من الطبيعي أن يتأثر أبو تمام
بذلك الجو الذي يعيش فيه وهو بصدد هجاء عباس ، فيكون أول ما ينخطر
بباله من معاني الهجاء أن ينكر عليه عربيته ، أو أن يضع هذه العربية موضع
الريبة ، في ذلك الجو الذي يعمج بالريبة في عربية هذا أو ذاك من الناس ، وأن
كثرت إشارات من قبل بيسنيته التي اتخذها وميلته إليه وشفيعه لديه ، كما يبدو ذلك
واضحاً في الشعر الذي مدحه به ، ثم بعد ذلك في الشعر الذي جعله في عتابه .
بل إنه في قصيدة الهجاء الأولى التي عرضنا لها منذ قليل لم يحاول أن ينفي
عنه عربيته أو يمنيته ، بل يقرها ويثبتها له ، حتى في سياق ذمه والتعريض به
والتشهير ببخاه ، وذلك أذ يقول :

كلا أبوبك من يمن ، ولكن كلا أبوى نوائك من ملول

فهو عربي يمني إلى ذلك الوقت . وقد رأينا من قبل حقيقة موقفه في تلك
القصيدة .

(١) الولاة والقضاة ، ص ١٠٠ .

ولكنه ما يكاد يأخذ سبيله في هجاء عياش حتى يكون موضوع هربيته هو المادة الأولى له .

ولكننا نلاحظ انه إذ يتناول هذا الموضوع يتدرج في طريقة تناوله ، من التعريض إلى التصريح ، ومن الانكار الساذج إلى توليده والافتتان فيه ، حتى نستطيع أن نتخذ من هذا التدرج الراضح اداة تعيننا على ترتيب هذه الالهاجي ، نوضع كل منها في موضعها بالنسبة إلى غيرها .

فهو يعرض به أولاً تعريضاً خفيفاً ، إذ يقول :

ومالي أهجر حضرموت ؟ كأنهم أضاعوا ذمائي ، أو كأنك منهم

وهو في هذا البيت يكفى بنفى حضرميته عنه ، دون أن يتعرض لعربيته ولكنه لا يلبث أن يقول :

بني لطيفة ، ما بالي وبالكم ؟ وفي البلاد منا ديج ومضطرب
لحاجة في فيكم ليس يشبهها إلا لجأجتكم في أنكم عرب

فينكر عليه بذلك العربية احلاقاً ، ولا يكفى بالانكار الساذج ، بل يصوغه صياغة لاذعة ، ويورده في سياق ساذج ، إذ يقرر ان في ادعاء عياش العربية لاجاجة لا تفصل به إلى شيء ، كما لم يصل هو إلى شيء حين لجج في التعلق به ، وتغفل الأمال عليه .

وكأنما قد انفتح بذلك أمام أن تمام سبيل واسعة رحبية في العتب بعياش والتندر به والسخرية منه ، مستلهماً الجرا الذي حوله ، فهو يمضي فيها ويوغل في شئ مسالكها . بولد من ذلك المعنى شئ التوليدات ، ويضع عليه مختلف التفريعات ، إذ كانت تلك المعاني والصور التي يصوغ أهجياته منها حية متصلة بالبيئة التي يعيش الرجلان فيها أشد الاتصال ، مشتقة من تلك الحالة التي كانت تسود المجتمع المصري في ذلك الوقت ، وتشغل من الأذهان حيزاً كبيراً ، فقد كان من الطبيعي أن تأخذ سبيلها مباشرة إلى مدارك الناس وأنجلهم ، وبذلك كانت - ولاروب - من أخطر ألوان الهجاء أثراً ،

وأوضحها مبيناً ، وأكثرها تحقيقاً للغاية التي اتجه الشاعر إليها . فقد استطاع هذه المادة التي اتبعت له أن يضع من صاحبه ويحيطه عند الناس بمجو يضطرب بالرب والشمات ، ويجعله عندهم مثار التندر والعبث والسخرية ، وأن يثار بذلك نفسه المكلمة أشد الثار وأروحه لها .

وإذا كان أبو تمام قد لجح في الانصال بعياش وعقد نسبه به — كما يقال له ويعبر هو به — فهاهو ذلعياش يلجح في الانتساب إلى العرب ، وكلاهما حاجتني شيء بغرض ، إلى أنه باطل لا معنى له وينبغي ألا يتشبه به أمل . وإذا كان قد اتجه إليه يرجو نائله ، وكان ينبغي أن يعلم أن ذلك باطل لا جدوى فيه ولا محصول له ، فذلك أشبه شيء برجاء عياش « العلا » حين يتوسل إليها بادعاء العرب وهو في حقيقة أمره قبلى صميم القبطية ، يتناسى أصله الذي جاء منه ، وكورنه التي يرجع إليها بنسبه :

ورجوت نائلكم رجاء كم العلا بتذكر العلجان واليعضيد
وفيت سوء فعالكم فسيانكم انسابكم في كورة البشرد (١)

ويلاحظ من سخرية لاذعة ، لقد جعله ينسب نسبه ، وقد خلفه وراءه في « كورة البشرد » وأراد أن يصوره في صورة من ذهب به الحرص على الانتفاء من أصله مذاهب الغفلة ، إذ يظن أنه يتركه تلك الكورة . وبنيانة ذلك النسب ، وقد خلع عنه قبطيته وتجرد من آثارها . وهيات أن يبلغ بذلك النسيان شيئاً ، فلئن نسى نسبه فإن نسبه لا ينساه ، فذلك شيء لا سبيل إليه ، ولن حاول أن يتجرد من آثار الجنس الذي ينتمي إليه فإن آثار ذلك الأصل ما تزال قائمة به ، مصرفة حيرته .

هيات ! خف إلى الغايات لاحقها سبقاً ، واثقلك الخالوم والصبر (٢)

(١) البشرد — كما يقول يقول — « كورة من كورة بن الريف في مصر من كورة أسفل لأرض » (معجم البلدان ٢ : ١٩٠) .

(٢) الصبر والخالوم كلمتان معربتان قديمتان ، ولا تزالان مستعملتين في أفواه بعض النخبة في اليوم .

وأخيراً بلغ أبو تمام من ذلك التهم المرير والسخرية اللاذعة في استغلاله ذلك المعنى وتوليد مبالغاً بعيداً ، في قصيدته الميحية ، حيث يقول :

لما بدا لي من صميمك ما بدا	بل لم يصب لك - لا أصيب - صميم
جردت في ذميك خيل قصائد	جالت بك الدنيا ، وأنت مقيم
الحقن بالحميز أصلك صناعراً	والشيخ يضحك منك والقيصوم
طبقات شحمك ليس يخفى أنها	لم يبنها آء ولا تنسوم
يا شماریا لبن اللقاح تعرباً	الصير من يفيه والحالوم
والمدعى صوران منزل جده	قل لي : لمن انناس والقيوم ؟

وبمثل هذه الأبيات استطاع أبو تمام أن ينتصر لنفسه ، وقد وجد في هذه الفتنة الشاملة التي كان المجتمع المصري يضطرب بها في ذلك الوقت مادة حاضرة مهيأة يصوغ منها هذه الصور ، كما أنها أتاحت له أن يجعل من أهجياته هذه شيئاً حياً ، لا يكتفى بأن يحيط عياشاً بالريب في مسألة خطيرة كهذه المسألة ، وإنما يجعله إلى جانب ذلك موضع عبث وسخرية مريرة لاذعة ، تجرد مكانها دائماً في المجالس والمجتمعات . فها هو ذا رجل من الرجال المرموقين ما يزال يجهد أشد الجهد ، ويصطنع كل وسيلة ، حتى يبدو عربياً ، ويعرفه الناس من أهل البادية . رجل سمين مكتنز الشحم طبقة فوق طبقة ، التي له ان يكون من هؤلاء الذين طعامهم الآء والتنوم ، مما لا يزال يلهج به ليعد من أهله ، كما يشرب لبن اللقاح من أجل هذه الغاية ، وإنما الصير والحالوم طعامه ، نشأ عليهما في انناسيا والقيوم ، لاصوران التي بزعمها منزل أسرته .

وأبو تمام باثارتة هذه الطائفة من المفارقات فيما يصور من حياة عياش ، وهذا التناقض بين حقيقته ودعواه ، وإبراز ذلك في مثل هذا الأسلوب الساخر ، جدير بأن يثير الضحك ، وهو يزعم ، ساخراً ، أنه يمثل هذا قد رده إلى أشجار الحميز التي يجهد في الانتفاء منها ، وترك الشيخ والقيصوم يقهقهان سخرية منه .

على أن اضطغان ابن تمام على عياش وحفده عليه كان أكبر من أن ينهه
 أو يستكين ، إنما حفيظة شاب حاد العاطفة ، عصبى المزاج ، ممتلىء غروراً
 بنفسه ومغلاة بقدره ، وشاعر متوقد القلب مشوب الخيال معتد بمكانه
 الشعري ، أصيب من حيث كان يرجو ، فثار به حقوده فلم يملك كبجها
 فاتخذ الهجاء يئنه آلامه وأحقاده . وكان الأمر لم يلبث أن اتخذ في نفسه
 صورة فنية . وهنا جعلت المثل الشعرية القديمة التي يقدمها إليه شيوخ الشعراء
 من أصحاب الهجاء الذين يروى أشعارهم ويتحفظها ويدرسها ، كجربير
 مثلاً ، تدفعه في تلك السبيل ، وتحفزه على الاقتنان والتوليد .

ويظهر أنه حين وقف من عياش ذلك الموقف ، ونصب نفسه لهجاءه
 والتشهير به ، وانفتح له ذلك الميدان من ميادين الشعر العربي ، جعل يعارض
 نفسه بأولئك الشعراء الذين كانوا يثارون لأنفسهم بقوافيهم ، والذين اتخذوا من
 الهجاء فناً عرفوا به ، فيها هو ذا يسير في سبيلهم ، ويحذو حذوهم ، ويأخذ
 مأخذهم . وإن كان قد وجد معاني الهجاء مثالة عليه مما يمور به الجرح حوله
 واستطاعت شاعريته أن تهمل منها على الصورة التي رأيناها . ولكننا لا نستطيع
 أن نغفل هذا العامل من عوامل توجيه وإمداد شاعريته في هذه المرحلة .
 ولعلنا نستطيع أن نلمح ذلك من خلال هذا البيت الذي يحىء في إحدى قصائد
 هذا الفن من فنون شعره في هذه الفترة :

وبقيت ، لولا أنني في طيء علم ، لقال الناس : أنت جربير (١)

فلم يحىء «جربير» هنا اجتهاداً ، أو لأنه تعد في طريق القافية كما يقولون ،
 بل لأنه كان من المثل الشعرية التي كان أبو تمام معنياً في هذه الفترة خاصة
 بدارستها وتحفظ آثارها . وقد ظلت تراوده وتوجهه في ذلك الهجاء الذي
 وقف نفسه عليه إذ ذاك أو كاد .

ولقد ظل هذا الحقد الذي امتلأت به نفس أبي تمام على عياش مضطرباً فيها لا يكاد يجد سهيلاً إلى الهدوء ، كما ظلت تلك الرغبة الفنية في رسم تلك الصور وصياغة ذلك الشعر ميطرة عليه مستبدة به ، وكأن ماواه من قدرته على ذلك الفن ، وما خيل اليه من نجاحه فيه ، كان محاضراً عليه ، قضى فيه حتى بعد أن قضى عياش نحيبه ، فلم يحل موته بينه وبين الاستمرار في هجائه بل ظل مندفعاً في تلك السبيل ، بل لقد اتخذ من موت عياش موضوعاً جديداً يستوحيه طائفة من المعاني والصور الجديدة ، يبني عليها هجاءه ، ويزيده بها إقداً وحدة .

وقد حفظ لنا الديوان مما جاء من هذا القبيل قصيدتين أشرنا من قبل اليهما بين مجموعة قصائد الهجاء ، وإن كانت إحدى هاتين القصيدتين مقدمة في الديوان الذي بين أيدينا على أنها مما قال أبو تمام في هجاء مقران الماركي وهي قوله :

لا سنفيت أطلائك الدائرة ولا انتقضت عثرتك العائرة

ولكن نظرة فاحصة في غير كثير من الإلحاح ، ومقارنة هذه الأبيات بما جاء من شعر أبي تمام في هجاء مقران ، لا تكاد تدع لدينا شكاً في خطأ ذلك التقديم ، وأن شيئاً من الخلط قد عرض له ودخله ، فوضع «مقران» موضع «عياش» . أما تصحيح هذا الخطأ ، ورد القصيدة إلى من قيلت فيه ، فأما نرجع فيه إلى رواية ابن عبد ربه (١) ، فقد أورد أبياتاً منها وقدمها على أنها في عياش ، وكذلك يفعل البديعي (٢) .

وهذا المذهب الذي ذهب اليه يؤيده عندنا ما أشرنا اليه من المخالفة بين الروح التي كانت تملي على أبي تمام هجاءه عياشاً ، والروح التي كانت تملي عليه هجاءه مقراناً الماركي .

(١) العقد الفرید ٣ : ٣٣٠ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ١٧٩ .

على أن الأمر في هذا اللون من الهجاء، وهذا الملك غير الكريم الذي
 سلكه أبونا تمام في تعقب عياش بالهجاء بعد موته، يرجع — فيما نخيل إلينا —
 إلى شيء آخر غير ما رأينا ، وهي تلك المثل الشعرية القديمة التي أخذ نفسه
 في هذه الفترة — كما قلنا — بدراستها واحتضانها ، فهي مسؤولة أيضاً — إلى
 حد ما — عن ذلك ، فقد سلك جرير من قبل مثل ذلك الملك ، وجرير
 كان — كما قدمنا — من أول المثل الفنية الماثلة أمام أبي تمام ، فقد مضت به
 خصومة الأخطل إلى حد أنه لم يعف عن هجائه بعد موته ، إذ نرى في ديوانه
 هذه القطعة يهجوها بعد أن قضى تحبه ، وهي التي يبدو أنها بقوله :

زار التيسور أبو مالك فكان كالأم زوارها (١)

فلا على أبي تمام أن يحذر حذو أستاذه ، ويسير في السبيل التي سار
 فيها قبله .

وهكذا انتهى أمر أبي تمام مع عياش بن لبيعة ، وانتهت هذه المرحلة
 من تاريخ شاعريته .

١٠

كما نتوقع خلال خلة الهجاء التي شنها أبو تمام على عياش بن لبيعة ،
 متصلة بمتصلة ، أن نسمع صوتاً آخر يتجاوب مع صوته ، ويتبادل الهجاء معه
 فترى واحداً — على الأقل — من شعراء العصر المتصلين بعياش ، والحاقدين
 على أبي تمام ، يلغ عن عياش وينافح من دونه ، ويشتبك مع أبي تمام لينال
 منه ويرده على أعقابيه . تلك هي الصورة التي تفرضها طبيعة الأشياء في مثل
 ما نحن فيه .

(١) ديوان جرير ، ص ٢٠٢ ، ط ١٣٥٢ هـ

ولكن نغوص هذه الفترة الذي يرجع إلى قلة العناية بتدوين أخبارها، وخاصة مظاهر الحياة الأدبية فيها ، ثم تعرض مادون من هذه الأخبار للضياع أو الاغفال ، بسبب بعد مصر عن مركز الحياة الأدبية ، قد تركنا نعانى كثيراً من اضطراب الصور واقتضابها ، وبذلك لم نتمكن من معرفة الحقيقة الكاملة عن هذه الخصومة التي شنها أبو تمام على عياش ووجوهها الأدبية المختلفة . إذ كنا لا نكاد نشك في أن هذه الخصومة الأدبية كانت ذات وجهين ، وأن الطرف الآخر كان له ما يمثله فيها ، وأن ضاعت أخباره ، وتقطعت الوسيلة إليها .

ولاريب أن أبا تمام لم يعلم من التعرض لهجاء بعض الشعراء المصريين له . ولنا نقول ذلك استنتاجاً وتعشياً مع طبيعة الأشياء ، ولكنه هو نفسه يشير في بعض شعره إلى مناقضة هؤلاء الشعراء ومهاجاتهم له ، وانتصاره عليهم ، وذلك إذ يقول :

وعاو عوى ، والمجد بيني وبينه له حاجز دوني وركن مدافع
تفرقت مناه طود عز لو ارتقت به الريح فترا لانشئت وهي ظالع

فأكبر الظن انه يعنى هنا شاعراً قصد إليه بالهجاء . ولكنه لا يلبث أن يصرح بذلك في هذه القصيدة ، إذ يقول :

فكم شاعر قد رامنى فقلدعته بشعره فامسى وهو خزيان ضارع
كشفت قناع الشعر عن حروجهه فظيرته عن فكره وهو واقع
بعر يراها من يراها بسمعه ويدنو إليها ذو الخجاء وهو شاسع
يرد وداداً أن اعضاء جسمه إذا أنشدت مشوقاً إليها المسامع (١)

وإذ كانت هذه الأبيات من قصيدة قالها في مصر — كما سيجيء القول — فان فيها دليلاً واضحاً على أن أبا تمام خاض طائفة من المعارك الأدبية

(١) ديوان أبي تمام ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

مع بعض الشعراء المصريين ، وإن كنا لا نستطيع أن نقين أكثر من هذه الدلالة : فنرى من هم هؤلاء الشعراء الذين كان يراجيهم ، وفيهم كانت هذه المهاجة ، وعلى أى صورة انتهت .

وإلى جانب ذلك نجد الرواة يذكرون أن مهاجة نشيت بين أبي تمام وبين الشاعر المصرى يوسف السراج ، ثم زادوا على ذلك أن أبا تمام هزم فى هذه المهاجة ، وأنه من أجل ذلك يعد من الشعراء المغلبين .

على أنه لم يبق لنا من أخبار هذه المهاجة إلا هذا الخبر المقتضب ، كما لم يبق لنا من مادتها إلا ما يمثل الطرف المغلب الذى لم يابث أن أفحم وغلب على أمره ، كما يزعمون عن أمر أبي تمام فيها . أما يوسف السراج ، صاحب الغلبة فى هذه المعركة ، فقد ذهب ما يصوره ويمثل جانبه فيها ، فلم يبق لنا من شعره فيها — كما لم يبق لنا من أخباره وصور حياته عامة — شيء .

ولكننا لا نملك القول بأن هناك صلة بين هذه المهاجة التى نصرا على نشرها بين أبي تمام ويوسف السراج ، وبين تلك الأبيات التى أوردناها ، فلا نستطيع بذلك أن ندعى أن ذلك والشاعر الذى أشار إليه أبو تمام فيها هو يوسف السراج هذا ، فأكبر الظن أن أبا تمام تعرض فى مصر لأكثر من مجاء ، وواقف فيها أكثر من شاعر ، كما نرى فى قوله : «فكم شاعر قد رامنى فقدعته...» . وإن كان الأمر فى مثل هذه الصلة يمكن أن يدخل فى باب الاحتمال . وكذلك لا نملك القول بأن هذه المهاجة بين أبي تمام ويوسف السراج كانت بسبب من ذلك المجاء الذى شنه أبو تمام على عياش ابن طبيعة ، وأنها كانت وجهاً من وجوه هذه الخصومة التى اندلعت معظم آثارها ، وإن كان ذلك أيضاً من الفروض المحتملة ، ولكن لا دليل عليه ، ولا شبهة تنزع بنا إليه . وليس فى الشعر الذى بقى من آثار المعركة الأدبية بين أبي تمام ويوسف السراج — وهو كما قلنا من شعر أبي تمام وحده — أدنى إشارة يمكن أن نعتمد عليها فى هذا .

وقد بقي لنا من هذا الشعر قصيدتان : بائنة وجيبة ، أما أولاهما
فيبدوها بقوله :

أيوسف ، جئت بالعجب العجيب تركت الناس في أمر مريب (١)
وأما الأخرى فهذا مطلعها :

أمسك ! بل استمك لوقع هاجي فلنأمن عذوبتي وأجاجي (٢)

وتكاد تكون هاتان القصيدتان المصدر الوحيد لنا في تعرف يوسف
السراج ، وتصور شيء من جوانب شخصيته ، بل لعلنا نستطيع أن نقول بأنها
القصيدة الأولى وحدها التي يمكن أن نجد فيها ما قد يلقى بعض الضوء على
هذه الشخصية . وفيها يقول أبو تميم ما يمكن أن نستنتج منه أن يوسف
السراج كان شاعراً عالماً ، من هؤلاء الذين أخذوا أنفسهم بقراءة علوم
الأوائل التي بقيت مصر تردد أصداءها حتى غلب عليه ذلك وظهر أثره
في شعره ، فجاء من أجل ذلك غامض المعنى مستهلك العبارة ، جافاً لأماء
فيه ، ولا رونق له . وذلك اذ يقول أبو تمام بصف شعره بهذا الأبيات التي
مازال علماء الشعر يلوكونها ويمتنعونها :

فلو نبش المقابر عن زهير لصرح بالموسيل وبالنحيب
مَنْ كانت معسانيه عبيالا على تفسير بقراط الطبيب ؟
وكيف ؟ ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ربحان القلوب

فهذه إحدى صفتي شعر يوسف السراج في اعتبار أبي تمام وتقديره .
ومهما يكن من أمر الخصومة وما تعمل عليه من الرغبة في التثويه ، فالأصل
الذي استنتجناه باق صحيح .

(١) الديوان ، ص ٢٦٩ .

(٢) الديوان ، ص ٢٧٢ .

وأما الصفة الأخرى فهي بجانبه الألفاظ المألوفة وميله إلى الغريب يستعمله في شعره ، على ما جاء في كلام أبي تمام عنه في هذه القصيدة إذ يقول :

فإلك بالغريب يد ، ولكن تعاطيك الغريب من الغريب

وإذن فقد كان يوسف السراج من هؤلاء الذين انحرفوا بالشعر عن سبيله المرسومة منذ عهد «زهير» كما يقول أبو تمام ، أو أنه كان بعبارة أخرى من أول الذين خرجوا على «عمود الشعر» المعروف ، وذهبوا به مذهباً جديداً في تكلف المعاني والصور والألفاظ ، واتحam ، معاني الأوائل عليه ، أو التأثير بها في تكوين صورته وصياغة عبارته ، «والميل إلى الصنعة ، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة» على حد تعبير الآمدي في صفة شعر أبي تمام نفسه . وكذلك كان يفعل في ألفاظ شعره ، إذ يترك الكلمات المألوفة المتعارفة ، التماساً للغريب .

فهذه بعض الخصائص الفنية لشعر السراج كما يمكن أن نستنتجها مما يريد أبو تمام أن يقدمه إلينا عنه في هذه القصيدة ، وتلك هي بعض ملامح شخصيته ، شخصية رجل عالم شاعر ، يخضع الشعر لعلم ويطعمه به .

وأما القصيدة الثانية الجذيمة فليس فيها إلا صور من الهجاء النفاخس المقلع يقدنه أبو تمام غير متجمل ولا متورع . وكذا رأينا المثل الشعري من جرير ماثلاً في خاطر أبي تمام في هجائه عياش بن طيبة بعد موته كذلك نرى هنا هذا المثل في ذلك الأسلوب الذي اصطنته في هجاء يوسف السراج ، فقد تأثر — فيها يبدو — أستاذه في الإفحاش فأفحش ، وجاءت قصيدته هذه بمجموعة من المثالب المكشوفة العارية . ولعل هذه هي المحاولة الأولى من أبي تمام لهذا اللون من الشعر ، ثم نراه بعد كثيراً في شعره ، في نحو مكران المباركى .

١١

ماذا كان من أمر أبي تمام بعد أن أعرض عياش عنه ، ومنته ما تعود أن يجريه عليه ويرفده به ؟ أما أنه ليس لنا في هذا الموضوع إلا أن نرجع

إلى الديوان نتعرف ما عنده ، ونحاول أن نتشف ما عسى أن يكون من ذلك فيه ، على الرغم مما نحن على يقين منه من أن شعر أبي تمام قد ضاع منه قدر غير قليل . وخاصة مما قاله في فترة مقامه بمصر ، وأن الديوان لا يمثل حياته الأدبية فيها تمثيلاً شاملاً دقيقاً .

والواقع أننا حين نرجع إلى الديوان نراه لا يصرح بشيء في جواب هذه المسألة تصریحاً يطمان إليه . ولكننا مع ذلك نستطيع بشيء من مد البصر واستبطان الكلام أن نلمح فيه بعض الاشارات الخاطفة التي قد تدل على أن أبا تمام اتجه ، حين فترت الصلة بينه وبين عياش ، إلى قوم غيره يمدحهم ويلتمس رفدهم ويستعيض بهم ، وذلك في إحدى قصائده التي يعاتب بها عياشاً ويستعطفه ، إذ يقول :

ثم انصرفت إلى نفسي لأثارها	إلى سواكم ، فلم تهشش إلى أحد
ومدح من ليس أهل المدح أحسبه	روحي تفصل من قلبي ومن جندى
قوم إذا أعين الآمال جانبهم	رجعن مكثحات عائر الرمد
وطلعة الشعر أقل في عيونهم	وفي قلوبهم من طلعة الأمد
ما أن ترى غير منشور على فند	في الناطقين ومطوى على حسد (١)

فقد اتجه أبو تمام إذن إلى غير عياش ، وحاول أن يعقد صلته به ، ويتخذة ممدوحاً له — ومن يدرى ؟ فلعل ذلك كان من جملة الأسباب التي جعلت توغر صدر عياش عليه ، فهو في استعطافه يحاول أن ينتفى منه — ولكنه أنفق في هذه المحاولة ، فلم يجد لديه شيئاً مما كان يطمح إليه ، وإنما وجد هؤلاء الجلساء الذين وصفهم في البيت الأخير ، والذين شقى بهم أبو تمام شقاء غير قليل ، أو شقى بنفسه معهم ، في كل ناحية ينتحبها وكل مقام يقوم فيه .

(١) الديوان ، ص ٢٧٥ .

لقد جعل أبو تمام يتخبط - فيما يبدو - في التماس مدحوحين له ، يعيش في ظلهم ، ويحتسب بكنفهم ، ويلتمس حياته عندهم ، ويحقق لديهم شاعريته ، ويتشرف في مجالسهم المحمد الأدبي الذي يتطلع إليه . ولكنه كان لا يلبث حتى تترض سبيله تلك المثالية الغريبة أو ذلك الغرور الصياني ، فينسد عليه أمره ، وإذا به يتجرع القتل وخيبة الأمل .

ولعل هذه الحانة لم تظل بأبي تمام كثيراً - وإن كنا نحسب أنه عانى فيها جهداً مبرراً - فإنه ليصبح ذات يوم من أيام سنة ٢١٤ ، فإذا على مصر وال جديد قدم إليها من خراسان ، ليضع لهذه الفتنة العارمة التي مازالت مضطربة حداً تنقف عنده وتفتنى به . وجعل الناس يتسامعون بياسه وقوة شكيبته ، كما كانوا يتسامعون ببيلة وجوده وأريجته ، وعظم بقدر ذلك فيه رجائهم أن تزول به عنهم تلك الشدة ، وتنقطع الفتنة التي عبث دهرها بحياتهم . وكذلك استشرفت آمال صاحبنا أبي تمام له ، ونطالت نحوه . وقد رجا أن يكون في مقدم هذا الأمير ما يضع حداً لهذه المحنة التي اتبعت له ، والفتنة التي يضطرب بها صدره ، ويفسد عليها أمره . ثم لا يلبث حتى يتقدم إليه ويعقد به صابته ، ويجعل نفسه في حاشيته .

ذلك الوالي هر عمير بن الوليد (١) ، والاتصال أبي تمام به أمر ثابت تقرره هاتان القصيدتان اللتان نراهما في ديوانه ، يرثيه بهما ، رثاءً صادقاً نحس فيه شعور الحمرة والتفجيع وطغيان الأسمى . ولكن أين مدائحه فيه ؟ أتري لم يتج لأبي تمام أن يتقدم إليه مادحاً ؟ أم كان ينتظر المناسبة تلوح له فيما قدم مصر من أجله ، يرفع إليه فيها مدحه ، وينوه بحميل أثره ، ولكن القدر انقض على هذه المناسبة ؟ أم أنه قد مدحه ، ولكن مدحه هذا قد ضاع في الكثير الذي ضاع من شعر هذه الفترة ؟ كل هذه فروض محتملة ، وإن يكن الأخير أقربها فيما نرى . أما مقطع الحق في ذلك فلا سبيل إليه .

(١) يذكره الفقيهي باسم عمرو بن الوليد النخعي . ولعل في الأمر تحريفاً . انظر : صبح الأسمى ٢ : ٤٢٧ .

والواقع أن الأمر لم يطل بعمر بن الوليد في مصر أكثر من سبتين يوماً ذهب بعدها ضحية هذه الفتن العنيفة الجارفة التي جاء مصر لاحتلالها والقضاء عليها ، فيما كان يرجو هو ويرجو الذين اختاروه وبشوه لها . فأخذته هي وقضت عليه . وفي صفة ذلك يقول الكندي : «... واستعد عمر لحرب أهل الخوف ، وبعث بعبد الله بن حليس الحلال إلى الخوف ليصلح أمر قيس ، فعقدوا له عليهم . وأقام بأمر إيمانية عبد السلام بن أبي الماضي الجهادي ، ثم الجروني ، فسار إليهم عمر في جيوشه ، وتبعه الجلودى عيسى بن يزيد ، وانقضى الفريقان بمنية مال الله ، فانهزم أهل الخوف ، فنبههم عمر ، فعطف عليه كمين لأهل الخوف ، فقتلوه باليهودية...» (١) .

وهكذا انتهى وشيكاً ذلك الرجل ، وهكذا فجع انقضاء أبا تمام في آماله التي كانت قد بدأت تتنفس وتفتح وتلتعش ، فلم تلبث حتى تقبضت وانضمت على نفسها ثانية ، حين عاجلها الموت في ذلك الكمين الذي كان يتربص بعمر وكأنما كان يتربص بهذه الآمال أيضاً ، وأحس أبو تمام الفجيعة تواشب نفسه إلى أعماقها . وقد بقي لنا من آثار هذه الحزة النفسية التي عاناها بموت عمر هاتان القصيدتان اللتان اشرنا منذ قليل اليهما ، واحداهما هي التي يبدوها بقوله :

أعبدى النوح — معولة — أعبدى وزيدى من بكائك ، ثم زيدى (٢)

وأما الأخرى فهي :

كف الندى أضحت بغير بنان وقتاته أمست بغير سنان (٣)

ويشير في رثائه هذا إلى تلك الموقعة التي امتحن بها عمر بن الوليد ، كما امتحن بها آمال أبي تمام ، ويذكر انقلاب الأمر فيها على النحو الذي

(١) لولاة والقضاء ، ص ١٨٥ .

(٢) الديوان ، ص ٣١٢ .

(٣) الديوان ، ص ٢٢٦ .

بصوره الكندي فيما نقلنا عنه ، ولكننا نحس في ذلك أنه إنما يعبر عن انقلاب
الأمر في نفسه وشيكاً ، وذلك إذ يقول .

ياوقعة مفتوحة بكرامة لو لم تكن غنومة بهوان
بدأت فعاد الكهل غراً ناشأ وثبت فشاب أصغر الولدان

فإنما هي نفس أبي تمام بين زهو الكرامة وضالة الهوان ، وبين خفة
الرجاء يفيض عليها صفات الصبا والفرارة ، وبين ثقل البأس يسط عليها
سمات الشيوخ ، ويلزمها التوقر والتقيض ، ويشعرها بمشاعر الحياة الفانية المدبرة .
ولسنا نريد أن نقف طويلاً عند هذا الرثاء الذي جعل أبو تمام ينفس به
عن فجيئته ، ويعبر فيه عن آماله المكبوتة المقموعة ، فكل بيت
من قصيدته هاتين عبارة عن أنة أو زفرة أو حسرة ، ملونة بهذه الألوان
القائمة الغالبة على نفسه .

على أننا نستطيع أن نبين بين هذه الألوان القائمة التي تبعث الأسى لرتنا
آخر بعيداً عن هذا القنوط ، يللمح بينها لها خفيفاً ، ويومض من خلالها ومضاً
خاطفلاً ، ومضة البرق بدا ثم انضمحل . فقد كان هناك إلى جانب شعور
الفجيئة المطبق على نفس أبي تمام شعور آخر يحاول أن يفتح عليه ويدخله
ويشبه منه ، وهو شعور الرجاء . ولو أنه كان خافتاً غامضاً مضطرباً
يتسلل في حذر ، إلا أنه جعل يسمح مصححاً رقيقاً بيده الرقيقة على تلك الأحران
يحاول تلطيفها ، وأخذ بصيصه الضئيل يشع من خلال تلك الظلمات المتدجية
يريد أن يكشف منها . وكان مبعث ذلك الرجاء هو سليل الراحل الشهيد
محمد بن عمار بن الوليد ، وقد كان في إبان ولاية أبيه يتولى بعض المناصب
في مصر ، إذ كان على شرطتها إذ ذاك .

فلم تكذب نفوس أصحاب عمار تفتيق من أثر البعثة التي أصابها بها تلك
الفاجعة ، حتى أخذت تنظر إلى ابنه محمد هذا ، وجعل نزوعها الطبيعي
إلى التعزى يلتمس أصبابه في ذلك الرجل ، كما أخذت الآمال التي بدتها

ذلك الفاجعة تتجمع شيئاً فشيئاً حوله ، وتعصب به ، وإذا بالقوم يتجهون إليه ليكون في مكان أبيه والياً على مصر . ولعلنا نستطيع أن ندّين هذه الرغبة من وراء بعض أبيات الرثاء ، فأكبر الظن أن أبا تمام حين يوجه بعض القول إلى الخليفة في خلال رثائه ، متحدثاً عن عمير ومكانه في نفوس أهل مصر وبلائه في قتال أصحاب الفتنة ، وقضائه بذلك حق الدولة ، إنما كان يرى من وراء هذا إلى أن يوجه نظر الخليفة إلى ابنه محمد ، وعناية لحن أبيه ، ومكافأة له على ما أبلى من بلاء لم يحماه ، فلم يلبث أن عاجله الموت ، دون أن يستمتع بالولاية . أو لعله كان يردد ما كان أصحاب عمير يديرونه بينهم ، فيودون لو يبلغ الخليفة ، وذلك إذ يقول :

ألا أبلاغ خليفتنا مقالاً	وأبلغه الأمين بن الرشيد (١)
بأن أميرنا لم يأل عدلاً	ونصحا في الرعايا والجنود
أفاض نوال راحته عليهم	وسامح بالطريف وبالتلبد
وأصحر دونهم للموت ، حتى	سقاءه الموت من فقر حبيد
ومما ظفروا به حتى قراهم	قشاعم أنسر وضباع بيد

فهذه الأبيات التي يتجه بها أبو تمام إلى الخليفة ، وإلى أمير مصر ، والتي يقصد فيها قصداً إلى التعبير عن مكانة عمير بين المصريين لكرمه واربحيته وشدة بأسه ، تكاد تكون تعبيراً صريحاً عن تلك الرغبة .

وقد تم لأبي تمام وأصحاب عمير بن الوليد ما أرادوا ، وتحققت رغبتهم لدى الدولة ، فوالت محمد بن عمير على مصر ، وانتعشت آمال أبي تمام لهذه الولاية ، وهي الآمال التي تنطق بها وتعبّر عنها هذه الأبيات التي جعلها ختاماً لأحدى قصيدتيه في رثاء عمير ، وذلك إذ يقول :

(١) يقصد بالأمين بن الرشيد أبو أسحق محمد بن عارون (المتمم) الذي كانت له إمارة مصر والشام في ذلك الوقت ، وكان أبيه أمير ولاية هذا الإقليم في توليته وحزها . وكما نحب المتمم من بلقب الأمين كذلك أطلقه أبو تمام على القائمون ق قوله :
هذا أمين الله ، آخر مصدر
شمى أنظمة بدو أول مورد (الديوان ص ٨٦)

فمحمد كهف الكهف وعدة الـ
 خال ما لوسحل أصغره على
 وإذا تدنست الرجال ، فانه
 يحكى فعال أب كريم في ندى
 فلاشغلن بمدح ذا ويندب ذا
 ملهوف من عاف رجاء ودانى
 شهان لانهت ذرى شهان
 عف السريرة طاهر الاعلان
 وشجعاعة وبملاغة وبيان
 أبدأ لسانى ، ما ملكت لسانى

وهكذا استشف أبو تمام لهذا الولى الجديد ، يتخذة ممدوحاً له ،
 وموضوعاً لشاعريته ، وسبباً من أسباب المجد الأدبي الذى يأنشه ، والحياة
 الرخية الراضية التى يرنو اليها . ولكن...

١٢

ولكن العهد لم يطل بمحمد بن عير في هذه الولاية ، فقد كانت أقصر من ولاية
 أمه التى اقتضتها القضاء ، بل هى نصفها ، إذ لم تعد الشهر الواحد . وأصبحت
 آمال أبى تمام مرة ثانية ، ولم تكدهم خمس الروح . ولعل محمد بن عير لم يجد
 وجهاً للإقامة في مصر بعد عزله عن ولايتها ، فعاد إلى موطنه في خراسان ،
 ومن ذلك — فيما نقدر — أننا لا نجد في ديوان أبى تمام ملحقاً له غير هذه
 الأبيات التى جاءت في سياق رثائه لآبيه ، وإن أقسم فيها أن لا يزال مشغولاً
 بملحه .

وهكذا انقضت هذه الأشهر الثلاثة التى كانت نفس أبى تمام فيها
 مسرحاً للشاعر المختلفة ، تتقلب عليها وتعبث بها ، على النحو الذى
 رأينا ، فهى دائمة الاضطراب بين اليأس والرجاء ، والانقباض والانبساط ،
 والأسى والسرور ، لا تكاد تلم بها جالة حتى تغلبها عليها تقيضتها ، ولا تكاد
 تحس بأنها أخذت تفر على أمر أو تستشعر الروح فيه والسكينة ، حتى تزجج
 عنه . فكأنما كانت — في حقيقة أمرها — صورة من هذه الحالة القلقة المضطربة
 التى كانت تسود مصر إذ ذاك .

ولاريب أن هذه الحالة التى نستطيع أن نتصورها تصويراً مقارباً فيما سرد
 الكندى من أحداثها وملابسها ، لم يقف أثرها عند هذا الاضطراب الذى

يتخذ لوناً سياسياً وصدرة من المحصومات والمنازعات بين الأحزاب المختلفة، ثم ما كان يترتب على ذلك من صعوبة الحياة واضطراب أسباب العيش، مما كان مثار شكوى عامة الناس، كما لم يقف أثرها عند سوء الحالة المالية من حيث جمع الخراج وتأديته، وهو ما كانت تشكوه الدولة؛ وإنما كان لها أثرها فوق ذلك كله في نفوس الناس واختلاتهم وأساليب معاملتهم، إذ أفسدتها أعما افساد، فقد ضربت على كثير من خلال الخير وشمائل الرجولة وأسباب الثقة فأضعفت من شأنها، كما أشاعت بين الناس روح الأثرة، فتحكم تصرفاتهم وترجع علاقتهم. وإنه ليبدو لنا أن هذا الفساد الخلقي كان مسؤولاً إلى حد بعيد عن تلك المحنة التي تعرض لها عمير بن الوليد وانتهت بموته، وأصيب بها ابنه محمد من بعده، فانتهت بعزله، وأصيب بها صاحبنا أبو تمام بطبيعة صلته بعمير وابنه، وتعرضت بها نفسه وآماله لذلك المد والجزر يتعاقبان عليها تعاقباً لا أناة فيه ولا ترفق. وقد كان ذلك كله — فيما نرى — مظهرأ من مظاهر ذلك الفساد الاجتماعي والخلقي الذي امتحنت مصر به في تلك الفترة.

ولعلنا نستطيع أن نبين هذا في وضوح إذا نحن نظرنا في ولاية عمير وابنه محمد نظرة شاملة قدر ما يتيح لنا المادة التاريخية التي بين أيدينا، ثم مبدئنا النظر نعرف ما وراء الأحداث من بواعث.

لقد كانت ولاية عمير بن الوليد على مصر عقب ولاية عيسى بن يزيد الجلودى الذى كان والياً عليها منذ سنة ٢١٣، ثم عزل عنها، وجاء عمير خلفاً له، لعله يحقق ما أخفق فيه سلفه من قمع الفتنة.

والجلودى هذا كان أحد قراد الدين تتردد أسيماهم كثيراً في أخبار تلك الفتن التى نشبت في كثير من أرجاء البلاد الإسلامية، في أوائل القرن الثالث للهجرة. وقد كان أول أمره — فيما نعرف — رجلاً من رجال الخليفة الأمين، ولكنه كان إذ ذاك شخصاً ضئيل الخطر مقهور القدر،

لم يتح له بعد أن يظهر . حتى إذا انتهت فتنة الخلافة ، وانتصر جانب المأمون وأفضى الأمر إليه ، سارع بالانضمام إليه ، ثم لم يلبث أن أتيح له في هذا الوضع الجديد الذي اتخذته فرصة المشاركة في العمل لتوطيد دعائم هذه الدولة الجديدة ، بالمشاركة في قمع فتنة من أخطر الفتن التي تعرضت لها الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وهي الثورة التي أوقدها الطالبيون ، وقادها أبو السرايا ابن منصور الشيباني .

وقد أبى الجلودى في حرب أبي السرايا بلاءاً حسناً ، واستطاع أن يقضى على هذه الفتنة سنة ٢٠٠ (١) . واستطاع بذلك أن يظفر بتقدير الحسن بن مهمل وأعجابه بمواجهته الحربية . فما إن عاد المأمون من خراسان إلى العراق حتى كان الجلودى من الشخصيات التي نالت ثقته وظهرت بتقديره . وقد رأى — بالرغم من اتصاله بالأمين — أنه يستطيع الاعتماد عليه فيما يضطرب به الجو حوله ، فكان يكل إليه قمع هذه الفتنة وذلك ، وكان مما أسنده إليه أمر محاربة الزط سنة ٢٠٥ (٢) ، وكان أمرهم مبعث قلق للدولة . كما جعله والياً على مصر ، سنة ٢١٣ ، رجاء أن يوفق في القضاء على تلك الفتن الناشئة بها ، كما أشرنا إلى ذلك قبل .

ذلك هو عيسى بن يزيد الجلودى ، سلف عمير بن الوليد في ولاية مصر : قائد عسكري شديد البأس ارتفعت به مواهبه العسكرية في هذه الفترة المضطربة بالفتن . وقد بزغ نجمه بعد أن تحول إلى معسكر المأمون ، وعرف بقدرته على اتخاذ الثورات وحسن تدبيره في القضاء على الفتن ، ومن أجل ذلك اختير لولاية مصر . ولكن ممر كانت ميداناً جديداً بالقياس إليه ، وكانت عناصر الفتنة فيها مختلفة عما كان يعهده في الشرق ، فلم يتح له فيها من النجاح ما كان مقدراً عند توليته . وقد عرفت الدولة ذلك فعزلته ، وولت عمير بن الوليد مكانه فاعتزل كارهاً بطبيعة الحال .

(١) انظر - مثلاً - تاريخ الأمم والملوك للطبري ، ١٠ : ٢٣١ - ٢٣٥ .

(٢) انظر - مثلاً - تاريخ الأمم والملوك للطبري ، ١٠ : ٢٥٧ .

وكان من الطبيعي أن يترك ذلك العزل في نفس الجلودى قدراً من المرارة ، ثم لم تلبث هذه المرارة أن تحولت إلى نوع من الضغينة يضغطها على خنقه عمير بن الوليد ، ثم لم تلبث هذه الضغينة أن اتخذت سبيلها إلى الخارج . لقد كان الجلودى - كما رأينا في تاريخه - رجلاً عملياً ، لا يقف شيء دون غايته ، والغاية عنده تبرز الواسطة ، وغايته هي غاية أمثاله في ذلك الوقت : الامارة أو الولاية . فلا جرم أخذت هذه الضغينة سبيلها إلى الكيد له ومحاولة الابتاع به ، واسترداد الولاية التي سابه إياها . ومن أجل هذه الغاية كان - فيما تقدر - يتناوّه في مصر بعد عزله ، لم يغادرها إلى العراق كما هو المتوقع أن يكون ، كأنما كان يتوقع أن يعود إليها علمها بعد قليل . وكذلك ظل في مكانه يتربص بخصمه الدوائر ، ويعد لنفسه السبيل إلى الولاية . وانه لجدير أن يجد في اضطراب الأمور في مصر ما يمكن له في بسر من أن يدبر مكيدته ، وينصب حياته ، ليدرك من وراء ذلك غايته . وهذا هو ذا عمير بن الوليد ما يكاد يستقر في مصر ، ويتبين موضعه حتى يأخذ في الإعداد لما جاء له ، وفي مواجهة الفتنة ، ثم لا يلبث أن يمضي في جروشه إلى أهل الحوف لمحاربتهم وكسر شوكتهم . وهذا نرى الجلودى يخرج وراءه ، ليكون في ظاهر الأمر مدداً له . وإذا كان المؤرخون لم يذكرنا قيم كان خروج الجلودى على هذه الصورة ، فانه على كل حال يشر رغبة الباحث المتابع للأحداث المتطلع إلى ما وراءها . وان مطلق هذه الأحداث ليكاد ينتهي إلى اتهام الجلودى بأن خروجه هذا كان - على الأقل - جزءاً من خطة مدبرة

ولعل أبا تمام كان يحس هذه الريبة ، وكان يعينها حين يوجه القول في إحدى قصائمه إلى بعض أصحاب عمير ، يرميهم بأنهم خذلوه وتخاروا عنه حين وقع في ذلك الكمين الذي دبر له ، بعد أن تم له النصر . وذلك إذ يقول :

أقركموه للمسيبوف وللقنصا بالتقاع والصمد - غمان يمتاحمان
أن تخذلوه فقد حماء مثقف للذن ومصقول الغرار يمانى

تلك - فيما نحسب - حقيقة الأمر في مقتل عمير بن الوليد ، وذلك عندنا مظهر من مظاهر ذلك الفساد الخلقى الذي اشرنا إليه .

ولما قضى الأمر وقتل عمر بن الوليد على تلك الصورة ، انتشأ أمل
الجلودى فى استعادة ولاية مصر ، ورآها على مد يده ، فقد مهد له الموت
سبيله إليها ، لولا أن هنالك شيئاً يعترض بينه وبينها ، ولكنه شيء هين أيسر
له كبير خطر على كل حال . فما عسى أن يبلغ فى ذلك شبيعة عمر ؟

وقد رأينا من قبل كيف كان أصحاب عمر وشيعته بودون لو أسندت
الولاية بعده إلى ابنه ، محمد بن عمر . وكأنما كانوا يحسون ما يضطرب
فى الجو فى هذه المسألة ، فجهدوا - فيما يظهر - ألا تم للجلودى هذه الولاية
التي كان يسعى إليها ويدبر لها ، فإنها حقيقة إن تمت له أن ترزأهم . وربما
كان أبو تمام يعنى شيئاً من ذلك ، أو يعبر عما يتردد من هذا القبيل فى خاطره
إذ يقول فى رثاء عمر :

رأيت مؤمليك عدت عليهم عواد أصعدتهم فى كؤود
وأضحت عند غيرك فى هبوط حظوظ كن عندك فى صعود

وكذلك عصى أصحاب عمر سعيهم - فيما نفترض - إلى أن تكون ولاية
مصر لمحمد بن عمر ، حتى تمت له كما قلنا . وجدير بذلك أن يكون عاملاً
جديداً فى حق الجلودى عليهم . ولكن هذه الولاية التي كدرت - بعض
الشيء - صفوه ، لم تظل كما قدمنا أكثر من شهر ، كان الجلودى - فيما
نحسب - يكدر فى أثنائها ويكيد ويجمع إليه أمره ، ويصطنع ما يعرف من
الوسائل ، ليحصر هذه الولاية عن غريمه ويظهر بها لنفسه ، حتى تم له الأمر
وانتهى التدبير إلى غايته المرجوة لديه ، فاذا بالبريد يعمل إليه كتاب توليته
موجهاً إليه من دار الخلافة ، فيلقاه ثم لا يلبث أن يظهره . وكان ذلك
أسلوباً فى العزل متبعاً فى بعض الظروف الخاصة ، فلا يرى محمد إلا أن
يخل مكانه ، ليقوم فيه الجلودى . وقد تم له الأمر على الوجه الذى كان
يرجوه ويدبر له ، وانطوى أصحاب عمر على أنفسهم يكتفون الحسرة والوجعة

هذه هي صورة الأمر في هذه الفترة : محادثة ومكابدة بين الجلودى وشيعة عمر وابنه محمد ، فإذا ظفر الجلودى وأصبح له أمر مصر ، فقد انطوت نفوسهم على الخيظ والرغبة في التشفى ، فوق ما يضررونه من بغض وحقد . ولا جرم كان أبو تمام من أشدهم حقداً عليه ، واضطغاثاً له ، وحرصاً على شفاء صدره منه حين تناح له الفرصة ، فيسلك عليه شعره .

ولم تلبث الأيام أن أتاحت لأبي تمام هذه الفرصة ، وعرضت له عرض الجلودى ، يتناوله كما شاء ، ذلك أنه لم تخض على ولاية الجلودى هذه الثانية أيام حتى واجهته هذه الفن التي كانت ما تزال سائدة في مصر ، وثار أهل الحوف . فتجهز لهم وسار اليهم ، فلقبهم بمنية مطر ، فكانت بينهم وقعة ، ثم انصرف أهل الحوف على حامية ، ومضى الجلودى حتى نزل النورية ، فخذلق على نفسه وجيشه خندقاً ، وأقام أياماً ، فأتاه أهل الحوف فصبحوه فهاله أمرهم ، فلما أيسى تحمل مهزماً إلى القسطنطينية ، وأحرق ما ثقل عليه من رحله ، وخذلق على القسطنطينية ، وذلك يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب « (١) » ، كما يقول الكندي في وصف هذه الموقعة .

رجع الجلودى إذن من حملته التي شنها على أهل الحوف مهزوماً فزعاً مفرق النفس ، وقد جعل الفرع يستاقه سوقاً غنياً . فهو مسرع إلى القسطنطينية متخذاً من أمثاله ، متخلياً عن أصحابه ، يريد أن يعتصم به ويمتنع فيه من هؤلاء الذين اذا قرره الهزيمة ، وهو أشد اعتداداً بالنفس وثقة بالنصر ، ولأول مرة رعباً وفرقاً ، فهو يخشى أن يتعقبوه حتى داره ، ويوقعوا به .

ولارب أن هذه العودة في هذه الصورة التي تحمل مظاهر الانكسار والذريع ، وتحيط بها معاني الخيبة المنكرة ، قد أثارت عليه في القسطنطينية السخرية تنتاشه من كل جانب ، وجعلته هدفاً للعبث في ألوانه المختلفة ، ومكنت لأبي تمام وأصحابه من خصم الجلودى — وقد كانوا يتربصون به أن يحيق به مكره

(١) الولاة والقضاة ، ص ١٨٧ .

- أن يظهروا الشهادة به ، ويفتروا في التشهير بأمره. وكذلك جاءت هذه القصيدة التي احتفظ بها ديوان أبي تمام في هجاء الجلودى ، وهى قوله :

صحبى قفوا ! ملينكم صحباً فاقضوا بنا من ربمها نجباً

وتلك هى ملابسات هذه القصيدة التي تبدو معلقة في الديوان ، يحيط بها الخلاء من كل جانب . وانما هذه - فيما نرى - قصة أبي تمام فيها . وكان لابد لنا من تلمس هذه القصة وتبين اجزائها وحققاتها ، وتفهم ما يمكن وراءها للاستطیع أن نعرف الحقيقة في هجاء أبي تمام ليعسى بن يزيد الجلودى ونضع بذلك هذه القصيدة في موضعها ، ونصلها بملابساتها . ونتمثل الجو الذى أوحى لأبي تمام بموضوعها وصورها ومعانيها . وأبو تمام ليس من شعراء أهل الحرف فيكون هجاءه للجلودى عصبية لهم ، وتعبيراً عنهم ، وانما هو شاعر طارىء على مصر ، ليس له كبير شأن يمثل هذه الخصومة . فابعد إذن من أن تتمثل هذه الملابس على وجهها لتقدر هذه القصيدة ، وتفهم الشاعر التي ساقها وترقرق في ثناياها .

والقصيدة في حملها تصوير لهذه الموقعة ، ولكنه تصوير مشبع بروح الشهادة ، متجه - بطبيعة الحال - إلى السخرية بالجلودى والتشهير به . إلى جانب الاشارة بالثائرين من أهل الحرف ، ورائل فضيلاتهم عنده لا تعدوا أنهم هزموا الجلودى ، فأناحوا له بذلك أن يجد في نفسه روح الشهادة ، ومكثوا له من أن يثار لنفسه هجاءه . فكان ذلك كافياً عنده ليشير اعجابه بهم ، فهو يقتضى حتى ذلك الاعجاب بأن يشيد بهم ، وينوه بمشاهد بطولتهم في تلك المعركة ، ثم يمضى إلى تصوير الجلودى وتمثيل ما أصابه ، حين هاله ما رأى من خيل هؤلاء الأبطال ، تملأ الجور عليه ، فغلا الرعب أحشائه ، ثم لم يعصمه منهم الا الليل ، وقد لفه بظلامه ، فسرى بلف البيد لئلاً ، وترك وراءه جنده جزوا للقناء .

قتلى ، وأمرى في الحديسد معاً يتوقسون القتل والصلبا

وهكذا استطاع أبو تمام بهذه القصيدة أن يثار لضمه ولجاعة عمير بن الوليد من هذا الوان الذي كان يحمل عندهم شيئاً غير قليل من تبعة ما انتهى اليه صاحبهم ، وما انتهت اليه آمالهم فيه ، والذي كان يثير في نفوسهم مشاعر السخط والحقد والضغينة .

١٣

هكذا كانت حياة أبي تمام في مصر ، قدر ما يمكن أن تؤدي إلينا هذه البقية الباقية من شعره فيها . ومن هذه الصبورة التي أتبع لنا أن نرسم على ذلك النحو خطوطها ، ونمثل فيها طائفة من ملامح حياته ونواحي نشاطه ، عن تلك البقايا القليلة من شعره ، يتبين لنا أنه شقى حقاً بمقامه في مصر ، قدر ما كان مقدمه اليها مقروناً بالأمل المبسوط والرجاء التاخر المتفجع . فلم تكن حياته فيها - كما رأينا - إلا سلسلة متصلة الخنقات من الطلب والمبالغة فيه والاحراج عليه : ثم الخيبة المريرة والفشل المؤلم . فقد انتهت صلته بعياض ابن طبة - وهو أول من تفتحت عليه آماله وتبرجت به أحلامه - تلك النهاية التي رأيناها ، فإذا ما أتبع له رجل كعمير بن الوليد أو ابنه محمد ، ممن كان يتوسم فيهم تحقيق شيء من مطامحه الأدبية ، وحاجاته المادية والفنية لم تمهله الأقدار ، فإذا بها تتصدى له ، وتسلية هذه التعلية ، وتركه عزوئاً يملأ قلبه الشعور بالشقاء والتعاسة .

وهذا الشقاء الذي ألح عليه في مصر ذلك الاحراج ، وأرهق شاعره أشد الارهاق ، يفسر لنا تلك الطائفة الشاكية المتبرمة من القصائد التي يصف بها حياته في مصر ، ويصدر فيها عن نفس محزونة ضائعة . وقد بقي لنا من هذه القصائد - قدر ما أتبع لنا أن نقتبعه في شعره الذي بين أيدينا خمس ، أربع منها في النسخة المعهودة التي بين أيدينا ، والخامسة انفردت بها النسخة التي نشر الجزء الأول منها ، وشرحه ، الدكتور ملحم إبراهيم الأسرد ، ومطلعها :

أطلال بنت العاصمى عنيح غناؤك محظور على الدنف الشجي (١)

وقد ذكر فيها مصر مما يدل على أنها من قصائده المصريات ، وذلك
إذ يقول :

وطال قطوني أرض مصر الحاجة يقال لها : اتبع بهاى واسع

وأما الأربع الأخرى فلها ثلاث تحمل بين أبياتها - مثل هذه القصيدة -
ما يدل على أنها مما قاله في مصر ، وهي قوله :

أصب بحما كأسها مقتل العذل تكن عوضاً إن غنوك عن الذبل (٢)

كما سرى ذلك فيما نعرض بعد من ألوان مشاعره التي تعبر عنها هذه
القصيدة .

والثانية هي قوله ، وقد جاءت في الديوان في باب الفخر :

متى ترعى لقلبك أو تتيب وخدناه الكتابة والنجيب (٣)

وقد قال فيها ، مما يحمل تلك الدلالة :

فأصبح حيث لا نفع لصاد ولا نشيب يلوذ به حريب
بمصر ، وأى مأربة بمصر وقد شبت أكابرهما شعوب

وأما الثالثة فهي قوله ، وقد جاءت في ذلك الباب أيضاً :

تصدت وحبل البين مستحصل شرر وقد مهل التوديع ما أوعر الحجر (٤)

وقال فيها ، يذكر مصر وخطوب حياة فيها :

وصارعت عن مصر رجائي ، ولم يكن ليصرع عزى غير ما صرعت مصر

(١) بدر الحام في شرح ديوان أبي تمام ، ١ : ١٧٢ ، ط بيروت ١٩٢٨ م

(٢) ديوان أبي تمام ، ص ٢٤٨ .

(٣) ديوان أبي تمام ، ص ٣٩٨ .

(٤) ديوان أبي تمام ، ص ٤١٠ .

فأما القصيدة الرابعة منها ، فإنما نعتبرها بهذا الاعتبار ، اعتماداً على قول
البيدعي في تقديمه لها : «وقال أبو تمام ، وهو بمصر ، بصف قومه ويفتخر
بهم ، ويلزم الذم ويرثي الشعر» (١) ، ولذا لم يكن لدينا ما يعترض هذه
الدعوى في شأن هذه القصيدة ، وهي :

الا صنع البين الذي هو صانع فإن تلك مجزاعاً فما البين جازع

على أنه يحسن بنا ألا نغفل القول هنا أننا في النص على هذه القصائد
بالخمسة في هذا الصدد ، إنما نقف عند حدود ما يدل عليه دليل صريح
أنه قاته في مصر . ولعل في الديوان غير هذه القصائد مما يجري مجراها
غير أننا لم نجد هذا الدليل . وهي على كل حال كافية في تصوير هذه الناحية
من شاعر أبي تمام في هذه الفترة .

وهذه المجموعة من القصائد تعتبر طائفة من الشعر الصادق الذي تظهر
فيه عواطف أبي تمام ظهوراً قوياً ، والذي يعجب قارئه إعجاباً غير قليل
بصدقه ، ويتساوق الألفاظ والمعاني والصور فيه تساوقاً محكماً . ونستطيع
أن نقسم في هذا الشعر ثلاثة ألوان من المعاني ، وهي : الذكري والشكوى
والفخر . وهي ألوان - على اختلاف ما بينها - منسجم بعضها مع بعض في
التعبير عن نوازعه في مثل هذه الحالة التي كان يعانيها ، وأبواب من القول
يفضي بعضها إلى بعض في التفريغ عن تلك الأزمات النفسية التي كان يكابدوها

لقد جاء أبو تمام إلى مصر والأمل مملأ قلبه أن يجد في اكتافها رغد الحياة
ورفاة العيش والمجد الأدبي ، ولكن هذه الآمال لم تكن تفتح ونستقبل
شيئاً من النسمات الحلوة ، حتى جعلت تنقاص وتنقبض وينطوي بعضها
على بعض ، وهماوذا ينتهي به المطاف إلى ذلك الشقاء يتجرعه تجرعاً ،
وقد جعل أحاسيسه به يرهف ويتضاعف كلما تقدمت به الأيام ، كما أخذت

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، ص ١٩٢ ، وانظر الديوان ، ص ٤٠٢ .

تختلط في نفسه مشاعر الحيرة والضميم والقهر بشعور الشقاء المادى الذى أطبق عليه ضيقاً وشظفناً وسوء حال .

وكلما أعجزت الحيلة أبا تمام لقاء ذلك الشقاء الذى يبدو أنه سد عليه كل مسلك ، أخذت مشاعره تتخذ لها مسارب تخلص فيها من مواجهة هذا الواقع البغيض المولم ، فهي تعود به مرة إلى موطنه الأول ، تطوف به على معاهد حياته ومسارح صباه فيه ، وتعرض عليه من ذلك صوراً تضره ببرد الطمانينة ، وتبعث في نفسه شيئاً من المتعة ، ثم تزيده أهله الذين فارقههم وكاد النسيان يضرب بينه وبينهم ، حتى رده إليهم شقاؤه ، يبكى بين أيديهم ، ويعاتبهم حيناً ويرجع باللائمة على نفسه حيناً آخر ، وكأنما هو يستشعر بذلك نوعاً من الهدوء والسهولة ، ثم تمضي به مرة أخرى إلى تلك العوالم التاريخية التى كونها لنفسه عن قومه واجتهاده من الإيمانية ، فهو يدبرها في خياله ، ويمررها أمام نفسه ، ويحفظها بمشاعره ، حتى كأنما هو يعيش فيها . وقد ترك حاضره هذا الذى ضرب عليه الحوان أرمكاد ، وفرض عليه صروفاً من الضعة ، إلى تلك العوالم التاريخية التى تغبض بالمآثر والمفاخر ، وتزخر بآيات العزة والمجد والكرامة ، تبعث في نفسه النشوة ، وتطرد عنه ما جعل يتدسس في نفسه من أحاسيس الضعة والحوان .

وهكذا نرى أن الذكرى والفخر بابان من الأبواب التى تلجأ إليها النفس الانسانية للتغنى وتجنب الأمر الواقع . وكذلك الأمر فى الشكوى ، إذ ليست فى حقيقتها إلا لوناً من ألوان التفتيس عن النفس ، ووسيلة من وسائل تفريج همها ، إذ تأخذ الآلام صورة كلامية ، فيخفف عن النفس عبوها . وبلذتك نرى أن الأمر فى هذه الألوان الثلاثة قريب بعضه من بعض ، كما قررنا ، متصل أوثق الصلة بهذه الحالة التى كان أبو تمام يعانىها فى مصر .

وإذا كانت طبيعة أبى تمام الشاعرية من الأعوان عليه فى هذه الحقبة ، بما شحلت من حسه وأرهفت من مشاعره ، مما جعل يضاعف — بطبيعة الحال — من آلامه ويبالغ فى التهويل عليه ، فإن شاعريته أخذت تفتن

في هذه المسارب التي ذكرناها ، وتذهب فيها المذاهب المختلفة ، مما بالغ ولاريب من أثرها في الترويح عنه .

لم تعد ذكرياته عن موطنه الأول ومسارح صباه مجرد ذكريات ، وإنما هي قطع من الفن يتغنى بها ، ويشعر من خلالها بالرضا والروح ، إلى جانب ما في هذه الذكرى نفسها من متعة نفسية ، وتخلص من الحمة التي يضطرب في عقابيلها .

ها هو ذا يذكر دمشق والبقاعين والجولان ، هذه الاسماء التي تثير فيه بنفسها أشد الحب وأقوى الحنين ، في مثل هذه الأبيات :

سقى الرايح الغادى المهجر بلدة . سقنى انفاس الصباية والحبلى

فجاد دمشق كلهما ، جرد أهله فلم يبق في أرض البقاعين بقعة بنفسى أرض الشام ، لا أعين الجوى ، ولم أر مثلى مستهائماً بمثلكم عدتني عنكم - مكرها - غربة النوى

بأنفسهم عند الكربة والبذل وجاد قري الجولان بالمسبل المظلل ولا أيسر الدهنا ، ولا أوسط الرمل ولا مثل قلبي فيه ما فيه لا يغلى لها وطر في أن تمر ولا تخل

وها هو ذا يذكر ، مرة أخرى ، بعض أهله الأقربين ، ولعله يعني هنا أمه ، فيلذ له أن يراها تحن إليه . وتتمنى عودته ، وأن يرى نفسه أمامها ضعيفاً سقيماً مهموماً مكروباً ، ليجلب إلى خياله مشهد العطف ، وليحضر في نفسه ضرورة من صور الحب والحنان ، ينسل بها ، ويظهر بمزاجها ، ويقضى بها حاجة قلبه وقد جف كل شيء حوله ، فيقول في نغمة حزينة أسيفة ملوِّها اللوعة والحسرة :

وكم علوبة من سبي عمرو لها من طيء أم حسان
لها حسب إذا انتسبت حبيب نجيبة معشر وأب نجيب
تمنى أن يعود لها حبيب منى شططاً ، وأين لها حبيب ؟

ولو بصرت به لرأت جريضاً بماء الدهر ، حليته الشحوب
كنصل السيف عرى من كماه وفلت من مضاربه الخطوب

وبانته ، أى التبايع تفيض به هذه الأبيات ، وأى صورة من صور
النفس المجزونة قد غلبها اللوعة واستخففتها الحسرة !

ثم ها هو ذا يذكر أيامه الأخيرة فى الشام ، حين كانت مصر تراوده
وتتخايل له ، فجعل هو يرأود نفسه فيها ، ويشاور أهله فى امضاء هذا السفر
إليها ، ثم يذكر طريقه نحوها ، ثم يثنى على نفسه وينظر فى عواقب أمره ،
أسياً متوجعاً متحسراً ، فيقول مثلاً :

عصيت شبا حزى لطاعة جيرة دعتنى إلى أن أفتح القفل بالقفل
وأبسط من وجهى الذى لو بذلته إلى الأرض من نعل لما نقبت نعل

.....

ولو أننى أعطيت بأسمى نصيبه اذن لأخذت الحزم من مأخذ سهل
وكان ورأى من صريمه طيماً ومن ووهب عن أمامى ما يسيل
فلم يك ما جرعت نفسى من الأسى ولم يك ما جرعت أهل من الشكل

ويقول مثلاً فى موضع آخر :

جمعت شعاع الرأى ثم وسسته يحزم له فى كل مظلمة فجر
وصارعت عن مصر رجائى ولم يكن ليصرع عزمى غير ما صرعت مصر
وطحطحت سداً سدأجوج دونه من الهم لم يفرغ على زبره قطر
بذعلبة أوفى بوائس نحضها فنى وافر الاخلاق ليس له وفر
فكم مهمه قفر تعسفت منه على منها والبر من آذا بحر

هذه أبيات لا تكاد نجد القدرة على التعليق عليها بكلمة ، حتى لا نفقد
الحو الذى خلقته فى أنفسنا بصورة طبيعية لا تكلف فيها . وهذا شعر يمثل
حيوية ، صادر من أعماق الشاعر . وهو يصور لنا مبلغ ما كان يحالغ نفسه
فى هذه الفترة من حنين وتحسر : حنين إلى موطنه وتحسر على مفارقتها .

وقد أثارتهما فيه هذه الحياة البائسة العسة التي منى بها ، والتي استطاع أن يصورها . كما هي في نفسه - تصويراً رائعاً في هذه القصائد . ولا نملك هنا إلا أن نقدم في بيان ذلك أمثلة فحسب ، نستطيع أن نلحظ من خلالها إلى هذه النفس المولعة التي قست عليها الحياة ، وأرغفها شعور الطبيعة ، فهي ساخطة صارخة حياً ، وهي متصبرة رابطة ، مستعانة للقضاء ، مؤمنة بتصاريف القدر ، حياً ثانياً ، وهي نظرة في نواميس الحياة مستخلصة منها الحكمة مصطعقة الهدوء والروية . تحاول أن تجدد في ذلك معتصمها يعصمها من شعور العناسة والشفاء الذي يرهقها ، حياً ثالثاً .

فها هو ذا يقول ، في القصيدة اللامية ، مصوراً أمره تصويراً شاكياً :

تواني وشيك النجح عنه ، ووكالت	به عزمات أوقفته على رجل
وبمنعه من أن يبت زماعه	على عجل أن انقضاء على رسل
قضى الدهر مني نجي يوم قتله	هواي بارتقال الغريزة النمل
لقد طلعت في وجه مصر بوجهه	بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب منه	خيمة بين المطية والمرحل
وسورة علم لم تسدد فأصبحت	وما يتجاري أنها سورة الجهل
نأيت ، فلا ملاحويت ، ولم أقم	فأمتنع إذ فجعت بالمال والأهل
بخلت على عرضي بما فيه صوته	رجاء اجتناء الجرد من شجر البخل

وكذلك نقف الآن عند هذه الأبيات ، لا لنقول كلمة تعاليق ، فقد يبدو أن ذلك لا يعدو أن يكون تهاة لا قيمة لها إزاء هذه الروعة . ولكننا نقف لنتملى ذلك الجوا الشعري ، وتلك المشاعر التي استطاع أبو تمام أن يغمر بها قلوبنا وعواسنا ، ويفيضها علينا إفاضة بشركتها معه ، بل يخرج بها بين مشاعرنا ومشاعره ، وبين أشخاصنا وشخصه .

ثم ها هو ذا يقول مرة أخرى ، متصبراً متجلداً ، يحاول أن يربط على قلبه ويمسك نفسه المتفرعة ، إذ يذكر القضاء ويصطنع الحكمة :

ومن قامر الأيام عن ثمراتها فأحج به أن تنجلي ولهما القمر
فإن كان ذنبى أن أحسن مطلبي أساء فقى سوء القضاء لى العذر
قضاء الذى مازال فى يده الغنى ففى غرب آمالى وفى يده الفقر
رضيت، وهل أراضى إذا كان مسخلى من الأمر ما فيه رضا من له الأمر
فأشجيت أياى بصبر حلون لى عواقبه ، والصبر مثل اسمه صبر

كما يقول مثل ذلك أرضاً ، فى نعمة تغلب عليها الأناة ومراجعة النفس
عن جزعها وسوء احتمالها :

وطال قطوفى أرض مصر حاجة يقال لها : أقبح بهاتى وأسيج
أقاب فى أقطارها الطرف كى أرى -ولست براء ذاك- عصمة ملتجى
فقتضى بأسى . وأعلم أنى مقود بحبل المقادير مدمج
ونحن أناس نذخر الصبر للآسى ونحتاج لليوم العيوس المسيح

وبعد ، فها هو ذا أبو تمام فى تلك الأزمات النفسية التى أبلقت عليه
وأرهقته فى مصر . وقد عرفنا مأثها والظروف التى مكنت لها . كما رأينا
طائفة من المسائل النفسية التى سنكها فى التعبير عنها . ومحاولة التفتيس عن
نفسه فيها .

على أن أكثر ذلك نجده ملتجئاً بالفخر متصلاً به . وذلك - كما قلنا -
نوع من المهرب تنجأ اليه النفس حين تكدى ويغلبها على أمرها القنبل والخيبة
ولا نكاد نجد قصيدة من هذه القصائد التى ألغنا إليها إلا وقد لجأ فيها إلى ذلك
الأسلوب ، فأخذ يتعزى عن حظه التعيس وبأساء الحياة المحيطة
به بذكر مفاخر قومه والاشادة بهم . وإذا كان هذا الأسلوب واكثار إلى تمام
من اصطناعه فى ذلك الصدد يرجع إلى ما ذكرنا ، فإنه يرجع من ناحية أخرى
إلى ما تعرفنا اليه فى شخصية أبى تمام من اعتداد بنفسه وامتلاء بذاته . فلا جرم
أكثر من اصطناع الفخر ، إذ كان يستجيب إلى غروره من ناحية ، ويجد
فيه من ناحية أخرى حاجته إلى التعزى ومجانبة الواقع المؤلم الذى يحيط به .

وهكذا كان أبو تمام يطلق أبا مضر ويتحداه ، إلى أن أتبع له أن يغادرها . ولكنه لم يغادرها حتى كانت هذه الآلام قد انضجت شاعريته ، مما كان من العوامل التي أتاحت له أن يتبوأ ذلك المكان الرفيع في تاريخ الشعر العربي .

١٤

لا ريب أن أبا تمام جعل يفكر في الرحلة عن مصر والعودة إلى الشام ، منذ أخذت الأمور تتأزم في نفسه على النحو الذي رأينا . وإنما كان - فيما نقله - يتحين الفرصة المناسبة والظروف المهيئة . ولعله كان يعنى ذلك المعنى ، وهو يقول هذا البيت :

ويعتبه من أن يبت زمامه على عجل أن القضاء على رسل

فقد كان عنده أن الاقتدار هي التي تمسكه في مصر ، وتمنعه من أن ينطلق إلى وطنه الذي كان دائم التخاذل له . ولعله كان يعطل نفسه في خلال ذلك بصلاح الحال وانفراج الأمور . ولا تكاد نشك في أن أبا تمام كان يحمل في نفسه لمصر طاقة من الذكريات الحميلة المحببة ، وأنها كانت تومض أحيانا في خلال تلك الأزمات ، وحين كان يرى الحفر عن مصر ضرورة لازمة .

على أنه قبل أن يغادر أبو تمام مصر تهيأ لها حدث من الأحداث النادرة جعل نفسه تشرئب إليه وتتطالع نحوه . فقد جعل الناس في مصر يتسامعون بأن الخليفة المأمون مقبل عليهما ، وأنه قد أخذ سبيله إليها عقب أيام عيد الأضحى (سنة ٢١٦) ، لينظر بنفسه في أمر تلك الفتى المتصلة المتدجية التي تمزقها وتفسد أمرها .

وقد أحدث ذلك البأ آثاره المختلفة في نفوس الناس . ولم يمض غير قليل حتى وصل الخليفة إلى مصر ، ودخلها في شهر المحرم (سنة ٢١٧) . ولا ريب أن هذا الحدث الخطير كان له أثره البالغ في نفس أبي تمام ، وأنه

أجس في مقدم الخليفة فرصة لآماله المنقبضة تتفتح عليها وتتجدد بها - بل لعله رأى في ذلك نوعاً من جمالة الأقدار له. فجعلت شاعريته تشرف لذلك إما تشوف . ثم لم يلبث أن نظم قصيدة رجا أن يتقدم بها إلى الخليفة ، وإن نفسه لتتطلع إلى الغد المرجو ، وإلى المجد الأدبي المحقق الذي تتيحه له هذه الفرصة المانحة .

ومؤرخو أبي تمام يقولون إنه حاول قبل اتصاله بالمعتصم أن يتصل بالمأمون ، ولكن محاولته لم تنته إلى غايتها ، إذ لم يفلح فيها . ومعنى هذا أنه لم يتح له أن يجلس إليه أو يقوم بين يديه ، شأن الشعراء في اتصالهم بمدوحهم . ولم يذكر هؤلاء المؤرخون أين كانت هذه المحاولة التي يعنونها في هذا الخبر ، أي مصر كانت أم في العراق . وإذا كنا نعلم مبلغ عنايتهم بالفترة المصرية في حياة أبي تمام ، فأكبر الظن أن مصر لم تخطر لهم وهم يوردون هذا الخبر . على أنه لا يبعد عندنا أن أبا تمام ، وإن مدح المأمون في مصر ، لم يتح له هذا المدح أن يبلغ به ما كان يرجوه ، وأنه كان لظروف هذه الفترة أثرها في الحيلولة بينه وبين مجلسه .

ودبوان أبي تمام محتفظ لنا بقصيدتين نص في التقديم لهما على أنه قالهما في مدح المأمون (١) أما أولاهما فهي التي مطلعها :

كشفت الخطباء فأوقدى أو أخمدى لم تكمدى فظننت أن لم تكمدى (٢)

وأما الأخرى فهي قوله :

(١) وهناك قصيدة أخرى يرى بعض شراح أبي تمام أنها في المأمون ، بالرغم من أنها مقدمة في الديوان على أنها في المعتصم ، وأن الخليفة الممدوح بها قد وصف بأنه ثامن الخلفاء لاسابهم وهي :

رقت حواشي الدهر فهي تمزمر

وغدا الثرى في حلية يتكسر

(الديوان ص ١١٧)

ونيس هناك أي دليل يستدل به ذلك أنزم أنها في المأمون إلا ما جاء في ذلك أنقل مستأ إلى

غير معروف

(٢) الديوان ص ٨٤ .

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الإلام (١)

وقد أشرنا من قبل إلى ما يغلب على ظننا من أن القصيدة الأولى هي من حملة آثاره التي انتجها في مصر ، لهذه المناسبة . وأما القصيدة الأخرى فليست مصرية قطعاً . فقد قالها بعد مغادرته مصر . وعندنا أنه قالها وأراد أن يتقدم بها للمأمون ، عند عودته من بلاد الروم . ونحن نعلم أن المأمون غزا بلاد الروم قبل أن ينجى إلى مصر ، ثم غزاها مرة أخرى بعد مغادرته إيها . وقد قالها عند هذه العودة الثانية من غزوه ، وملاها بالوصف له والحديث عنه والاشادة به .

والذي يجعلنا على الذهاب إلى أن القصيدتين قيتا في وقتين متباعدين نسبياً ، أو مختلفين على الأقل ، هو الأسلوب العام أولاً . فهناك تفاوت ظاهر بعيد بينهما من حيث الروح الفنية والصياغة الشعرية يجعلنا أكثر ميلاً إلى وضعهما في وقتين متباعدين . ولكننا لن نقف عند هذه الظاهرة طويلاً ، فمرجع الأمر فيها إلى تذوق الناري .

ولكننا نرى في القصيدتين ظاهرة أخرى تفرق بينهما ، وهي خوار القصيدة الأولى من الكلام عن غزو المأمون بلاد الروم خواراً تاماً ، في حين يغمز القصيدة الثانية الحديث عن ذلك الغزو ، ووصف جيش المأمون والاشادة به ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه الظاهرة نسين مآزها ونتعرف تأويلها . ولا يمكن القول بأن مرجع الأمر في هذا الاختلاف الشديد والتباين البعيد للصيغة ، أو رغبة الشاعر في أن يفتن ويتخذ في كل قصيدة سلكاً مختلفاً وفقاً على حده . فمثل هذا الكلام لا قيمة له من ناحية الفهم الدقيق للحالات الشعرية . وعندنا أن تأويل ذلك التخالف الشديد بين القصيدتين لا يمكن

فهو على وجهه إلا أن يكون هناك اختلاف تام بين ظروف كل منهما ،
 لا في حالة الشاعر الذاتية ، بل في الحالات الخارجية أيضاً . وليس في
 اختلاف الزمان فحسب ، بل ان اختلاف المكان الذي صدرت عنه هذه
 القصيدة وتلك ، واختلاف الجو المائد هنا وهناك ، هو ما يجب أن يوضع
 في المكان الأول في تأويل اختلاف القصيدتين على ذلك النحو . والأمر
 بعد ذلك واضح مسير للفرض الذي افترضناه منسق معه .

ذلك أن أبا تمام كان في قصيدته الأولى في مصر . ومصر بعيدة عن بلاد
 الروم ، من ناحية . لا تقع في طريقها ، ولا تتصل بها اتصال الشام والجزيرة
 وما إليها . ثم هي ، من ناحية أخرى ، مشغولة أشد المشغلة بنفسها ، وهذه
 الثمن المتصلة التي تغمرها . ومن ذلك لم يكن غزو الدولة لبلاد الروم يظفر
 بكيز اختتامها ، أو يحتل حديثه مكاناً بارزاً فيها . فكان من الطبيعي على ذلك
 أن يكون أبو تمام خالي الذهن تقريباً من هذه الناحية ، أو هي — على الأقل —
 لم تبلغ في تصورده المبلغ الذي يثير شاعريته ، فجاءت قصيدته هذه خالية تماماً
 منها ، في الوقت الذي عني فيه بأن يذهبها الإشارة إلى هذه الأحداث التي
 كانت مصر مضطربة بها ، وإلى بلاء الخليفة وفضله فيها ، إذ « انتاش مصر
 من الثنيا والتي يتجاوز وتعطف وتغمد » .

وأما القصيدة الثانية فقد صدرت غير هذا المصدر ، وتأثرت بملايسات
 مختلفة ، فقد كان الشاعر في بلاد الشام ، أو في شمالها ، حين قال هذه القصيدة .
 وهي قريبة من بلاد الروم ، بل هي متصلة بها مباشرة لها ، يمر بها الغزاة —
 أو قريباً منها — في ذهابهم إلى الغزو وأوبتهم منه ، وتتجمع فيها جموع الجند
 في ثغورها وعواصمها . فلا جرم كانت أصداء الغزو قوية فيها ، كثيرة
 المردد بين جناتها . فكان من الطبيعي أن تتجاوب نفس أبي تمام بهذه الأصداء ،
 وأن تغمر خياله صور الغزو والغزاة ، فتجيء قصيدته التي يقولها في مدح
 المأمون ، وهو عائد من هذا الغزو ، متأثرة بذلك كله ، مثثة له .

وبذلك كان هذا الاختلاف بين القصيدتين . وهو اختلاف كان لابد منه .

وظاهرة ثالثة تفضى بنا إلى مثل هذا التأويل في تفسير هذا الاختلاف ،
وهي الذمة الشيعية التي أشيع في القصيدة الأولى ، إذ يتغنى بشيعيته ويعتدها
من مفاخره ، ويتخذها وسيلة له يتقرب بها إلى الخليفة ، إذ يقول :

ووسيلتي فيها إليك طسريفة شام يدين بحب آل محمد
نيطت قلائد ظفره بحجير متمشوق متكوف متبند (١)
حتى لقد ظن الغواة وباطل أني نجم في روح السيد

كان الخليفة من صميم الشيعة ، فهو يتخذ من شيعته وسيلة يتوصل بها
إليه . أو كأن الأمر عنده لا يزال كما كان عليه ، حين كانت الدولة ملونة
باللون الشيعي ، متجهة إلى تحقيق الأهداف الشيعية . حين جعل الخليفة
ولي عهده علي بن موسى الرضا ، رأس الامامية في عصره ، وكان شيئاً
من ذلك لم يتغير . فاعنى أن يكون تأويل هذا الأمر ؟

لاريب أن أبا تمام كان يدين بالشيعة منذ أول عهده بمصر . وبين أئدينا
الدليل على هذه الدعوى في قصيدته :

أظبية حيث استنت الكتب العفر رويدك لا يغتالك الاوم والزجر (٢)

وقد قاما في أوائل عهده في مصر ، وهو في سن السابعة عشرة ، كما
سبقت الإشارة إلى ذلك . وهي لا تدع لدينا شكاً في أن أبا تمام كان متشيعاً
موثقاً بشيعيته أشد الايمان ، متحمساً لها أشد التحمس ، ممتلئ النفس بعقائدها
ومأثوراتها ، على النحو الذي نراه فيما يردده في هذه القصيدة من الآراء
والمشاهد والأخبار التي يروونها عن علي :

(١) يقول التبريزي في شرحه على أبي تمام : « هو صف نفسه بالمتكوف بحيث إلى التأويل
بأنه شيعي ، لأن المتكوف أظهر التشيع في أول أمره . وأهل الكوفة ينسبون إلى أنهم شيعة »

(٢) الديوان من ١٢٠ .

بأحد وبدر ، حين ماج برجله وفرسانه أحد وماج بهم بدر
ويوم حين والتضير وخسير وبالخندق الثاوي بعقوته عمرو
نما للمنايا الحمر حتى تكشفت واسيافه بحر وأرماحه حمر
ويوم الغدير استوضح الحق أهله بفيحاء لاقها حجاب ولا سر

إلى غير ذلك من الصور الشائعة المستنبضة في أحاديث الشيعة ، يؤديها في عبارة محكمة رصينة لا يتلجلج فيها ولا يتكلف ولا يتوقف ولا يسف . حتى لتحبب أسلوبه أكبر من سته فيها . ولعل ذلك يدلنا دلالة قوية على أنه كان قد انصل منذ دخل مصر ببيئات الشيعة وبجالتهم انصلا وثيقاً ، استطاع أن يهبه هذه المعرفة الشيعية الواسعة ، ويغمر قلبه بذلك الايمان القوي بالتشيع وتلك الحفاصة الشديدة له . وقد كان التشيع شائعاً في مصر ، غالباً على علمائها وكثير من رجال الأدب فيها .

ولكن شيعة أبي تمام ، مهما بلغ من ايمانه بها وتحمسه لها ، لا تقصر لنا تفسيراً سائغاً ذلك الملك الغريب في مدح الخليفة ، إذ يواجهه بشيعته معتزلاً بها ، ويتخذ منها شقيماً يتقدم به اليه ، فقد كانت له عن ذلك منادح كثيرة ، الا أن يكون الرجل غافلاً حقاً عما جد في سيامة الدولة منذ غاد المأمون إلى بغداد ، وأخذ يتخلص شيئاً فشيئاً من آثار العهد الخراساني . وبهذه الغفلة توجه إلى المأمون لابسا لبوس الشيعة حاملاً شعارها ، معتقداً انه قد اتخذ لديه خير الوسائل وأوثق الأسباب .

ولكن كيف يغفل أبو تمام هذه الغفلة ؟

إنما يصح ذلك عندنا على اعتبار أن أبا تمام كان في مصر وقت انشاء هذه القصيدة ، فكل هذه الغفلة مفهومة فيها في تلك الفترة ، إذا قدرنا الاعتبارات التي كانت تكتنفها . فهي — أول شيء — بعيدة عن العراق مركز الدولة وعن الاتصال المباشر به ، ثم هي كانت في شغل شاغل بكل ذلك الذي كانت تضطرب به ، مما عرفناه من قبل طرفاً منه ، ومما هو جدير أن يصرقها عن

تتبع تلك التطورات والتغيرات التي تتعرض لها سياسة الدولة . وأخرى ترجع إلى غلبة المذهب الشيعي عليها . وقد كانت أحست الغبطة حتى نعى إليها أن الزمان قد انتصف للشيعية ، وإن حقهم في الإمامة قد عاد إليهم — وما كانوا يشكون في عودته — بذلك الانحياز الشيعي الخالص الذي اتجهت إليه الدولة . وقد نفذ هذا الخبر إلى ضباط أهل مصر ، ورأوا فيه تحقيقاً لما كانوا يترقبونه واستمر في نفوسهم ، واستطاعوا بذلك أن يوفقوا بين عقيدتهم والولاء للدولة القائمة . فقد كان من الصعب بعد ذلك أن تتحول نظرهم هذه للدولة ، إلا أن يحدث حدث خطير يزعج النفوس هزا عنيفاً ويستطيع أن يحجر ما وقر فيها من ذلك . هذه الاعتبارات مجتمعة تجعل مثل تلك الغفلة عن تتبع سياسة الدولة أمراً قريب الفهم يسير التأويل .

وهكذا ظل الأمر في مصر ، وفي البيئات الشيعية التي كان يعيش فيها أبو تمام خاصة ، مقصوراً على ذلك التصور لسياسة الدولة ، وضلت آفاقها مقفنة على ذلك الإدراك ، فلم يكن عجباً إذن أن يتقدم أبو تمام إلى الخليفة متوسلاً بشيئته وكوفيته ، وأن يفخر أمامه بذلك ، كما كان يقول قبل ذلك في أوائل عهده بمصر ، في قصيدته التي عرضنا لها منذ قليل :

وكوفي ديني ، ولكن منصبي شام ونجدي أية ذكر النجر

ثم لا يرى بأساً في أن يذكر «الرضا» في شعره ، سواء كان المقصود به علي بن موسى الرضا أو «الرضا من آل محمد» الذي اعتنقت عليه الدعوة ضد الأمويين ، فيقول :

الله يشهد أن هديك للرضا فنا وبلعن كل من لم يشهد

ولا يعلم أن مثل ذلك أصبح موسوماً بسمة الثورة .

والواقع أن مقام أبي تمام في مصر ، وفي الأوساط الشيعية خاصة ، لم يكن ليتيح له أن يتسع أفقه من الناحية السياسية ، وإنما تم له ذلك بعد أن غادر مصر ، واتصل بمحافل الأمور عن كثب ، وجعلت التيارات السياسية

تمر أمام عينيه في ذلك المزدحم السيامي المفتوح ، فاختفت هذه الشريعة
الغريبة ، ولم يعد لها أثر في قصيدته الأخرى ، ولا في سائر قصائده .

وهكذا نرى أن هذه الظاهرة في قصيدة أبي تمام الأولى تضيف عاملاً
جديداً إلى العوامل التي تؤيد الفرض الذي افترضناه أولاً ، وهو مصريتها .

وبعد ، فإذا كان ضيق الأفق السيامي الذي كان أبو تمام يعيش فيه
في مصر قد جعله يغفل هذه الغفلة ، فيخطئه التوفيق فيها من ذلك الوجه ،
فإن الأمر لم يكن مقصوراً على ذلك ، وإنما أخطأه التوفيق فيها من ناحية
صياغتها الفنية أيضاً ، بالرغم مما يبدو عليها ، في أكثر أجزائها ، من شدة
احتفاله لها وعنايته بها . وربما كان ذلك من أول أسباب سقوطها ، وإخفاقه
فيما جعل يستشرف إليه ويتطلع طامعه .

ومهما يكن من أمر ، فإن نية الرحيل التي كانت ماتزال تراود
أبا تمام ، لم تلبث بعد أن رحل المأمون عن مصر ، أن برزت في إصرار
قلم يعدد به من أن يعد للرحيل أهبطه ، ويغادر مصر إلى الشام ، موطنه الأول .

١٥

ولست ندرى شيئاً عن ملاقات ترك أبي تمام مصر إلى الشام ، إلا ما رأيناه
من ضيقه بها وخيبة آماله فيها . على أن هناك شيئاً جديراً بأن يلتفت نظرنا
ونجعلنا عند ذلك النظر قليلاً ، وهو أننا حين تلقى أبا تمام في الشام عقب تركه
مصر نراه قد عقد صلته بأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافعي (١) . وكان
إذ ذاك متقلداً بعض أعمال الشام ، كما يقول المرزبان . ولكن أبا المغيث
هذا كان في مصر قبل ذلك . كان فيها في الوقت الذي كان أبو تمام يفكر

(١) كان في حاشية عبد الله بن طاهر ، في خروجه من الجزيرة إلى مصر ، رجل اسمه اسحاق
ابن إبراهيم الرافعي (أنظر تاريخ الطبري ١٠٠ : ٢٧٤) . أفكر أن هذا الرجل أخا موسى بن إبراهيم
أبي المغيث هذا ؟ إذا صح ذلك كان فيه — فيما تحب — ما يعين على تصور علاقة أبي تمام به
تصوراً أدق وأكمل .

في تركها ، ويود لو اتبع له الرحيل عنها . وكان يتولى بعض المناصب فيها
 إذ كان على شرطتها في أيام ولاية عيسى بن منصور الرافقي ، سنة ٢١٦ .
 وعيسى بن منصور هذا هو ابن عمه ، كما يقول الكندي . ولكننا لا نلبث
 حتى نرى مكانه يعظم شيئاً ما في أبان زيارة المأمون وبسبب منها ، إذ يستخط
 على ابن عمه عيسى بن منصور ، ويأمر بحل لوائه ، ثم يجعل أبا المنيث خلفاً له
 ويضم أصحاب عيسى إليه ، ويعقد له على جيش يبعث به إلى الصعيد . ثم
 لا تعلم ما انتهى إليه أمره بعد ذلك ، إذ تنقطع عنا أخباره ، حتى نراه متولياً
 بعض أعمال الشام ، ونرى أبا تمام يقصده في دهشق بالمديح .

فهل لنا أن نفترض هنا أن هذه الصلة التي نراها بين أبي تمام وأبي المنيث
 في الشام ، إنما نشأت بمصر في ذلك الوقت ، وأن رحلته إلى الشام كانت
 ملتزمة ، على نحو ما ، برحلة أبي المنيث إليها ليكون على بعض أعمالها ؟ ذلك
 فيما نحسب فرض قريب ، وإن كنا لا نرى أثراً لهذه الصلة في شعره الذي
 نعرف أنه قاله في مصر . ولكننا نعلم علم اليقين ، إلى جانب هذا ، أن ذلك
 الشعر لم يصل إلينا كاملاً ، حتى يمكن أن يعتمد عليه في تهجين ذلك الفرض .

المؤرخ وليام الصورى

للدكتور عمر كمال توفيق

كان لوليام رئيس أساقفة كنيسة صور ، أهميته كرجل من كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية فى الشرق ، كما كانت له مكانته المرموقة بين رجال الدولة المشولين فى مملكة بيت المقدس الصليبية . الا أن شهرته فى العصور التالية لعهدة قد قامت على أساس انجازاته كؤرخ ، هذا بالرغم من ضياع بعض مؤلفاته فى التاريخ . ومهما يكن من أمر فإن تاريخه الكبير الذى وصل إلى أيدينا والذى اشتهر بإسمه :

“Historia rerum in partibus transmarinis gestarum”

أى «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ماوراءالبحر» يحتل مكانة عظيمة الأهمية بين مصادر تاريخ الحروب الصليبية . وقد جرى العرف على اعتبار كتاب وليام المذكور الأصل الذى تفرع منه أدب الحروب الصليبية ، مع اعتبار ان الجذور وجدت فيها سبقه من المؤلفات ، وان الفروع كانت الكتب التى وضعها المؤرخون اللاحقون مع عدم ذكر أسمائهم واعتبروها ملاحق أو مذيلات على تاريخ وليام (١) .

والواقع ان محاولة دراسة حياة وليام وتكوين صورة كاملة لها ليس أمراً سهلاً . وقد تطلب هذا العمل جهود عديد من العلماء ، بدأت من القرن السادس عشر واستمرت حتى يومنا هذا . (٢) وترجع هذه الصعوبة

(١) أنظر J. L. La Monte “Some Problems in Crusading Historiography” Speculum, xv (1940), 60.

(٢) أنظر : قائمة الدراسات المختلفة لوليام الصورى فى William of Tyre, History of Deeds Done Beyond The Sea (Trans. E. A. Babcock & A.C. Krey, New-york, 1943), vol. I, p.p. 5-6.

للتقص في المعلومات التاريخية التي جاءت عن حياته ، الأمر الذي اضطر الباحثين للاعتماد إلى حد كبير على الشذرات والاشارات المحدودة التي جاءت في التاريخ الذي وضعه .

ولد وليام في مملكة بيت المقدس الصليبية حوالي سنة ١١٣٠ م . والظاهر أن نشأته كانت في مدينة بيت المقدس نفسها . ومن المحتمل أن أبويه كانوا قد نزحوا من إحدى بلاد غرب أوروبا ، ولو أننا لا نستطيع أن نجزم برأى نهائي في ذلك (١) . فإن وليام الذي وضع في تاريخه أنساب الآخرين وأصولهم لم يدل بشيء عن عائلته وأصلها . ولكن تدل الشواهد على أن وليام أمضى السنوات الأولى من حياته في فلسطين ، والمرجح أنه استقر به المقام في بيت المقدس . فإن ما رواه عن صباه عرضاً ، إنما يتركز بأكمله في هذه المدينة ، التي يظهر من تاريخه معرفته الوثيقة بشوارعها ومبانيها المختلفة . وقد أتاحت له معيشته في هذه الانحاء الفرصة لكي يتقن عدداً من اللغات . فإلم بالفرنسية وهي لغة البلاط الصليبي ، والعربية التي كانت تستعمل بكثرة في محيط التبادل التجاري إلى جانب اللغة الفرنسية . ويظهر كذلك أن وليام كانت له دراية باللغة اليونانية التي انتشر استعمالها في الشرق بحكم صلة الجوار المباشر مع الإمبراطورية البيزنطية التي كانت لها اتصالات متنوعة مع الصليبيين وشعوب الشرق الأدنى الإسلامي . وفضلاً عن ذلك فيبدو أن وليام كان على الأقل على بعض العلم بلغات أخرى مثل العبرية والفارسية . وكانت اللاتينية بطبيعة الحال هي لغة الكنيسة والمدارس في المنطقة اللاتينية . وإن إتقان وليام الواضح لهذه اللغة مما يشهد بأنه تلقى تعليمًا ممتازاً .

وقرر وليام ، على ما يبدو ، منذ مرحلة مبكرة في حياته العمل في السلك الكنسي . ويتضح من تاريخه أن الشخصية الرئيسية التي أثرت فيه في صباه كان بطريرك القسطنطينية الذي كان يشغل منصب رئيس الرهبان الناضجين

(١) بخبر من مناقشة الآراء المختلفة في أصل أسرة وليام انظر المرجع السابق

بكنيسة الضريح المقدس من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٨ م ، أى الزمن الذى يرتبط بالسنوات الخمس والعشرين الأولى من حياة وليام . وكان المعهد الدينى الذى رأسه بطرس مختصاً بأعداد القساوسة وتعليمهم . وأظهر وليام حينئذ من المثابرة والشغف بتحصيل العلم ما قر به من أساتذته وخاصة بطرس السالف الذكر .

ولابد أن وليام وجد فى بيت المقدس فرصة طيبة لتلقى تعليمه الدينى . فقد تجمع هناك عدد من العلماء الذين كانوا فى غالبيتهم من الزائرين الذين توافدوا من غرب أوروبا لقضاء فريضة الحج والعودة بعدها . كما كان منهم المتقلمون فى العمر الذين جاءوا إلى هذه البلاد عاقدين العزم على قضاء ما تبقى من حياتهم فى الأراضى المقلّسة تيمناً بها . وقد ضمت الأديرة عدداً من الألفاظ المشتغلين بالعلم مثل جيوفرى رئيس معبد السيد المسيح الذى اكتسب شهرة لتعمقه فى دراسة اللغة اليونانية . وهكذا أتيحت الفرصة لوليام الصورى لكى يستفيد من هؤلاء العلماء سواء أكان ذلك بالاختلاط بهم فى الأديرة أو النظرات الكنسية أو أثناء التردد على الأضرحة المختلفة وزيارتها . ولابد أن بطرس البرشلونى قد تولى الاشراف على تعليم تلميذه وليام وتوجيهه .

ومن المعروف أن وليام بعد أن قطع مرحلة طيبة من التعليم والاعداد اللازم ، أصبح من رجال الكهنوت التابعين لرتب أساقفة كنيّة صور . ويتضح ذلك من إحدى الوثائق المؤرخة فى سنة ١١٦١ م ، ولور أن المصادر لم تبين على وجه الدقة متى تم ذلك . هذا وتبل أن تبدأ سنة ١١٦٣ م ، قرر وليام عبور البحر الأبيض المتوسط والذهاب إلى غرب أوروبا ليواصل دراسته هناك ، الأمر الذى اشار إليه إشارة عابرة فى تاريخه (١) . وكان حينئذ فى بداية العقد الرابع من عمره . والمرجح أنه أثناء اقامته فى الغرب اهتم بشكل خاص بدراسة القانون ، الذى أصبح أمراً لازماً لمن يهيا لشغل منصب دينى

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠١

كبير ، وذلك لازدياد أعباء رجال الدين وتشعب مسؤولياتهم (١) . ومن المؤكد أن وليام كان لا يزال يتابع دراسته في الغرب عندما أعطي الملك عموري عرش بيت المقدس . وكانت عودة وليام إلى البقاع المقدسة في خريف سنة ١١٦٣ م على وجه التصريب .

ولا يعرف الكثير عن تفاصيل حياة وليام في السنوات الأربع التي تلت عودته إلى المملكة الصليبية . ولكن من المعروف أن أستاذه بطرس الذي أصبح رئيساً لاساقفة كنيسة صرقد مات ، وتلاه في منصبه رجل يعرف باسم فريدريك ، لم يكن على شاكلته ، ولم تكن علاقة وليام به طيبة . ويظهر أن عمل وليام اقتصر في ذلك الوقت على أداء الواجبات العادية التي يقوم بها رجل الكنيسة . وربما اقتصرت بالحاجب انقائوني من أعمالها ، هذا في الوقت الذي أخذ يتطلع فيه ليصبح رئيساً لاساقفة إحدى الكنائس الهامة أو بطريرك المملكة الصليبية .

ومنذ سنة ١١٧٦ م ، بدأ وليام مرحلة جديدة من حياته أخذت أسمه فيها في الارتفاع ، وكان ذلك على أثر بداية ارتباطه بخدمة عموري . فإن هذا الملك كان شغوفاً بقراءة التاريخ مهماً بمنابعه . وقد أراد أن يسجل عهده وأحداثه خاصة وأنه اختصرت في ذهنه فكرة فتح البلاد المصرية ، الأمر الذي يعد بالنسبة للصليبيين أكبر مشروع لهم بعد الاستيلاء على بيت المقدس وإقامة المملكة الصليبية في الشام . وهكذا فقد أراد عموري أن يسجل له التاريخ ما يحققه من أمجاد . وعلى ذلك قرر أن يختار رجلاً كفواً يكلفه بكتابة تاريخه ، وقد وقع اختياره على وليام ، وكان موفقاً في هذا الاختيار . حقيقة أن وليام لم يتلق فيما سبق التدريب اللازم للصورخ ، إلا أنه كان يزر كثيرين من أقرانه من رجال الكنيسة في القدر الذي ناله من التعليم . كما عرف عنه أسلوبه الأدبي الرقيق والالهام بعده لغات . والظاهر أن وليام كان متردداً في أول الأمر في الاضطلاع بهذه المهمة الجديدة خشية أن يحيد عن هدفه

(1) A. C. Krey, "The Making of An Historian In The Middle Ages" Speculum, xv 1 (1941), 149-66.

الأصل وهو الترقى فى سلك الكهنوت . ومهما يكن من أمر فقد قبل هذا العمل ، وعينه عمورى رئيساً لشهامة كنيسة صور ، كما خصص له راتباً أكبر من الراتب المعتاد الذى يتقاضاه من يشغل هذا المنصب .

وهكذا بدأ وليام وهو فى مرحلة منتصف العمر عمله كمؤرخ . وقد اقبل على ذلك بكل حماسة ونشاط وتقدير للمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه . وقد واصل نشاطه فى كتابة التاريخ بشكل شبه مستمر منذ سنة ١١٦٧ وهى السنة التى بدأ فيها حتى سنة ١١٨٤ م وهى التى توقف فيها عن الكتابة قبيل موته . الا أن عمل وليام ، فى هذه المرحلة من حياته لم يقتصر على كتابة التاريخ فقد عهد اليه المسؤولون بالملفكة الصليبية بمهام أخرى كذلك . الا أن هذه المهام ، وان كانت قد اضافت إلى ما تحمله من اعباء ، فإنها جعلته على اتصال وثيق بأحداث المملكة الصليبية وأخبارها . فعلى أثر الاتصال بين وليام وعمورى ، ازداد تقدير الأخير لمؤرخه ، حتى انه لما بدأ فى التفاوض مع الامبراطور البيزنطى بغرض القيام بحملة مشتركة لغزو مصر ، أرسل عمورى وليام إلى القسطنطينية لاتمام عقد الاتفاقية الصليبية البيزنطية . وقد أتاحت هذه المهمة لوليام فرصة التعرف عن كثب على عاصمة الامبراطورية البيزنطية . ونجح فى مهمته هذه . كما أن وليام اضطرت به بعض المسائل الكنسية للسفر إلى روما عقب ذلك . واذادته اقامته هناك فى معرفة البلاط البابوى وسياسته . وللتجاح الذى احرزه وليام فى أكثر من عمل ، ازدادت ثقة عمورى به حتى لقد كلفه سنة ١١٧٠ بتعليم ابنه وولى عهده بولدوين الذى كان فى التاسعة من عمره . وأصبحت رعاية هذا الأمير الصغير إحدى مسؤوليات وليام ، الذى ازدادت له بذلك فرص الاتصال بالملك وحاشيته واستقاء المعلومات عن أحداث الدولة التى كان يؤرخها . وفى نفس الوقت نشأ بين وليام والأمير بولدوين تعاطف وتقدير متبادل ظهرت نتائجه بعد اعتلاء الأخير للعرش .

وفى سنة ١١٧٤ م ، مات الملك عمورى ، وله من العمر ثمان واربعون سنة ، وفقد وليام بذلك صديقاً عزيزاً عليه . كما أن خلفه وهو بولدوين

الرابع ، تلميذ وليام ، لم يكن قد بلغ بعد سن الرشد ، إذ كان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره . ولم يكن يولدوين قد أتم تعليمه كما كان ضعيفاً جسمانياً لاصابته بالجذام . ونتيجة لذلك فقد استأثر بالسلطة والاشراف على شئون المملكة أحد النبلاء الصليبيين وهو ميلون دى بلانسي ، الذي عده وليام أمواً مستشاري الملك الراحل . إلا أن هذا الأمير قد اغتاله بعض اعدائه في خريف نفس السنة . (١) ووقع الاختيار بعد ذلك على ريموند الثالث أمير طرابلس ليكون وصياً على الملك . وقد عين هذا الأمير مؤرخنا وليام الصوري مستشاراً للمملكة . (٢) وتبع ذلك تنصيبه رئيساً لمأقفة كنيسة صور في ٦ يونيو ١١٧٥ م . وهكذا أصبح لوليام مركزاً هاماً في شئون كل من الدولة والكنيسة في المملكة الصليبية . وفضلا عن ذلك فعندما بلغ يولدوين الرابع السن القانوني ليأمر سلطته سنة ١١٧٦ ، انتهت وصاية ريموند ، وصار وليام المنتشر الأول للملك .

وأصبح من المتوقع إذذاك أن وليام سيخلف أماريك الذي اشتد به المرض ، في المنصب الديني الأكبر في المملكة ألا وهو منصب بطريرك بيت المقدس . وكان هذا هو الأمل الأكبر لوليام الذي بدأ حياته على أساس الخدمة والترف في سلك الكهنوت . وكان من البوادر التي أظهرت ذلك تعيين وليام على رأس الوفد الديني الذي أرسل إلى روما سنة ١١٧٨ م بناء على دعوة البابا (٣) . وقد وفق وليام في مهمته ولفت نظر البابا بكفاءته ونشاطه حتى لقد كلفه بمهمة خاصة في القسطنطينية ، والمرجح أنها تعلقت بموضوع محاولة التوحيد بين كنيتي روما والقسطنطينية ، الأمر الذي لا بد وقد شجعت مبول الامبراطور مانويل اللاتينية .

(١) William of Tyre, op. cit., II, 401

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٠٢ - ص ٤٠٤

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣٦

الا أن وليام عل أثر عودته إلى المملكة الصليبية (حوالى سنة ١١٨٠) قد أصيب بخيبة أمل فيما يتعلق بالحصول عل منصب البطريرك ، كما أن نفوذه السابق أخذ فى الضعف والاضمحلال . إذ أن تدهور صحة الملك بولدوين أدى إلى إثارة موضوع تعيين وصى عل العرش . وقد اختلف نبلاء المملكة فى ذلك وقامت جماعتان متنافستان ، الأولى وتتكون من الأمراء القدامى وعلى رأسهم ريموند أمير طرابلس ، والأخرى وهى جماعة البلاط وأهم شخصياتها الأميرة سيبيلأخت بولدوين وورثة العرش وزوجها جى لوسيان المغامر الفرنسى والمملكة الأم أجلس . وكانت تلك الجماعة الأخيرة تعتمد على مجموعة من النبلاء الغربيين حديثى العهد بالأراضى المقدسة ، وتمكنت هذه الجماعة من التغلب والاستئثار بالسلطة . وحيث أن وليام كان معروفاً بانصالة بريموند ومعارضته لجى لوسيان ، فلم يجد معاملة حسنة من جانب المسئولين الجدد . وهكذا فعندما مات البطريرك أمالريك فى ٦ أكتوبر سنة ١١٨٠ م ، تحطت جماعة البلاط وليام بالرغم من كفاءته المعروفة ، وعينت هرقليدوس رئيس أساقفة قيسارية فى المنصب الشاغر (١) . وهكذا أغلق دون وليام باب الترقى فى السلك الكنسى فى المملكة . وفضلا عن هذا فبالرغم من أنه من الناحية الرسمية كان لا يزال مستشار المملوكة فإنه عومل بإهمال وأصبح لا يعرض عليه من الأمور الا القليل النادر وفى المناسبات الضرورية . وهكذا فبعد أن كان فى سنة ١١٧٨ أكثر موظفى المملكة نفوذاً فإنه بعد عودته إلى بلاده كاد أن يصبح مسلوب السلطة والنفوذ .

ولم يكن وليام راضياً عن أحداث المرحلة الأخيرة من حياته . ففى الوقت الذى هدد فيه الصراع الداخلى بين جماعى البلاط والنبلاء القدامى بتصادم وحدة المملكة الصليبية ، كان السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى يقوم بتجميع قوى المسلمين وبعد العدة للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين . ونحن لا نعرف عل وجه التحديد تاريخ وفاة وليام . ويرى المؤرخ كرى أنها كانت

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥١

قبل شهر مايو سنة ١١٨٥ م ، بناء على أن في هذا التاريخ عين نائب وليام ليخلفه كستشار مملكة بيت المقدس (١) . أما رانسمان فيقول أن وليام بعد فشله في الحصول على منصب البطريرك اعتزل إلى روما سنة ١١٨٣ ومات هناك قبل سنة ١١٨٧ م (٢) . وعلى أية حال فقد كانت وفاة وليام في العقد التاسع من القرن الثاني عشر الميلادي وكان ذلك قبيل حدوث موقعة حطين واسترجاع المسلمين لمدينة بيت المقدس .

ومهما يكن من أمر ، فإن وليام يحكم المناصب التي شغلها والاعباء التي اضطلع بها قد اتاحت له فرصة طيبة لمعرفة بواطن الأمور في المملكة الصليبية ودراسة أحوالها ومشاكلها . وقد مكنته ذلك كله من الاجادة في كتابته التاريخية . والواقع أن كتابه الذي وصل إلى أيدينا والذي اشتهر باسم «تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر» جاء كثمرة نهائية لانتاجه التاريخي . وقد قام وليام أصلا بوضع ثلاثة كتب في التاريخ ، وهي حسب الترتيب الزمني في تأليفها :

- 1) أعمال الملك عموري "Gesta Amalrici regis"
- 2) أعمال مملكة بيت المقدس "Gesta Hierosolymitanorum regum"
- 3) أعمال الأمراء الشرقيين "Gesta orientalium principum"

وبشأن الكتاب الأول وهو «أعمال الملك عموري» الذي شرع في تأليفه بناء على رغبة الملك عموري ، فلا ندرى عما اتخذ وليام من خطوات في أول أمره ليلم بكيفية كتابة التاريخ . ولكن من المعروف أنه أخذ يستجرب قادة الصليبيين الذين اشرعوا في الحملة الأولى التي قام بها عموري على مصر ويستفسرهم عما شاهدوه من أحداث . كما أن وليام اعتنى بدراسة ما سمعه

(١) William of Tyre, vol. I, p. 52

(٢) S. Runciman, A History of The Crusades (Cambridge, 1952) vol. (٢)
II p. 476

ومحصه جيداً . وإن وزنه للأمر إذ ذلك يذكرنا بعمل القاضي البقيق .
ويطلب على الظن أنه كان يكتب نتائج بحثه بعد ذلك مباشرة . وبما يلاحظ
في هذا المجال اهتمام وليام بإدراج عدد من المسائل المتعلقة بمحملات عموري
على مصر ، ومن أهمها خصائص البلاد المصرية وخصال أهلها . وقد أعطى
صورة تفصيلية للحياة في بلاط الفاطميين في القاهرة بالشكل الذي وجدها
عليه الصليبيون . هذا ولم يفت وليام أن يوضح أهمية مركز مدينة الاسكندرية
ونشاطها التجاري (١) .

والظاهر أن اثناء محاولة وليام لوضع بداية تاريخ « أعمال الملك
عموري » اقتضت له والملك الحاجة إلى كتاب في التاريخ يوضح أحداث
المرحلة السابقة لتاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، منذ أن توقف المؤرخ
فولشير الشارترى حوالي سنة ١١٢٧ م . بل إن المؤلفات التاريخية السابقة
أصبحت لا تكفي لاشباع رغبة الصليبيين في التعرف على أحوال بلادهم
حيثئذ . ويبدو أن عموري الشغوف بقراءة التاريخ ، ووليام المصطلع بالكتابة
عن عصر عموري ، قد رأيا أنه من الضروري وضع كتاب آخر في تاريخ
المملكة في عهدها السابق بدءاً من آخريات القرن الحادي عشر . وشرع وليام
في تصنيف هذا الكتاب الذي عرفه في ثانيا كتاباته بإسم تاريخ « أعمال
مملكة بيت المقدس » . ولا بد أن مؤرخنا قد واجه في ذلك ما يواجهه
المؤرخون الذين يحاولون الكتابة عن عهود سابقة . فقد اضطر للاعتماد في
تصنيف الجزء الأول من الكتاب على مادونه المؤرخون السابقون . إلا أنه
خالف غالبية مؤرخي العصور الوسطى في طريقة الاعتماد على المصادر
السابقة . فهو لم يكتف بالاعتماد على مصدر واحد، بل كان يرجع عادة في
معالجة الحدث الواحد إلى عدة مصادر ، إن توافرت، ويقارنها ثم يبدى رأيه
الخاص إذا اقتضى الأمر ذلك. والمعروف أنه كانت تحت تصرفه المصادر الخاصة
بتاريخ الحقبة السابقة مثل « أعمال الفرنجة » ومؤلفات ريموند الأجيلي وولتر

(١) بشأن وصف وليام لبلاد مصرية وأهلها انظر :

Willam Of Tyre, op. cit vol. II, pp. 315-17, 319-20, 329-331, 335-337

المستشار وفولشير الشارترى . هذا وكان وليام حريصاً بقدر إمكانه في عدم تقبل الروايات ذات الطابع الاسطوري أو التي تغلب عليها صبغة المبالغة .

ولقد أحرز وليام تقدماً في كتابة التاريخين السابقين الذكر ، بالرغم من تحمله مسئولية تربية ابن الملك . هذا وقد عهد اليه عمورى بعبء جديد في تدوين التاريخ . فإن هذا الملك أراد معرفة المزيد عن تاريخ المسلمين في عصورهم السابقة . ولابد أن عظمة الحضارة التي شاهدها في مصر عند قيامه بحملاته عليها ، قد حركت في نفسه الرغبة للتعرف على المزيد . ولذا فقد حث وليام على أن يكتب تاريخاً عن حكام الشرق وإنجازاتهم منذ عصر النبي محمد حتى عهد وليام . ولكنى يسهل عليه اقيام هذه المهمة أمده بعدد من الكتب العربية ، والمرجع أن هذه الكتب كانت أصلاً من مكتبة الأمير العربي أسامة بن منقذ التي صادرها الملك بولدوين الثالث عندما غرقت المركب التي كانت تحملها على مقربة من مدينة عكا (١) . وقد نص وليام بالذات على استعانة بكتاب المؤرخ العربي سعيد بن البطريق . وفضلاً عن ذلك فلا بد أن وليام وجد في مدينة صور فرصة للحصول على المزيد من أخبار المسلمين وتاريخهم . فقد وجد في هذه المدينة في عصر وليام مساجد هامة يؤمها المسلمون وعلمائهم . وأشار الرحالة ابن جبير الذي زار صور سنة ١١٨٤ م وامضى بها بعض الوقت ، إلى ما لاحظته بها من العلاقات والتعايش السلمى بين المسلمين والصليبيين (٢) . وكان هذا التاريخ الذى وضعه وليام عن المسلمين هو الذى عرف بإسم : أعمال الأمراء الشرقيين . إلا أن هذا الكتاب قد فقد ولم يصل إلى أيدينا .

(١) تحدث أسامة بن منقذ الصليبيين على مكتبة القيمة التي كانت ، طبقاً لتقديره ، تتكون من أربعة آلاف مجلد من الكتب الفارسية . وقد اعتبر فتحها نصراً كبيراً فقد كتب في ذلك : «فإن ذهابها حزا في قلوب ما حدث»

انظر : أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . (ث. نيليب حتى . الولايات المتحدة ، ١٩٣٠)

ص ٣٤ - ص ٣٥ .

(٢) رحلة ابن جبير (ث. حسين نصار . القاهرة ، ١٩٥٥) ص ٢٩٤ - ص ٢٩٦ .

ومهما يكن من أمر ، ففى سنة ١١٨٢ م ، ووليام فى السنوات الأخيرة من عمره ، كان كتابه «أعمال مملكة بيت المقدس» قد أوْشك على الانتهاء ليكون بداية لكتاب «أعمال الملك عمورى» . وقد قرر وليام حينئذ ادماج الكتابين ليكرنا كتاباً واحداً جامعاً فى تاريخ مملكة بيت المقدس ، وشرع فى تنقيذ ذلك. وكان هذا الكتاب الجديد هو الذى عرفه المؤرخون فيما بعد باسم «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر» . وقد تبين وليام وهو فى مرحلة تصنيف هذا الكتاب الأخير ، الذى أراد أن يجعله مرجعاً للمسيحيين عامة للتعرف على تاريخ المملكة الصليبية ، ضرورة إضافة بعض المعلومات إليه . ولذا تخير له بعض الأجزاء من كتاب «أعمال الأمراء الشرقيين» . كما ادرج شيئاً عن تاريخ بيت المقدس منذ سقوطها فى أيدي الفرس سنة ٦١٤م حتى التبشير بالحملة الصليبية الأولى لاسترجاعها فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . هذا وقد زود وليام هذا الكتاب الجديد بعدة فقرات عن المعارف الجغرافية والأثرية . ولابد أنه عند قراءة بعض الموضوعات التى دونها من قبل قد أعاد كتابتها على ضوء معلوماته وخبرته النامية . وفضلا عن ذلك كله ، فإنه دبع مقدمة قيمة لهذا الكتاب سنة ١١٨٤ م . والمرجع أن هذه المقدمة كانت آخر ما أضافه وليام إلى كتابه الذى سجل أهم أحداث عصره حتى السنة المذكورة .

ونحن إذا أردنا الحكم على عمل وليام كنؤرخ ، فمن أول ما يستلفت النظر فى هذا الصدد هو هذا التذم المملووظ الذى أحرزه هذا الرجل فى نهج الكتابة التاريخية مع ممارسة هذا العمل . فمع مرور الوقت إزدادت قدرته على نقد المصادر وتمحيصها ، كما أصبح أكثر اهتماماً بالجوهر دون التفاصيل . هذا وإذا كان وليام فى أول الأمر لما أمسك بقلمه ليكتب التاريخ ، يعمل على تلبية رغبة مايكه عمورى الذى كان يرغب فى تمجيد حكمه ، فإنه بعد موت هذا الملك قد تغيرت مكانة وليام فى المملكة الصليبية وتغيرت بالتالى طريقة معالجت للتاريخ . فبعد أن أصبح مستشاراً للملك الجديد ، إزداد شعور وليام بالمسئولية وانضج ذلك فى كتاباته . وأصبح يقصد من وراثتها نوعاً من

التوجيه والارشاد في شئون الدولة . ثم أن بعد أن تغلبت جماعة البلاط واستأثرت بالسلطة ، وضعف على أثر ذلك نفوذ وليام ، عدل مؤرخنا في أسلوبه في الكتابة . إذ أصبح يكتب للمسيحيين الكاثوليك عامة ، بفرض العمل على خدمة مصالح المملكة التي ينتسب إليها الا وهي مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتأمين بقائها . وقد وضع في كتابه كل ما اكتسبه من دراية وخبرة للاستفادة .

وكان وليام يميل للزراعة والانصاف في كتابته وأحكامه . وبصفة عامة نستطيع أن نقول انه لم يخضع للتعصب العنصري أو الديني أو الطبقي على النحو الذي حدث للغالبية الكتاب الاوربيين المعاصرين . وقد قام في عدة مواضع بامتداح أفراد من اللاتين والبيزنطيين بل كذلك المسلمين ومثال ذلك وصفه للملك العادل نور الدين محمد بأنه رجل حكيم فطن (١) . فكان وليام على استعداد للاعتراف بمميزات المسلمين وما قام به بعضهم من أعمال مجيدة . كما أظهر وليام اهتمامه ببيان مظاهر الحياة اليومية والصناعات والعمارة والحياة الاجتماعية ، هذا إلى جانب المسائل العسكرية والكنسية والدبلوماسية وسائر شئون الدولة .

ولقد نبأ وليام بفضل كتاباته مكانة مرموقة بين المشتغلين بالأدب اللاتيني في العصور الوسطى . وتميز أسلوبه بالتزام الدقة في مراعاة قواعد النحو ، كما كان يتسم بثروة لغوية كبيرة . ويدل تاريخ وليام على إلمامه بالأدب الكلاسيكي وتذوقه له . ويتضح هذا بشكل خاص في الاجزاء التي وضعها في سنواته الأخيرة . وقد اقتبس وليام في عدة مواضع من مؤلفات فيرجيل وأوفيد وشيشرون وغيرهم .

والمسائل الرئيسية التي نأخذها على تاريخ وليام خطوه في تحديد سنى الأحداث . حقيقة أن معظم الحوليات التي وضعت في العصور الوسطى لم تسلم من هذا الخطأ ، الا أنه كان على نطاق كبير نسبياً في تاريخ وليام . حقيقة

William of Tyre, op. cit. vol. II, p. 146 (١)

انه كان دقيقاً في الترتيب الزمني للأحداث المتعلقة بموضوع واحد . الا أن مشكلته قامت عندما كان يكتب عن موضوعات مختلفة لا ارتباط بينها إلا التقارب الزمني . ولا بد أن بعض هذا الخطأ الذي وقع فيه وليام يرجع لعدم تلقيه في الأصل التدريب المنظم للكتابة في التاريخ . ومن أسباب ذلك أن وليام لم يعتد كما يبدو ، تحويل التقاويم المسيحية والهجرية التي جاءت في المصادر المختلفة التي رجع إليها ، إلى نظام موحد . والظاهر انه لم يقين ضرورة التوفيق بين التقاويم المختلفة إلا في مرحلة متأخرة من حياته وذلك عندما أخذ بصنف تاريخه الكبير جامعاً بين كتابيه الأول والثاني وأجزاء من كتابه الثالث . وقد حاول بعض المؤرخين المتحمسين لوليام تبرئته من مسئولية هذا الخطأ ، مثل المؤرخ ستيفنسن الذي قال ان الحجاب الزمني الذي جاء في تاريخ وليام إنما كان من وضع كاتب آخر في فترة تالية (١) . ولكن بالاطلاع على ما جاء في مقدمة هذا الكتاب التي وضعها وليام ، نقين بشكل واضح مسئولية هذا المؤرخ عن خطئه المذكور .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب وليام الذي اشتهر باسم «تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر» يشغل مركزاً رئيسياً بين المصادر اللاتينية التي وصلتنا عن تاريخ الحركة الصليبية . فهو المصدر الرئيسي عن العصر الممتد من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١١٨٤ م . كما أنه بطريقته الخاصة في معالجة تاريخ المرحلة السابقة على سنة ١١٢٧ قد أصبح ملحقاً هاماً للمصادر السابقة عليه . ولقائمة هذا الكتاب التي وضعها وليام في آخريات أيامه ، أهمية خاصة في تقدير عمله كؤرخ . فقد ضمن في هذه المقدمة خلاصة تجربته في كتابة التاريخ ووضع وليام فيها الصعاب التي تواجه المؤرخ وجسامة المسئولية الملقة على عاتقه . ونص على ضرورة مراعاة الدقة والأمانة المطلقة في أداء هذا العمل . وبالرغم من أسلوبه الأدبي الرفيع بالنسبة لكتاب عصره ، فقد شعر وليام بحساسية شديدة وخشى ألا يكون أسلوبه متناسباً مع أهمية الموضوعات

(١) W.B. Stevenson, The Crusaders In The East, Cambridge, 1907; pp. 361-71.

التي تصدى للكتابة عنها . كما بين في هذه المقدمة البواعث التي دفعته على تصنيف هذا الكتاب ، من جهة لوطنه وحرره ، على تسجيل أخطاره وتجاربته لينفع بها الخلف ، لرغبته في تلبية طلب الملك عموري . هذا وقد أشار وليام إلى مشكلة عدم توفر المصادر . ووضح كذلك النهج التاريخي الذي اتبعه في وضع هذا الكتاب ، من حيث تقسيمه إلى أبواب ، والموضوعات التي تناولها . كما بين صعوبة مهمة المؤرخ حين لا يكون متفرغاً لعمله . وفيما يلي نقدم ترجمة كاملة لنص المقدمة المذكورة .

من وليام الذي أصبح بنعمة الرب ، خادماً كنيسة صور المقلعة ، وهو غير متأهل لذلك ، إلى الموقرين إخوته في المسيح الذين قد يصلهم هذا الكتاب خلاصاً أبدياً في الرب !

إن أي رجل حكيم لا يستطيع أن يشك في أن الكتابة عن أعمال الملوك أمر شاق حافل بالمسئولية والاختطار . وإذا ما تفاضينا عما يتطلبه مثل هذا الواجب من العمل والمثابرة الدائمة واليقظة المستمرة فهناك لا محالة هوتان تفغران فيهما أمام كاتب التاريخ ، ولا يمكنه أن يتفادى هذه أو تلك إلا بكل صعوبة . ففي الوقت الذي يحاول فيه أن يهرب من كاربيديس ، فإنه يقع في محالب سيللا ، التي تحيط بها كلامها وتترك تماماً كيف توقع بالمرء (١) . فهو أما يشعر غضب الكثيرين عليه ، بمتابعته طبيعة الانجازات البهيمية ، أو أملاً منه في التخفيف من حدة السخط ، بفترام الصمت حيال تنافع الأحداث ، ومن الواضح أنه في هذه الحجة الأخيرة لا يكون قد سلم من الوقوع في الخطأ إذ أن من المسمم به تماماً أن التفاضل عن ذكر الحقيقة الواقعة للأحداث واختفاء الأمور عمداً ، أمر ينافي واجب المؤرخ . وإن فشل المرء في واجبه خطأ بدون شك ، وذلك إذا ما حددناه الواجب بأمانة بأنه : « تكليف مطلق

(١) كاربيديس Charybdis دوامة مائية خطيرة في مضيق مسينا الذي يقع بين إيطاليا وصقلية . وقفت سيللا Scylla على صخرة خطيرة أمامها . وسيللا هذه كما تروى الأساطير القديمة ، كانت سيروانا أثق له اثنتا عشرة ذراعاً وست رقاب . وقد اعتبر القديس كلا من كاربيديس وسيللا خطراً مهلكاً .

كل فرد بما يتلاءم مع تقاليد بلاده ونظمها . ولكن من ناحية أخرى ، فإن اقتفاء أثر الوقائع ، وعدم التغير فيها أو عدم الخيد عن طريق الحقيقة هو مسلك يؤدي دائماً إلى إثارة الغضب . فإن الحكمة القديمة تقول : «المجاراة تكسب الأصدقاء ، والصدق يستجلب الكراهية » ؛ وعلى ذلك كله ، فإن المؤرخين إما أن يقصروا في واجب مهنتهم بإظهار المجاراة غير اللائقة بهم ، أو أنهم يبحثهم الجاد عن حقيقة الأمر يضطرون لتحمل الكراهية ، التي هي وليدة للذكر الحقيقة . وهكذا فن الشائع جداً أن هذين الطرفين قد درجا على مقابلة الواحد منهما الآخر ، والتعادل فيما يتسببان فيه من المشاكل فتتجه لمطالبتهما الضرورية .

وقد جاء في كلمات شيشروننا : «أقول الحق أمر مكدر لما ينجم عنه حقيقة من الكراهية التي تسم الصداقة . ولكن المجاراة أخطر في جلب النوائب ، لأننا بالترفق في معاملة الصديق ، نسمع له بالاندفاع نحو الهلكة (١) وهذه عاطفة تغلب على المرء الذي يحافى مقتضيات الواجب ، فيخفي الحقائق من أجل أن يكون باملا .

أما أولئك الذين ينسجون الأكاذيب عمداً في سجل تاريخهم وذلك رغبة منهم في الخلق ، فإن مصلحتهم يعتبر أمراً بغيضاً ، ويجب ألا يقتضوا إلى طائفة المؤرخين . فإنه إذا كان من الخطأ والتقصير في واجب الكاتب أن يخفي حقائق الانجازات الواقعة ، فمن المؤكد أنه لأقبح إثمًا إذا لبس الزيف بالحق وألقى إلى الخالفين الذين ياتعنونه ما هو غير صحيح في أساسه على أنه أمر حقيقي .

وفضلاً عن هذه الصعاب ، فإن كاتب التاريخ تواجهه صعوبة أخرى مماثلة أو أشد مشقة ، وعليه أن يحاول تجنبها قدر الامكان . ونقصه بذلك أن أهمية الأحداث التاريخية قد تتعرض للتشويه بسبب سوء العرض والافتقار

(١) أنظر : Cicero, De Amic xxtv, 89

وما يجدر بنا ملاحظته أن رجوع وليم الى كتابات شيشرون في هذا الموضع وغيره من الموضع ، ما يدل على لئامه بالأدب الكلاسيكي .

إلى البيان . وإن أسلوب المؤرخ يجب أن يكون على نفس المستوى العالى للأعمال التى يتصدى لها . هذا ويجب ألا تنزل لغة الكاتب ومحتة عن أهمية موضوعه . ولذلك فإن مما نخشاه كثيراً ، أن يضعف سوء المعالجة أهمية الموضوع ، وقد تبدو الأعمال الهامة ذات القيمة الجوهرية غير ذات شأن وتافهة بسبب الخطأ فى عرضها . وكما لاحظ الخطيب المرموق فى الحوار السكولى الأول : «ان تدوين الأفكار الانسانية دون القدرة على تنسيقها وعرضها بشكل واضح ، واجتذاب القارئ بأية طريقة مشوقة ، هو عمل رجل جاهل يسمى إلى الأدب ، ولا يحسن استغلال وقت فراغه» .

ويبدو أننا وقعنا فى كتابنا هذا فى مخاطر وحيرة ذات جوانب متعددة لأننا أدرجنا فى هذه الدراسة التى نقوم بها الآن ، على ما يقتضيه تتبع الوقائع وتسلسلها ، كثيراً من التفاصيل عن صفات الملوك وميرهم وانجاسهم الشخصية ، بنض النظر عما إذا كانت هذه الحقائق حميدة أو موضعاً للتجريح . ولقد يجد الحائزون لمؤلاء الملوك ، أثناء تصفحهم لهذا الكتاب ، صعوبة فى تقبل ما ورد به ، ويغضبون على المؤرخ فى موضع لا يلام عليه وسوف يعتبرونه كاذباً أو غيوراً . ولقد حاولنا تجنب التهمتين كليهما تجنب القاصون ما دام الرب موجوداً .

وفما عدا ذلك ، فلا ريب أننا جازفنا بالقيام بعمل يفوق استعدادنا بمراحل . وكان مستوى أسلوبنا لا يتناسب بأى حال مع أهمية الموضوع . الا أننا قد أنجزنا فى ذلك شيئاً ما . ونحن فى ذلك كالرسمين المبتدئين الذين لم يقفوا على أسرار الفن بعد ، والذين لا يسمح لهم خالباً إلا بمجرد وضع الخطوط الأولى للصورة واستعمال الألوان الأولية . ثم تضيف بعد ذلك يد رسام أكثر خبرة ، لمسات الجمال الأخيرة ، عن طريق استعمال ألوان أكثر رقياً . وهكذا ، فقد سلكنا بلقة طريق الحق ولم نخذل منه مطلقاً . ولقد

(1) Cicero, Tusculan Disputation, I, III, 6,

اقمنا بجهد غير قليل ، الأمس قد يشيد عليها رجل آخر أكثر منا علماً ، بناء أدق إتقاناً بفضل براعته في عمله .

وحيال هذا العديد من التعقيدات والأخطار الخافية التي تحيط بهذه المهمة ، كان من الأسلم جداً لو التزمت الصمت . وكان الأحرى أن أمسك لساني وأجبر قلبي على السكوت . ولكن دفعني إلى ذلك حبى الجارف لوطني . فإن المرء ذا النزعات الوطنية يضحى بحياته في سبيل وطنه حين يدعو داعي الزمن إلى ذلك . وأكرر أن الوطن استحقني على ذلك . وينفضل ماله من سلطان ، فقد قضى أن تلك الأمور التي حققها في نحو قرن من الزمان ، يجب ألا تدفن بهدوء أو يسمع لها بأن تدخل في طي نسيان لا يليق بها ، بل وعلى العكس ، فقد أمرني — الوطن — بالمحافظة عليها عن طريق المثابرة في استملاك قلبي ، وذلك من أجل نفع الخلف . وبناء على ذلك ، فقد امتلأنا لمشيته ، ووضعتنا أيدينا في عمل لا يليق بنا أن نرفضه . ونحن لا نأبه كثيراً بما يكون عليه نقد الخلف لنا ، أو ما يصيدرونه من حكم على أسلوبنا الضعيف في الكتابة أثناء معالجة هذا الموضوع المجيد . ولقد لبينا النداء حقاً ، ونرجوا أن تكون ثمرة عملنا نافعة بقدر ما صاحبه من حماسة ، كما نرجوا أن تكون جديرة بالثناء بقدر ما كرس لها من جهد . فقد اجتذبتنا سحر أرض وطننا فأقبلنا على هذا العمل ، على ما في قدرتنا من نقص ، وما يتطلبه العمل من جهد ، وبدون الاعتماد على مساعدة أى مؤرخ نابه .

وفضلاً عن هذه الحوافز ، فلقد أمرني بذلك الملك عموري الأول ، ذو الذكرى المحيدة وصاحب السجل المرموق في خدمة الرب ، رحم الله روحه المقدسة . وإن هذا الأمر ، مع الأسباب الهامة الأخرى ، دفعني على وضع هذا الكتاب . كما أننا قد ألفنا كتاباً آخر في التاريخ ، بناء على رغبة الملك الذي أمدهنا بالوثائق العربية اللازمة (١) . وكان مصدرنا الرئيسي في هذا المصنف كتاب بطريرك الاسكندرية المجلد سعيد بن البطريق . وكتابنا

(١) يشيرونا هنا الى تاريخ ، اعمال الامراء اشرفيين .

هذا ، يبدأ من عهد النبي بالكذاب محمد ويمتد خلال خمسمائة وسبعين سنة حتى عامنا الحاضر وهو ١١٨٤ بعد ميلاد المسيح .

وعلى أية حال ، فلم يتوافر لدينا أى مصدر أغريقى أو عربى للاعتماد عليه فى مصنفنا الحالى (١) . وباستثناء بعض الوقائع التى عاينها بأنفسنا فقد اعتمدنا على الأحاديث المنقولة . وتبعنا الترتيب الزمنى للأحداث . وبدأ كتابنا برحيل هؤلاء الرجال والقادة الشجعان المقربين للرب ، تلبية لدعائه ، وخروجهم من ممالك الغرب ، وانزاعهم بأيديهم القوية أرض الميعاد ومعظم بلاد الشام . وبدءنا من هذه النقطة تتبعنا التاريخ بكل أمانة لمدة أكثر من أربعة وعشرين عاماً ، حتى عهد بولدوين الرابع ، الذى يحتل المكان السابع فى قائمة الملوك ، إذا ما أدخلنا فى الاعتبار اللورد جودفري ، الذى بدأ الحكم هناك بنقب دوى . ولكى نيسر على من يريد أن يحصل على معلومات أكثر شمولاً عن حالة البلاد الشرقية ، فقد بينا فى مطلع كتابنا فى إنجلترا ، أوضاعها وهى تحت نير العبودية وما تحملته من آلام مبرحة . ووصفنا كذلك أحوال المؤمنين - المسيحيين - الذين أقاموا فى هذا الحين بين الكفرة فى هذه البلاد ، ثم ما حدث عقب ذلك . فبعد تلك المرحلة الطويلة من العبودية أيقظت هذه الأوضاع أمراء تلك الغرب ليضطاموا بمهمة الحج بغرض تحرير أخوتهم (٢) .

وإذا كان للقارىء أن يقدّر ما ألقى على عاتقنا من أعباء ، لتبين له أننا نشوء بالمشكلات العديدة . فأولا علينا مسئولية كبيرة ممثلة فى مهام كنيسة صوم الشبهة القائمة تحت رعاية الرب ، والتى وقع الاختيار علينا لرئاستها ، بنعمة الرب ، لا بفضل جدارتنا . علينا ثانياً عبء خدمة مولانا الملك الذى تشغل فى قصره المقدس منصب المستشار . وهناك كذلك مشاكل أخرى عاجلة تظهر من وقت إلى آخر وتتطلب منا الاهتمام . وإذا ما كانت هذه الحقائق

(١) يقصد المؤرخ وليم بهذا الصنف تاريخ الأفعال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر .

(٢) هذه حانة من الحالات العديدة التى أشار فيها المؤرخون الغربيون المعاصرون إلى

الحالات الصليبية باسم الحج .

موضوع اعتبار ، فيجدر بالقارىء ، بل ويحق له ، أن يكون أكثر ميلاً للتسامح معنا إذا ما وجد في هذا الكتاب ما يؤخذنا عليه . فإن المرء عندما يكون منشغلاً بمسائل كثيرة متباينة ، يتعذر على ذهنه أن يواجه كلا منها ويمعن الفكر فيها بنفس القوة والاهتمام . ومن المحال أن يكرس المرء جهداً كبيراً لكل موضوع حين يكون الاهتمام مشتتاً على هذا النحو . هذا غير الحال التي يكون فيها النشاط الفكرى مخصصاً كلية لأمر واحد . وفي مثل هذه الظروف ، لا يكون كثيراً على المرء أن يكون حقيقاً بالصفتح .

ولقد قسمنا المصنف إلى ثلاثة وعشرين كتاباً ، وكلا من هذه الكتب إلى عدد معين من الفصول حتى يسهل على القارىء الحصول على ما يبحث عنه في أجزائه المختلفة . وفي عزمنا ، إذا قدر الرب لنا البقاء ، أن نضيف من وقت لآخر ، إلى ما كتب من قبل ، الأحداث المعاصرة التي قد تبرز أهميتها تطورات المستقبل . وسوف نزيد كذلك في عدد الكتب بحكم ما قد يقتضيه حجم المادة الموضوع .

ونعتقد ، ونحن غير مخطئين في اعتقادنا ، أن هذا الكتاب ، يشهد على عدم خبرتنا . فإننا عند تدوينه ، رغبة في اطاعة ما تحياه العاصفة ، أظهرنا من النقص ما كان من المحتمل أن يبقى خافياً ، لو أننا التزمنا الصمت . ومهما يكن من أمر ، فإننا نؤثر أن نبدوا مفتقرين إلى ما يجلب الامراء بدل أن نقصر في خدمة العلم . وأن كثيرين ممن يأتون إلى العرس ، دون أن يتحلوا بالصنعة الأولى ، يعتبرون أهلاً للجلوس إلى مائدة الملك . ولكن أولئك الذين يحضرون بين الضيوف دون أن تتوافر لهم الصفة الأخرى ، فإن عليهم أن يسمعوا الكلمات الآتية : وكيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس (١) ولعل الرب القادر وحده على أن يمنع ذلك برحمته الكريمة ، يحول دون وقوعنا في هذا المصير .

(١) انشدوا لهم هذه العبارة من الانجيل في موضع استكمال شرائط الايمان الحقيقي . انظر ،

ومهما يكن من أمر ، فنحن نترك جيداً أن الخطأ قرين دائم لملازمة الاطئاب ، وأن لسان العبد المسكين القاهى يكتبه فى الذاب . وعلى ذلك ، فإننا بروح المحبة الأخوية ، ندعو قارئ كتابنا ونستحثه بإسم المسيح ، أنه إذا وجد نقطة جديرة بالنقد ، ألا يتردد فى تقديمها ولكن برحمة حقيقية . فهو بتصحيح خطيئتنا سوف ينال لنفسه ثواب حياة خالدة (١) .

ولعل - القارئ - يذكّرنا فى صنواته ، وبذلك يحقق لنا شناعة عند المسيح ، حتى أننا كلما وقعنا فى خطأ فى هذا الكتاب لم يوردنا ذلك مورد الهلاك . ولعل مخلص العالم - المسيح - بفضل إحسانه الوفير ، ورحمته التى لا تغفل ، يغفر لنا بكرمه . فإننا كخادم بائس وغير ذى نفع فى بيته نشعر بالخاح ضميرنا فى لومنا ، ونحزن محقرن فى الخوف من حساب الرب .

(١) اعترف وليام هتا باسحق وقوعه فى الخطأ أثناء كتابته ، مما يشهد بخصائصه كعالم ، وهذا أمر غير شائع لدى الكتاب الاوروبيين فى الصور الوسطى . بل ان المؤرخ جريجورى التورى قد قد استترك للمعنة على كل من يدير ولوسطرا واحد فى تاريخه .

حول أهداف الجغرافية التاريخية واتجاهاتها الحديثة

للدكتور عبد الفتاح محمد وهيبة

قبل أن ينتهى العقد الخامس من هذا القرن أعلن ر . هارتشورن R. Hartshorne . فيلسوف الجغرافيا المعاصر — بعد شك وتردد — أن الجغرافية التاريخية قسم هام من أقسام الجغرافيا وأن جغرافية الحاضر تكتسب عمقاً ومعنى بالرجوع إلى جغرافية الماضى . وقد وضع هذا الاعتراف نهاية لشك المتشككين وكان تحية لما بذله الجغرافيون التاريخيون (خاصة فى أوروبا) من جهد وما قدموه من أعمال .

الحق أنه إذا كان اهتمام الجغرافيين ينصب على دراسة الأماكن — ما بها من تشابه وتباين وما يربط بين أجزائها من علاقات — فإنه لا بد وأن يتساءلوا عن كيف أصبحت هذه الأماكن على ما هى عليه الآن ، وكيف كانت حياتها فى الماضى . وسوف تكون الإجابة إذا ما أحسن تقديمها مدخلا إلى جغرافية الحاضر وعرضاً لجغرافية الماضى (أو الجغرافية التاريخية) . بيد أن أن لجغرافية الماضى هذه هدفاً ليس أقل قيمة وأهمية . ذلك هو تفسير مواقع الأشياء من سطح الأرض . لا جدال فى أنه قد لا تتطلب طبيعة الظاهرة أو العلم (توطن صناعة ، توزيع محاصيل ، اتجاهات خطوط النقل والتجارة) ونوع الموضوع أكثر من الرجوع إلى مجموعة الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحاضرة . ولكن كثيراً من المعالم الجغرافية تقتضى منا الرجوع إلى الماضى لئلا نرى كيف نشأت وتطورت حتى أخذت شكلها وتوزيعها الحالى . ومن أسف أن الجغرافية التاريخية لا تلقى من كثير من طلبة الجامعات والدراسات العليا تقديرأ كبيرأ . وربما كان مرجع ذلك إلى تلك التعميمات والاستنتاجات السطحية التى أعطت لعناصر البيئة الطبيعية وزناً عظيماً لا تستحقه عند تفسير الظواهرات

الجغرافية المختلفة . ولا نعى الجغرافيين التاريخيين أنفسهم من اليوم فقد أضحوا على ما يبدو في جعل ما هو موجود في الكتابات التاريخية في متناول الجغرافى الحديث .

الأهداف

مازال الجغرافيون على خلاف حول ماهية الجغرافية التاريخية وتختلف تفسيراتهم لها بقدر ما تتباين طبيعة بحوثهم وتبعاً لفهمهم لمعنى الجغرافية . ولكن يمكننا أن نجمل تعاريف هذا الفرع في ستة أو سبعة : ثلاثة منها قديمة سلفية لم يبق لها غير قيمتها التاريخية .

فهت الجغرافية التاريخية يوماً على أنها مرادف لتاريخ الجغرافيا كعلم ولكن هذا المفهوم أصبح في الوقت الحاضر غير مقبول على الرغم من دعوة سور C. Sauer (١٩٤١) إلى اعتبار البحث في تاريخ الجغرافيا هدفاً من أهداف جغرافية الماضي . (١) ولا يقلل ذلك من قيمة تاريخ الجغرافيا فهو دعامة أساسية من دعائم التفكير الجغرافى . وليس هناك — كما يؤكد هـ . كلارك H. Clark تاريخ بهم الجغرافى التاريخى أو أى جغرافى آخر أكثر من تاريخ الجغرافية نفسها (٢) . ولقد حاول ج رايت J. Wright في مقالاته وكتبه التى نشرت في الفترة بين ١٩٢٥ — ١٩٥٢ أن يجذب اهتمام الجغرافيين إلى تفهم تاريخ العلم والاستزادة منه . ولكن دعوته لم تجد قبولاً كافياً (٣) .

وفي القرن التاسع عشر كانت الجغرافية التاريخية تعرف بأنها «العلم الذى يدرس تاريخ الكشوف الجغرافية والخرائط» (بيكر Baker ١٩٣٦ ،

(١) Sauer, C. "Fore word to Historical Geography" Ann. Assn. Amer. Geog. 31 (1941) p. 5.

(٢) Clark, H. "Historical Geography" American Geog. Ed. P. James & F. Jones. Syracuse, PP 70 — 105.

(٣) Wright, J. "The History of Geography: A Point of view" Ann. Assn. Amer Geog. 15 (1925) pp. 192 — 201.

جلبرت Gilbert (١٩٣٢) (١) فسميت دراسة جونستون K. Johnston لتطور المعرفة بسطح الأرض (١٨٧٢) مثلاً «دراسة أولية في الجغرافية التاريخية A Sketch of Historical Geog. 1872». ولا يزال هذا المعنى قائماً في الأدب الجغرافي على القارة الأوروبية حتى اليوم. وكان طبعاً أن يكون ذلك هو هدف الجغرافية التاريخية ما بقيت الجغرافيا علماً بهم في الأساس الأول بوصف وتسمية المظاهر الجغرافية بالإضافة إلى اهتمامه بالمسح الكرتوجرافي والكشف الجغرافي. يشبه ذلك أيضاً مفهوم آخر يرى أن هدف الجغرافية التاريخية هو تتبع التغيرات في الحدود السياسية وما يتصل بذلك من أسماء للمعارك والغزوات التي أدت إلى كسب إقليم أو فقدانه.

هذا المعنى كان في الحقيقة انعكاساً لتطور في علم التاريخ انصب على دراسة حقائق التاريخ السياسي والقوى. ويسود هذا النوع من الجغرافية التاريخية واضحاً مثلاً في كتاب فريمان (E. Freeman) Historical Geog. of Europe, 1881 وفي كتاب لميرو A. Mirot (١٩٢٩) تحت عنوان Geographie Historique de la France كذلك تمثل هذا المعنى في كتابات المدرسة الألمانية وتخص بالذكر مؤلف كرتشمير K. Kretschmer عن وسط أوروبا (١٩٠٤). غير أنه من الأنصاف أن نشير إلى أن مفهوم كل من فريمان وكرتشمير للجغرافية التاريخية كان أوسع وأعمق مما جاء في مؤلفيهما السابقين، فكرتشمير بالذات كان يرى أن من أهداف هذه الجغرافيا إعادة بناء الجغرافيات البشرية والإقليمية الماضية.

أما عن الأهداف الأخرى المتباعدة لجغرافية الماضي فلا يمكن رفضها بسهولة كما رفضنا السابقة ويمكن إحمالها فيما يلي :

(1) Baker, J., "The Last Hundred Years of Historical Geography" History, N.S. 129 (1936) pp. 193 -- 207.

Gilbert, E., "What is Historical Geography ?" Scott. Geog. Mag., 48, 1932, p.p. 129-136

١ - دراسة المظهر الخارجى المتغير لبيئة .

The Changing Landscape.

٢ - إعادة بناء جغرافيات الماضى .

Reconstruction of Past Geographies.

٣ - دراسة التغير الجغرافى خلال الزمن .

Geographical Change Through Time.

٤ - توضيح أثر الجغرافية فى التاريخ .

The Geographical Factor in History.

وقبل أن ندخل فى مناقشة هذه الأهداف أو التعاريف ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ما يلى من ملاحظات :

(أولاً) أنه يقل من قيمة كل هذه التعاريف أو المفاهيم صعوبة إطلاق صيغة واحدة على عدة وجهات نظر (لكل وجهاتها) وحل كل تعريف لبعض معنى الآخر . وإذا كان من الصعوبة بمكان أن نصف كثيراً من الدراسات فى ضوء مفهوم واحد فإنه لمن المفيد تحديد المفاهيم بالشكل السابق لأن ذلك يبعدنا عن خطر الوقوع فى خلاف مصطلح نشأ بين وجهات نظر ليس لها أساس من الواقع .

(ثانياً) من الواضح أن كل مفهوم من المفاهيم السابقة هو فى حد ذاته انعكاس لتعريفنا للجغرافيا بعامة . فكل تعريف يبدو وكأنه يرتبط بالجغرافية ككل ارتباطاً منطقياً لا يخلو من انجم ولكن فى نفس الوقت نادراً ما يسير فى خط واحد مع تطور المعرفة الانسانية بكل شعباته وعنونه . فالقيام بأبحاث لا تقع فى صلب الجغرافيا ولكن على هوامشها قد توثق ثمارها ولكنها فى الأغلب لن تكون جغرافية وإنما هى تابعة للعلم أو العلوم التى استمدت هذه الأبحاث منها مدتها . لنقل أن اهتمام المؤرخين أو الجغرافيين بموضوع من الموضوعات قد يتوقف على محض الصدفة أو قد يرجع إلى نوع الفهم السائد لطبيعة كل من الجغرافية والتاريخ بل ربما يشترك الجغرافى مع المؤرخ فى موضوع ما لأنه وليد الجغرافيا والتاريخ معاً .

١ - المظهر الخارجى المتغير (١) ؛ "The Changing Landscape" لا جدال فى أن فهم الجغرافيا على أنها دراسة للمظهر الخارجى للبيئة - وبالتالى اعتبار الجغرافية التاريخية دراسة للمظاهر الخارجية المتغيرة خلال الزمن - قد أسفر عن أعمال مثمرة وأفكار جديدة طية على الرغم من النقص المنهجية. وليس هنا مجال التنقيب عن نشأة هذا المفهوم فى مباحث وفلسفات الـ *Landschaft* الألمانية أو الـ *Paysage* الفرنسية . ولا نحن بصدد عرض للمناقشات الحادة حول مسائل الملاحظة وما يعنيه اللجوء إلى مدخل سهل يقضى على الثنائية فى الجغرافية . فالجغرافية التاريخية كدراسة لتغير المظهر الخارجى للبيئة هى كما أوضحنا امتداد منطقى لهذا المفهوم عرف وطبق قبل سنة ١٩١٤ فى كتاب ج. برون *J. Brunhes* (٢) ثم تطور فى فترة ما بين الحربين العالميتين ويظهر ذلك فى الجزء الأول من كتاب هانوتو *C. Hanotaux* «تاريخ الأمة المصرية» ١٩٣١ ، الذى يمثل مدخلا عاماً للجغرافيا التاريخية لمصر (٣) . وبمرور السنين كسب هذا المفهوم مؤيدين جدداً قاموا بتفكيكه وتوضيحه . ولقد أعطى داربى *H. Darby* لهذا المعنى عمقاً وأصالة ووضع له منهجاً واضحاً ويتمثل ذلك فى مباحثه المحلية الخاصة بأثر قطع الغابات ومجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضى البور وقيام المدن والصناعة فى تطور المظهر الخارجى (٤) .

(١) من أمثلة تلك الأبحاث مايجريه الجغرافيون والمؤرخون حول موضوعات مثل النظم المحلية وتاريخ المظاهر الخارجية نرىف .. الخ .

(٢) *Brunhes, J. La Géographie Humaine, Paris 1910* (٢)

(٣) *Hanotaux, G. Histoire de la Nation Egyptienne, T. I Paris 1931.* (٣)

(٤) يبدو من استعراض أبحاث داربى ومؤلفاته أنه لم يلتزم خلال حياته العلمية بمفهوم واحد ولا منهج معين فقد فهم الجغرافية التاريخية يوماً على أنها إعادة بناء جغرافيات الماضى وفى نفس الوقت قام بأبحاث محلية فكشف عن اهتمامه بتصوير التطورات التى حدثت لبعض عناصر المظهر الخارجى - راجع له :

An Historical Geography of England before 1800, 1936

The Medieval Fensland, 1940.

The Changing English Landscape" Geog. J. 117 (1951).

ولعل أهم ما يتميز به هذا المذهب هو وضوح الحقائق الجغرافية مما يحسم الخلاف والخلط بينها وبين التاريخ الاقتصادى وهو أمر كان فى الماضى مثاراً للشكوى . ويتميز أيضاً بالضغط على أهمية معالم المظهر الخارجى بل هى عنده الحقائق الأساسية بالنسبة للجغرافيا . بيد أن ثمن هذا الوضوح واكتمال الوحدة الجغرافية فى المظهر الخارجى كان إلى حد ما على حساب الإنسان كمحور أساسى فى الدراسة الجغرافية . فقد اتسع شأنه ليصبح مجرد عامل غير مرن يودى وجوده إلى ظهور معالم جديدة فى المظهر الحضارى للبيئة. مثله فى ذلك مثل العوامل الطبيعية التى تؤدى إلى زحف التربة أو تكون الكيان الرملية . دور الإنسان بالتأكيد أخطر من ذلك فهو ليس عاملاً جيمورفولوجياً خلافاً فقط بل هو فى حد ذاته عنصر هام من عناصر البيئة ان لم يكن أهمها جميعاً .

وإذا ما تركنا موقف هذا المذهب من الإنسان جانباً ، فإننا سنلاحظ أن هناك نوعاً من التشابه فى الغرض والمهدف بل فى الأسلوب بينه وبين الجيمورفولوجيا الأصولية (التطورية) Genetic Geomorphology فكلاهما يبحث فى تطور معالم البيئة وكلاهما يهدف كما يقول داربى (١٩٥٣) إلى وضع قواعد للجغرافيا - مجرد قواعد مثينة ترتكز عليها فى النهاية معارف أفضل (١) . هذا التشابه ربما يدعو الباحثين إلى إمعان النظر فى مشاكل التبدل والمهيج . فالجيمورفولوجيا الأصولية تسمى فى البدء لفهم معالم المظهر الخارجى Landscape عن طريق ترتيبها بالنسبة لأسلوب وتوقيت ظهورها ونماذجها . فعليها رسم صورة دقيقة للأحوال الماضية التى ساعدت على ظهور أشكال السطح وذلك فى ضوء ما عرف الآن عن العمليات التى تساعد على ظهور هذا الأشكال .

أما نوع الرواسب وتركيب الصخور بالنسبة للجيمورفولوجيا الأصولية مثلها فى ذلك مثل الوثائق بالنسبة للجغرافية التاريخية - فعناصر تنقى ضوءاً

(1) Darby, H. "On the Relations of Geography & History, Trans: Inst Brit Geog., Pub. No. 19, 1 - 13.

من الخارج على أشكال السطح . ومن الواضح أن الجغرافية التاريخية بمفهومها الذي ناقشه يمكن أن تحرز تقدماً وتعيد تصوير المظاهر الخارجية للبيئات الماضية من دراسة وتحليل طريقة ظهور المعلم واتخاذ مكانه من سطح الأرض وشكله الخارجى ثم تاريخه - أسلوب الجيومورفولوجيا التطورية عينة (١) . وليس من شك في أن التركيز على دراسة هذه المعلم وتفسيرها قد أسهم في انراء الفكر الجغرافى وفتح مجالات جديدة للتطبيق المنهجى خاصة فيما يتصل بأشكال المدن وانماط السكن الريفى وأشكاله . بقيت نقطتان في هذا الموضوع . الأولى : أنه أحياناً ما يبدو أن اهتماماً أكثر مما يتوقع يوجه إلى عناصر المظهر الخارجى تكون في حد ذاتها أما قليلة الشأن أو أن أهميتها ثانوية بالنسبة للجغرافيا . فأشكال سطوح المساكن وأنواع المساكن هى على سبيل المثال قليلة الشأن في ذاتها ومع ذلك يوجه إليها ضوء قوى . والعناصر الجبلية في البيئة الريفية أو المدنية (تنسيق الحضرة تنظيم الشوارع بشكل اشعاعى ونخطة الباروك) والأشكال المعمارية والزخرفية في المدن) هى من ناحية ثانية ذات أهمية ثانوية بالنسبة لنا نحن الجغرافيين فضلاً عن أن استقصاء أصولها قد يبتنى بنا إلى متاهات التاريخ الاجتماعى وتاريخ الفنون . والثانية هى أنه عند محاولة تصوير مرحلة من مراحل تطور المظهر الخارجى لا يكفى سرد الحقائق التاريخية والأثرية وترتيبها وفق مقياس زمنى . وإنما يجب أن نستلهم من الواقع المعاصر الشيء الكثير عما كانت عليه الأحوال في ذلك الزمان وذلك بالتحليل والمقارنة . بهذه الطريقة - وهى صعبة مضنية - نستطيع أن نبني جسراً قوياً بين الماضى والحاضر ولا نخشى الزلل .

٢ - إعادة بناء جغرافيات الماضى

The Reconstruction of Past Geographies.

لعل أكثر مفاهيم الجغرافيا التاريخية شيوعاً هو الذى يفيد بأنها العلم

(١) لم يكن أتباع هذا المنهج بذلك بل استعاروا - ربما أرضاء لغورهم - المصطلحات الجيومورفولوجية . فاستعاروا كلمات مثل التركيب structure والدورة stage والمالية process والمرحلة cycle .

الذى يسعى لإعادة بناء جغرافيات الماضى . ولا نقصد بجغرافيات الماضى الدراسات الإقليمية فقط بل كل فروع الجغرافية الحديثة من طبيعية وبشرية يتضح ذلك مثلا من قراءة كتاب :

"The Historical Geography of England before 1800"

الذى نشر سنة ١٩٣٦ تحت إشراف داربى (١) H. Darby وكتاب د . براون Mirror for Americans, 1943 الذى يرسم فيه صورة دقيقة لجغرافية الساحل الشرقى عام ١٨١١ لشاهد عيان وهى عاش فى تلك السنة واعتمد على المصادر المعاصرة . ويمكن أن نضم إلى هذين العملين كتاباً ثالثاً سماه صاحبه Geohistory ذلك هو كتاب ف . براندل F. Brandel الذى يعالج جغرافية عالم البحر المتوسط فى النصف الثانى من القرن ١٦ . هذه بعض الأمثلة الرائدة لمؤلفات فهمت الجغرافية التاريخية هذا الفهم . والحق أن هذا التعريف قديم عرفته المدرسة الألمانية بشكل أو بآخر منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر (ثيمر ١٨٨٥ J. Wimmer) ثم تبناه ماكندر (١٨٦١ - ١٩٤٧) H. Makinder مؤسس المدرسة الجغرافية الحديثة فى بريطانيا . ومن كلماته المأثورة فى هذا الشأن « الجغرافية التاريخية هى دراسة الحاضر التاريخى Historical Present . على الجغرافى أن يحاول أن يضع نفسه فى الحاضر الذى كان . ليكون لدى ألف أو ألفى عام . عليه أن يحاول إعادة بناء ذلك الحاضر » . وقد تمسك جلبرت Gilbert بأراء أستاذه ماكندر فكتب يقول سنة ١٩٣٢ « ان مهمة الجغرافية التاريخية هى اعطاء صورة للجغرافية الإقليمية الماضية » (٢) . وفى الولايات المتحدة كان د . وتلزي (١٩٢٩) D. Whittlesey ور . هارتسهورن ١٩٥٩ R. Hartshorne من المقتنعين بسلامة هذا التعريف . وينصح وتلزي « بأنه من الضرورى أن تسبق أو تلتحق دراسة فترات الطمأنينة والسلام فترات التغيرات الواسعة كما لا يجب أن نهتم بديناميكية التطور وإنما بوصف وشرح

(١) يرى داربى أن أبواب هذا الكتاب يمكن أن تكتب الآن بطريقة أفضل لو اتبعت الطريقة الموضوعية ولو تم الاستفادة من كل الوثائق والخرائط القديمة ونتائج العلوم القريبة .

Gilbert, E. op. cit., pp. 129 - 136

(٢)

العلائق الجغرافية المتبادلة لفترة محددة من فترات التاريخ؛ (١) . أما ر . هارتسهن فورمند كان مثسككاً في شابه (١٩٣٩) في قدرة الجغرافيا على تصوير ماضى من ظاهرات بل كان يشك في قيمة جغرافية الماضى بالنسبة لجغرافية الحاضر . ولكنه راجع نفسه بعد ٢٠ عاماً (١٩٥٩) فأكد قدرة الجغرافى على تصوير جغرافية الماضى وأعطى لها وزناً بين بقية أقسام الجغرافيا (٢) .

ولكن لماذا لقي هذا التعريف شيوعاً وتأييداً من كثير من الجغرافيين ؟ يفسر ذلك بما اكتشفه الجغرافيون من قيمة عند إعادة بناء جغرافيات الماضى . فبرسم قطاعات جغرافية متتالية لمنطقة ما خلال الزمن يخلق ما يمكن أن يسمى جغرافيا مقارنة يتضح فيها كيف استغل الإنسان عناصر ثابتة (نسبياً) كالموقع والتربة والمناخ وهو ما زال في مستويات تكنيكية متفاوتة وفي ظل أوضاع اجتماعية وسكانية متغيرة . وهكذا تظهر العلاقة بين الإنسان والبيئة باجلى معانيها . قيمة أخرى ، هى أن إعادة بناء جغرافيات الماضى ضرورى إذا ما أريد فهم العلاقة بين الماضى والحاضر فهما تماماً . ذلك أن بعض عناصر المنظر الجغرافى التى تظهر كاستجابات لظروف مؤقتة تكون عادة إما ثابتة الشكل أو ذات آثار بعيدة في التاريخ . وفهم الحاضر يتطلب منا دراية بجغرافية الفترة التى ظهرت فيها هذه العناصر وتمت . لعل الرضوح هو أهم خصائص هذا التعريف ولكن معرفة أسباب وضوحه وتميزه يتطلب منا وقفة قصيرة . الوضوح والتميز يتوقفان على اعتبارات تتصل بطبيعة التفسير وطريقة الشرح في مجال كل من الجغرافيا والتاريخ . اعتبارات لم تكن كلها في يوم من الأيام واضحة تماماً . بنىء من الاختصار هناك اتفاق عام على أن الجغرافيا تهتم في الأساس الأول بالعلاقات المتبادلة بين الظاهرات التى تلوسها . قال بذلك أو ما يشبهه

(١) يلاق رأى وتقزى هذا اعترافاً مزدوا أن أبحث الجغرافى لا يفضحه أن تكون العلاقات الثابتة أو فترات عدم التغير متلفاً نه على يجب أن تحيط الدراسة بالثابت والتغير من الأسباب .

(٢) راجع Hartshorne, R. 1939, The Nature of Geography, Lancaster, pp. 115 — 84, Perspective on the Nature of Geography, Chicago, pp. 101 — 107.

الكتاب الألمان في القرن التاسع عشر (فيبر ١٨٨٥) والكتاب الفرنسيون ديمانجون Demangeon وللانو Le Lannou وماكس مور Max. Sorre والبريطان (ماكندر Makinder) وأخيراً هارتسهورن Hartsborne في الولايات المتحدة .

وإذا كان من خلاف بين كل هؤلاء فهو حول ما إذا كان عل الجغرافيا أن تهتم بالدراسات الأصولية (التطورية) أو العمليات التي أدت إلى التغير . فثيبر وماكندر وهارتسهورن (١٩٣٩) يرون أن كثيراً من الدراسات الأصولية التطورية تدخل في باب التاريخ ويجب أن تحذف من الجغرافيا ما أمكن ذلك . انطلاقاً من هذا المعنى فإن الجغرافية التاريخية تظهر بوضوح كسلسلة من الصور الزمنية رسمت بطريقة تجعلها مختلفة تماماً عن صور أخرى تاريخية لنفس المكان في نفس العصر . بيد أن في هذا الرأي مغالاة حادت به عن المنطق . إذ كيف يكون من اختصاص الجغرافيا أن يدرس في الوقت الحاضر كيف تعمل صناعة ما أو كيف تمهي مدينة ثم لا يكون من اختصاصه أن ينظر في كيف ظهرت هذه الصناعة أو تلك المدينة في بقعة معينة من الأرض . اعتراض منطقي آخر . إن الاختلاف أو التعارض بين الدراسات التجريبية من ناحية والتطورية من ناحية ثانية هو اختلاف مظهرى أكثر منه حقيقى . فالدراسات التطورية تعنى في الواقع بمعالجة أحد مركبين اثنين متباينين . فهى أما تحاول أن تصور ما كانت عليه العلاقات المتبادلة في فترات من الزمن (١) أو تحاول أن تدرس تطور الأوضاع Situations باستمرار خلال الزمن . وهذا يستدعى إحاطة تامة بتتابع حلقات التاريخ مما يمكن بالتنبؤ بما سيكون عليه الوضع في المستقبل لو استخدمنا الطريقة المنطقية Dialectical method .

(١) تدرس مثلا كيف توارست النمط مواعيد الصناعة مع الظواهر الطبيعية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية في فترة من فترات التاريخ .

الجغرافية الأصولية إذن تسمى لتوضيح بلى وتحريك الصور الزمنية وذلك بتحديد التغيرات المتدخلة خلال الفترات التاريخية وضوابط هذه التغيرات الاجتماعية كانت أم اقتصادية . كيف إذن نسمح بأن يحمل الجانب التطوري من الجغرافيا التاريخية وهذه قيمته وهذا هدفه . يبدو أن هذه النتيجة أصبحت موضع اعتبار جمهرة الجغرافة بما فيهم هارتشورن نفسه (١٩٥٩) .

٣ - التغير الجغرافي خلال الزمن

Geographical Change Through Time

لا جدال في أنه في كثير من الحالات يقف الجغرافي التاريخي موقفاً ربما لا يختلف كثيراً عن موقف المؤرخ وذلك عندما يركز اهتمامه على دراسة التغيرات التي حدثت لعنصر أو لمعقد من العناصر المتغيرة بهدف تقويم الدور الذي لعبه العنصر (أو مجموعة العناصر) على أساس أن موضوع الجغرافي هو المكان والمؤرخ المجتمع . ويلقى كلارك A. Clark (١٩٦٠) الضوء على هذه النقطة حين يدعو إلى الاهتمام بوصف العمليات Processes التي أدت إلى تغير عناصر معينة في البيئة خلال الزمن يعتقد أنها هي التي أعطت لها ملامحها المميزة .

الحق أن الحديث عن تعريف الجغرافية التاريخية بأنها دراسة لتغير الجغرافيا خلال الزمن حديث طويل يمكن أن يرجع إليه القاريء في بحث لكلارك نشرته جمعية الجغرافيين الأمريكيين ضمن مجموعة أبحاث تحت اسم : American Geography - Inventory & Prospect, 1954 (١) . ولكن يهنا أن نشير إلى أن ما دعى إليه كلارك هو ما سبق أن سار عليه بعض الجغرافيين التاريخيين في دراساتهم الخاصة بالسكن وتغير مواقع الصناعات ونمو المدن إلى غير ذلك من الموضوعات . ومهما يكن من أمر هذا التعريف فإنه يميزه قلة العثرات المنهجية ومرونته وعدم صرامته . ولكن يعيبه أنه يقدم

(1) Clark, A., "Historical Geography" chap; 3 -- American Geography - (Ed) James, p. & c. Jones, Syracuse, 1954.

حلولاً جزئية ويوسع مجال الدراسة دون طائل . فليس يكفي أن نضغط على دراسة التغير ذاته إذ على الرغم مما تكشف عنه دراسة الظروف المتغيرة من وضوح في الرؤية بالنسبة لقيمة ووظيفة الموقع أو مصدر الثروة (١) فإنه يجب أن يسبق الحديث عن هذه التغيرات عرض للظروف المؤثرة (٢) وإبراز كيف أن الأشياء التي تهتم الجغرافيين في الأمكنة والأزمنة مترابطة .

٤ - أثر الجغرافيا في التاريخ

The Geographical Factor in History

في السبعينات من القرن التاسع عشر كتب فيمر Wimmer يقول أن أهم أغراض الجغرافيا التاريخية غرضان :

١ - أثر العامل الجغرافي في توجيه التاريخ .

٢ - جغرافية الفترات التاريخية السابقة .

والغرض الأول هو الذي نحن بصدد دراسته وتحليله الآن . أغلب الكتابات التي تعالج أثر الجغرافيا في التاريخ ، وهي كثيرة تستخدم صفة «جغرافي» استخداماً عاماً غير سليم يجعل الدراسة لا تختلف كثيراً عن تلك التي ترمى إلى إعادة بناء جغرافية الماضي كقائمة لفهم أحداث التاريخ . ومن الذين نجحوا في توضيح أثر الجغرافيا في التاريخ وتلزمى D. Whittlesey في 'Sequent Occupance, 1929' وكذلك إيست 'Historical Geography of Europe, 1935' فقد فهما أثر الجغرافيا في التاريخ حق الفهم وأعطياه حقه من الأهمية . ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فكثيراً ما يفسر العامل الجغرافي على أنه عامل طبيعي . هنا تتحول دراسة أثر الجغرافيا في التاريخ إلى دراسة حتمية مقلعة تتبع السبب بالنتيجة وتعني بتوضيح أثر

(١) مثال ذلك الاستخدامات المتتابعة لوسائل النقل البحرية والنهرية والجوية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

(٢) كأن يسبق دراسة تنابيع وسائل النقل المختلفة في الولايات المتحدة عرض لتجارة أمريكا الشاذية في القرن التاسع عشر .

العامل الجغرافي في نشاط الإنسان في الماضي وأثره في التاريخ وفي تتابع الأحداث التاريخية .

ولقد سار لفيف من الجغرافيين والمؤرخين على هذا النهج ولكن من ناحيتين مختلفتين . ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان نمو الدراسات المتصلة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي أبلغ الأثر في دفع المؤرخين إلى الاهتمام بالحياة اليومية للمجتمعات الغابرة . ومن ثم كان انشغالهم بتلك الأنشطة والمعالم التي يهتم بها الجغرافيون كالزراعة والصناعة والتجارة والسكن وطرق المواصلات . بل إن اهتمامهم اتسع لينتظم بعض حقائق الجغرافيا الطبيعية التي ترتبط ببعض الرباط بتلك الأنشطة والمعالم . ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كتاب سمث "Historical Geog. of the Holy Land, 1894" C. Smith فقد حاول المؤلف أن يكشف عما تقدمه الجغرافيا من تفسيرات لبعض ما جاء في التوراة بل وأثر البيئة على الفكر الديني . كذلك أوضح جورج H. B. George في بحثه في العلاقات بين التاريخ والجغرافيا (١٩٠١) Relations between History and Geography أن الجغرافيا تقدم معلومات قيمة لحل المشاكل التاريخية . ومن الواضح أنه طالما ظلت الجغرافيا تفهم على أنها أساساً علم العلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة فإن ليفاً من الجغرافيين كان في استطاعته أن يكتشف بسهولة استجابات من الإنسان للبيئة الطبيعية في سجلات التاريخ بل وفي كتابات الحاضر . وكان ذلك بمثابة خطوة نحو وضع ما زعم أنه قوانين جغرافية . ينطبق ذلك على الخصوص على كتابات مس سميل (١) E. Semple . فالختمية الجغرافية فيها صرامة والمقتطفات التاريخية بها كثرة . ومن ناحية أخرى فإن دعاة الإمكانية اعتمدوا على التاريخ كمصدر يمكن الرجوع إليه لجمع المعلومات اللازمة وذلك بالنظر في طرائق استخدام المجتمعات البشرية لبيئاتها عبر الزمن واحتمالات استثمار هذه البيئات .

(١) Semple, E. American History and its Geographic conditions Boston, 1933

The Geog. of the Mediterranean Region : its Relation to ancient history 1931

(٢) عبد الفتاح وهيب - الجغرافيا البشرية - تطورها ومنهجها بيروت ١٩٦٦ ص ١٩

ولم يكن ذلك غير مقدمة للدراسة نفس المكان في فترات مختلفة من التاريخ وقد انصب الاهتمام في هذه الدراسة على مدى استخدام الموقع والثروات تحت ظروف اجتماعية واقتصادية وتكنية متباينة أشد التباين . شبه بذلك تلك المباحث القيمة التي قام بها ليف من جغرافي المدرسة الانقلابية الفرنسية . ولكن ما أن نبلغ دراسة أثر الجغرافيا في التاريخ هذا المستوى من التفسير والشرح (خاصة بالنسبة للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) حتى يتلاشى الفرق بينها وبين تلك التي تنظر إلى الجغرافية التاريخية على أنها «إعادة بناء جغرافيات الماضي» .

ومهما يكن من أمر فقد تعرض مفهوم الجغرافية التاريخية بالمعنى السابق لاعتراضين سابقهما ر . هارتسهورن عام ١٩٣٩ . الأول وهو منطقي ، أن شرح أثر العامل الجغرافي في توجيه التاريخ هو عمل المؤرخ قبل الجغرافي ذلك لأن المؤرخ ربما يكون أكثر استعداداً وأفضل تأهيلاً لتحديد قيمة العامل الجغرافي بالنسبة لبقية العوامل (١) . الاعتراض الثاني وهو سليم إلى حد كبير ، إن جغرافية الماضي بهذا المعنى تسعى لتفسير التاريخ وليس الجغرافيا . وأخيراً ربما نضيق أيضاً مع سور C. Sauer (١٩٤١) على أن هذا النوع من الجغرافيا التاريخية لن يكون أكثر من دمج عمل المؤرخ بطابع جغرافي حتمي هو في غنى عنه (٢) .

والآن ما هي النتائج التي يمكن أن نستخلصها من تحليلنا السابق لمختلف مفاهيم الجغرافية التاريخية ؟ . لعل أهم هذه النتائج هو أنه لا يوجد في الأفق وربما لن يوجد حل «مذهبي» لمشاكل الجغرافيين التاريخيين . كما أنه لا توجد صيغة تحسم بين ما ينسب إلى الجغرافيا وما ينسب إلى التاريخ . لتكن المشاكل غير هينة والخلود بين التاريخ والجغرافيا مانعة ولكن الذي له وزن وأهمية هو مدى إسهام الجغرافيين أنفسهم في إثراء المعرفة الإنسانية شريطة أن يكون

(١) هذا الرأي هو وليد اقتناع هارتسهورن بأن غرض الجغرافي هو دراسة العلاقات المعقدة المركبة وليس بذل الجهد في البحث عن الأسباب . راجع

Sauer, C., Foreword to Historical Geography, Ann. Assn. Amer. Geog., 31: 1941, pp. 1 — 20 (٢)

اهتمامهم منصباً على الأماكن وما كانت عليه وليس على الناس وما كان بينهم من علاقات . ثانياً — كل تعريف من التعاريف السابقة ساد في فترة ما وكان في الحقيقة انعكاساً لنظرة الأغلبية فيما يختص بطبيعة الجغرافية بل وبماهية الشرح والتعليل . ثالثاً — كل تعريف أسهم في تطور الجغرافية أو التاريخ أو هما معاً .

هذه مرحلة . مرحلة أخرى في حياة الجغرافية التاريخية بدأت مؤخراً بظهور اتجاه إلى عدم التقيّد بمفاهيم محددة فيما يتصل بطبيعتها ومحتواها أملاً في فتح الطريق أمام دراسات غير متزمنة ولا ملتزمة بمنهج معين في التنظيم والعرض (١) . وإن دل هذا الاتجاه على شيء ففعل مبلغ ما نحته الجغرافية التاريخية من رغبة في التخلص من مناهج صارت بائدة . ويقترح داربي (١٩٦٢) صاحب مذهب اللاملتزمة طريقتين لمعالجة مختلف الموضوعات لكل مميزات واستخداماتها الأولى وهي الطريقة الرأسية *The Vertical Treatment* (أو الموضوعية *Topical*) وتعني بثني مدى التغير الذي لحق العناصر الجغرافية (مكن ، زراعة ، طرق .. الخ) على مر الزمن . هذه الطريقة وإن كانت لا تظهر وحدة البيئة بجلاء إلا أنها تعرض عناصرها وكذلك النشاط البشري بغير تكرار وبكثير من العمق (٢) . أما الطريقة الأخرى للمعالجة فهي الطريقة الأفقية *The Horizontal Treatment* وهذه تقسم الزمن إلى عصور وتعالج جغرافية كل فترة على حدة (٣) . هذه الطريقة وإن كانت تحاول أن تصور الجغرافية كوحدة إلا أنها تعجز عن تفسير كل عناصر البيئة كما أنها لا تحلّ من التكرار . ومهما يكن من شيء فإن طبيعة الموضوع هي في رأي داربي التي تحدّد أي الطريقتين أفضل وأمثل (٤) .

(١) Darby, H. "The Problem of Geographical Description" trans. Inst; (١) Brit. Geog. Pub, Nk. 30, 1 — 13

(٢) راجع المقدمة في كتابي دراسات في جغرافية مصر التاريخية الإسكندرية ١٩٦٢ .

Darby, H. (1953) op., cit., p. 11

(٣)

الاتجاهات الحديثة

إن من ينظر في أدبيات الجغرافية التاريخية خلال العقود الأخيرة سيجد فيها كل تلك الأفكار السابقة ماثلة . فالكشف عن العلاقة بين الإنسان والبيئة كان منذ القرن التاسع عشر ولازال مطلباً أثيراً لدى الجغرافيين وشجع بالتأكيد على الاهتمام بدراسة الشعوب البدائية ومواطنها حيث يظهر مدى التكيف مع الطبيعة أوضح منه بين مجتمعات غرب أوروبا الصناعية . كذلك كان البحث في جغرافية " ما قبل التاريخ " مجالاً لظهور أثر الموقع والتضاريس والتربة والتصريف النهري وموارد المياه على أعمال الإنسان . لكن حدث في السنين الأخيرة تحول عن جغرافية ما قبل التاريخ التي عرفها رجيل من الجغرافيين البريطان مثل فلور فوردي Daryll Ford وداريل فوردي Daryll Ford وولدرج Wooldridge ربما لأن مؤرخي ما قبل التاريخ تعلموا دروساً في الجغرافية الحديثة .

وكما سبق أن أشرنا ظل مفهوم الجغرافية التاريخية كدراسة جغرافية الماضي هو الشائع لمدة طويلة وسوف يظل كذلك لمدة أطول . ذلك لأن نتائج الجغرافية التاريخية وفق هذا المعنى تسد فجوة بين معطيات كل من التاريخ المحل المحدود والتاريخ الاقتصادي العام . فضلاً عن أن الدراسة ذاتها تركز على الاختلافات الإقليمية وتهم عادة بتوضيح قيمة التباين الأرضي الذي يحفظه التاريخ الاقتصادي . وفي إطار هذا المفهوم ظهرت دراسات قيمة نذكر منها ما سبق أن أشرنا إليه وهو الكتاب الذي يعالج جغرافية إنجلترا قبل ١٨٠٠ م وقام بالإشراف على أعداده داربي في شبابه . وبالرغم من الجهود التي بذلها الجغرافيون التاريخيون البريطانيون لرسوم صور زمنية دقيقة لجزيرتهم معتمدين على ما حفظه التاريخ من سجلات إحصائية وخرائط وكتابات خلفها الرحالة وأوصاف طبوغرافية تركها العلماء وموظفو الدولة ، فلا زال هناك منيع لكثير من الدراسات المفيدة خاصة فيما يتصل بالسكان واستثمار الأرض . ولاشك أن هذه المباحث ستوثق ثمارها لو أفادت من السجلات الإحصائية (بعد تحقيقها) أكمل فائدة . فن

الإحصائيات والأرقام القديمة تستمد الخرائط وما تكشف عنه من توزيعات وظاهرات قيسها وعلى هدى هذه الخرائط يمكن البحث في وضع تقسيم إقليمي يحل محل التقسيم الإداري الحالي يتفق مع الأوضاع القديمة ويكون إطاراً لتوقع مختلف التوزيعات الماضية .

أما الدراسات التي تهتم بالبحث في تطور ملامح المظهر الخارجي وتلك التي تعالج التغير الجغرافي خلال الزمن فقد فتحت الباب أمام دراسات «موضوعية» تتعلق بتطور الزراعة والسكن والتجارة والصناعة . ويرجع الفضل في تقدم الأبحاث التي تعالج التغيرات في عناصر البيئة خلال الزمن إلى الرغبة في تتبع أصول الأشياء بعمق وفهم جديدين وإلى الاعتماد على أدلة أخرى غير الوثائق مثل حبوب اللقاح وبقايا النباتات والإرسابات الحديثة . ومن بين الدراسات التي استفادت من الأدلة العلمية ما أُجرى في الأرض الواطنة حول تاريخ استصلاح الأرض بل وتطور استثمارها وما أُجرى في ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا حول قطع الغابات وتخفيف المستنقعات . فقد اقتضى البحث الاعتماد على الإرسابات الحديثة ودراسة حبوب اللقاح وبقايا النباتات . وباستثناء بعض الأبحاث (خاصة المناخية) فإن إبراز دور الإنسان في تغيير سطح الأرض (عن طريق تخفيف المستنقعات وري الأرض وقطع الغابات والزراعة) كان هدفاً أساسياً بل محورياً لكثير من المقالات والأبحاث نذكر منها كثال مجموعة الأبحاث تحت عنوان :

Man's Role in Changing the Face of the Earth-Ed-Thomas, 1955.

ولقد خطت جغرافية السكن الريفي والنظم الزراعية والحقلية خطوة واسعة بفضل الاهتمام الذي ركز على فهم وتحليل عناصر المظهر الخارجي. ونذكر أن ظهور الأعمال الرائدة في موضوعات السكن والنظم الحقلية في غرب أوروبا كان في الفترة بين أواخر القرن ١٩ وأواخر العشرينات من القرن الحالي . وبعد فترة من العقم كتب لها أن تنهض وتوثق ثماراً من جديد وذلك منذ بداية الحرب العالمية الثانية . قضى فرنسا والأراضي الواطنة وألمانيا والسويد وإنجلترا أحرز تقدم كبير ليس فقط في ميبل فهم أفضل للبيئات الريفية المعاصرة

ومشاكلها وإنما نحو معرفة أعمق بالظروف التاريخية التي نمت في ظلها النظم الحقلية والأنماط السكنية . بل إنه يمكن القول أن هذه الموضوعات هي اليوم من أكثر الموضوعات الجغرافية نمواً وتقدماً يعتمد على نتائجها مؤرخو التاريخ الزراعي الأوروبي (١) . وتطبق هذه الملاحظات إلى حد كبير على الدراسات المدنية . فقد شهد الجزء الأخير من القرن التاسع عشر موجة من الاهتمام بدراسة موضوعات مثل أصول المدن وماهية مؤسساتها . وكما فر الاهتمام بالدراسات السكنية الريفية قبل ١٩٣٩ فقد حدث مثل ذلك بالنسبة للدراسات المدنية ثم أعقب فترة التثوير هذه مرحلة من النشاط المتزايد وشارك الجغرافيين فيها من وجهات نظر متباينة — المؤرخون والآثريون والمهندسون والمعماريون ومخططي المدن . ويمكن القول أن كثيراً من الصفات التي رغبت وشجعت الجغرافيين على دراسة السكن الريفي هي التي أغرت بعض المؤرخين على دراسة تاريخ المدن خاصة فيما يتصل بالهجو والوظائف الاقتصادية وتغير وظائف الأحياء .

ماذا عن مستقبل الجغرافية التاريخية ؟

لعل تطبيق الطرق الإحصائية كان من أهم أسباب التقدم الحديث في أسلوب البحث الجغرافي والتاريخ (خاصة الاقتصادي) . فمن طريق تحليل الأرقام الخاصة بتوزيع الثروات والسكان ومناحي التقدم والرقى اكتسبت الجغرافيا قدراً كبيراً من العمق والواقعية ومن ثم فإن استخدام الإحصاءات على مجال أوسع في موضوعات الجغرافية التاريخية سيفيد في وضع قاعدة سليمة للمقارنة بين التوزيعات المختلفة في البيئة — أية بيئة — خلال التاريخ وفي التحقق من صدق المعلومات التي نحت أبدينا . ويتقدم الدراسات الخاصة بتحليل حبوب القمح وتركيب المواد العضوية وتاريخها (باستخدام الكربون ذي الوزن الذري ١٤) سوف تخطو الدراسات التاريخية المتصلة بالحياة النباتية والارسابات المختلفة مثل قطع الغابات وانجراف التربة خطوات واسعة كان لا يمكن أن تتم إذا اقتصر

(١) تقوم كل نشر صفحات من هذا التاريخ اليوم مجلات حديثة نسبياً مثل .

الشواهد كما كان العهد حتى وقت قريب - على وثائق غير كاملة وما تكشف عنه أحماء الأماكن . وفي دراسة السكن الريفي تظهر الحاجة أيضاً إلى مزيد من التعاون المنظم لكال الاستفادة من الأدلة التي تستقى من أكثر من علم . ويبدو أن جغرافية المدن أحرزت في السنوات الأخيرة تقدماً أكبر مما أحرزته جغرافية السكن الريفي ليس هنا مجال استقصائه . ولكن ما من شك في أن طريقة معالجة موضوع الموقع وتحليل توزيع المدن على الأرض ربما أوحى للجغرافى التاريخى بأفكار تنفع في دراسة جغرافيات الماضى .

ومن الواضح أن هذه الاتجاهات الجديدة سوف تخرج بالجغرافية التاريخية عن مفاهيمها التي تعرضنا لمضامينها العامة في الصفحات السابقة . والأمل كبير في أن تنفتح آفاق واسعة أمام الدراسات الموضوعية (الرأسية) خاصة فيما يتعلق بفهم واستيعاب العمليات التي يتم عن طريقها التغير الجغرافى خلال الزمن . وسيكون التطور السريع في استخدام طرق الاحصاء في جغرافية المدن (وعلى الخصوص فيما يتعلق بنظرية الموقع المركزى وبمجال نشاط المدينة وتوزيع الظواهرات المدنية المختلفة) بمثابة دافع قوى لمزيد من التطور في الجغرافية الجغرافية التاريخية للمدن والأمل كبير في أن يسهم الجغرافى التاريخى في درس مشاكل التخلف وأسباب التقدم والتبؤ بما سيكون عليه الغد . وإذا ما تحقق ذلك فسيكون عند الجغرافى التاريخى ما يقدمه لحسن فهم التاريخ وعنده ما يعز به لحسن فهم جغرافية الحاضر . ثم هو بعد ذلك كله لن يكون في عرف داربى قد أحرز نجاحاً يذكر لأن النجاح في كتابة الجغرافية التاريخية غير وارد "There is no such thing as success" وإنما الوارد والمأمول هو درجات من عدم النجاح "degrees of unsuccess" .

وفي الختام قد نسأل ما هو مركز الجغرافية التاريخية بين مواد أقسام الجغرافيا في الجمهورية العربية المتحدة ؟ كانت الجغرافية التاريخية أو بمعنى أدق «جغرافية ما قبل التاريخ» من الموضوعات الأساسية في برامج هذه

Darby, H., "An Historical Geography of England; Twenty Years After". (١)
R. Geog. J. vol. CXXVI, Part 2 June 1960 pp. 147 — 159.

المراجع

- Baker, J., "The Last Hundred Years of Historical Geography" *History*, New series, 1936, 21, 193 — 207.
- Bowen, E. Walter, *A Study in Geography and History*, Cardiff, 1941.
- Brown, R., *Mirror for Americans : Likeness of the Eastern seaboard, 1810*, N. 1943.
- , *Historical Geography of the United states*, N. Y: 1948.
- Clark, A. H. *Historical Geography, American Geography*, Ed, P. James & F. Jones, Syracuse, 1954, pp 70 — 105
- Garnish, V. *The Great capitals, An historical Geog.*, London 1923
- Darby, H. C. (ed) *An Historical Geog. of England before A.D. 1800* Cambridge, 1936.
- , *The Medieval Fenland*, Cambridge, 1940.
- , *The Draining of the Fens*, Cambridge, 1940
- , *The Changing English Landscape*", *Geog. J.*, (1951) 117, (1951), pp 377 — 398.
- , *On the Relations of Geog. and History*" *Trans. Inst. Brit. Geog.* pub. No. 19 (1953) 1 — 13.
- , *Historical Geog. twenty years after*, *Geog. J.*, 126 — (1960) pp 147 — 159.
- , *The Problem of Geographical Description*, *Trans; Inst. Brit. Geog. pub — No. 30 (1962), PP 1 — 13.*
- Dickson, B. & Howarth, O. *The Making of Geography*, Oxford, 1933.
- East, W. *Historical Geography of Europe*, London, 1950
- Forde, C. D. *Habitat, Economy and Society*, London 1952
- Freeman, E. *Historical Geography of Europe*, N.Y., 1881.
- Freeman, R. W. a. *Hundred Years of Geography*, London, 1961
- Gilbert, E. *What is Historical Geography*. *Scott. Geog. Mag.* 48, 1932.
- Hamdan, G. *Evolution of Irrigation Agriculture in Egypt*" *Hist. of Land use in Arid Regions*. Unesco, 1951.
- Hanoutchi, G. *Historic de la Nation Egyptienne*, T.I, Paris 1931.
- Hartshorne, R. *The Nature of Geography*, Lancaster, Pa., 1939
- , *Perspective on the Nature of Geography*, Chicago, 1959.

- Houston, J. A Social Geography of Europe, London; 1953.
- Huayyin, S. A. The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941.
- , Arabia and the Far East, Cairo, 1942.
- Le Lannou, M. La Geographie Humaine, Paris; 1941.
- Makinder, H. Britain and the British Seas, N.Y. 1902.
- Mirot, A. Manuel de la Geographie Historique de la France, 2 vols; Paris, 1929.
- Mitchell, J. Historical Geography, London, 1954.
- Peake, H., and Fleure, H. The Corridors of time, 9 vols London, 1927 — 1936.
- Sauer, C., „Foreword to Historical Geography; Ann. Assn. Amer. Geog, 31 — 1941) pp I — 20.
- , Agricultural Origins and Dispersals, Bowman Mem. Lects. ser; 2, Amer. Geog. Soc. N.Y. 1952.
- Sepple, E. M. The Geography of the Mediterranean Region. N.Y. 1931.
- Smith, C. T. Historical Geography, Frontiers in Geographical Teaching, ed., R. chorley and Haggett, London; 1965, pp. 118 — 143.
- Smith, G. A. The Historical Geography of the Holy Land N. Y., 1894.
- Wakiba, A. F. The Agriculture of Egypt during the Arab Period., London, 1952, (Unpublished M. A. Thesis).
- , An Outline of the Economic Geography of Egypt during the Middle Ages,, Bull. soc. Geog. de l'Egypte, T. xxx III, 1960.
- , Rice Culture in Egypt "A study in Historical Geography" Bull. soc. Geog. de l'Egypte, 1967 (under publication).
- Whitelsey, D. "Sequent Occupance", Ann., Assn. Amer. Geog, 19 (1929) pp. 162—3.
- Woodridge, S. and East, W. the Spirit and Purpose of Geography, London, 1951, pp. 80 — 102.
- Wright, J. The History of Geography: A point of view, Ann. Assn. Amer. Geog, 15, (1925) pp. 192 — 201.

بين الفنون والبيئة في كل من العراق ومصر

في عصورها القديمة

للدكتور محمد أبو الثعالب

لا جدال في أن العالم المتحضر يدين بالكثير من أسس حضاراته إلى ما توصل اليه الانسان من مظاهر حضارية في كل من العراق ومصر ، ويرجع الفضل في ذلك إلى أن الجماعات البشرية التي سكنت هذين القطرين وجدت في مياه أنهارهما ما يمكنها من الاعتماد عليها في صميم حياتها ويكفل لها الاستقرار ورغد العيش فتيأت لها سبل النهوض والرقى ، كما أن وقوع هذين القطرين في مركز متوسط من العالم القديم وسهولة الاتصال بهما جعلتا من اليسر انتقال مظاهر الحضارة منهما واليهما عبر الأقطار المجاورة - ونظراً لبلوغهما درجة رفيعة من الرقي فقد اندفعت مؤثراتهما الحضارية إلى غيرها من الأقطار ومع أن كلا من القطرين توصلتا إلى مظاهر حضارية متشابهة وفي أزمنة متقاربة فإن حضارة كل منهما انفردت بخصائص معينة فرضتها ظروف بيئتها الخاصة .

والفنون وإن اختلف الباحثون في تعريفها لا تخرج عن كونها كل إنتاج يرضى الذوق السليم ويشعر بالجمال ، فهي إذاً من أسس الحضارة ومن نتائجها في نفس الوقت وتخضع لمؤثرات البيئة - لأن إنتاج الانسان أياً كان نوعه يتوقف على تفاعله مع بيئته . ولذا تنوعت الفنون ونشبت مجالها في كل قطر وفي كل عصر بحيث لا يتسنى لفرد أن يلم بها في إقليم من الأقاليم وفي أي عصر من عصوره التاريخية . وعلى هذا فإن من المستحيل أن تتناولها جميعاً - في العراق ومصر - بالبحث وسنكتفي في هذا المجال بالحديث عن بعض فنونها الشكلية :

أولاً : في العراق

بيئة العراق من حيث الموقع هي في طريق الهجرات البشرية وخاصة من بينى الطرد الكبيرتين المجاورتين لها وأعنى بهما شبه جزيرة العرب وإيران أما من حيث السطح فإنها تنقسم إلى قسمين : شمالي تغلب عليه الطبيعة الجبلية وجنوبي هو عبارة عن سهل منبسّط تقطعه المجرى والمسطحات المائية بما أدى إلى انفصال أجزائه فعاش سكانه في جماعات بشرية متفرقة تجاهد كل منها في المحافظة على كيائها أو في فرض سيادتها على الجيران حسب الظروف فنشأت عن هذا الكفاح الدائم دويلات صغيرة أو حكومات مدن . ولم تحدث هذه الجماعات أو تتطور إلى دول كبيرة إلا لفترات محدودة من تاريخها الطويل.

وكان لهذا أثره بالطبع في حضارة وفنون العراق إذ كانت مواطن نموها مختلفة ولم تتطور على مسرح واحد بل تعددت مسارح تطورها . ولذا يميز الباحثون في تاريخ العراق وحضاراته بين مراحل أو أصول ثلاثة رئيسية هي : السومرية والبابلية والأشورية نسبة إلى العواصم التي تركزت حولها والمناطق التي كانت محور النشاط فيها — وتنعكس فنون العراق خلال هذه المراحل صورة واضحة عن البيئة وظروفها وما كان يسوده من حياة سياسية واجتماعية ووصلتنا إلى التعرف إلى هذه الفنون تنحصر في دراسة المخلفات الأثرية التي تدل عليها .

(١) العمارة الدينية :

تعد المعابد أهم المباني التي عثر على آثارها منذ أقدم العصور وهي في طرزها تعبر بجلاء عما ساد العراق من ظروف أثناء وجودها . فالمعبد كقر للاله هو أقدس مكان للجماعة لا تألوا جهداً في تأمينة والدفاع عنه . وهو رمز العقيدة والاله بل وكيان الدولة أيضاً — فمن أواسط العصر السابق للسلالات (في فترة حضارة العبيد التي ترجع إلى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق. م) كانت جدرانها ذات فجوات من الخارج على أبعاد منتظمة (شكل رقم ١) ولم يكن ذلك — فيما أرى — لمجرد الزينة بل لأن هذا النوع من الجدران في عصور لم تكن الأسلحة البعيدة المدى معروفة يفضل الجدران المستقيمة الخالية من

التفجوات في حالة الدفاع ، أى أن هذا الطراز المعمارى ذو أثر فعال في الدفاع لأنه يتيح للدفاعيين فرصة الاحتماء في تلك التفجوات ومباغته العدو المهاجم ولو أنه كان مجرد الزينة فحسب لاتبعت في ذلك وسائل أخرى كتزيين الجدران بتثبيت مخاريط من الفخار أو الأحجار الملونة فيها (شكل رقم ٢) كما اتبع في فترة حضارة الوركاء (حوالى ٣٥٠٠ م.) التي بدأت طراز جديداً للمعابد حيث بنى المعبد على مصاطب مكونة من عدة طبقات متدرجة في الحجم صفراً إلى أعلى (شكل رقم ٣) وهذا هو الأصل الذى تطور إلى الزاقورة أو البرج المدرج (الشكل رقم ٤) - وقد أجمع الباحثون على أن الارتفاع بتلك المعابد ووجود الهياكل فوق الأبراج «الزاقورات» مما يدل على أن أهل الحضارات التي شيدتها كانت تعتقد بأنها أماكن يهبط إليها الآلهة كي يسترخ على الأرض ويشرف منها على شئون البشر ، ولكننى أرى بأن طراز هذه المعابد وتلك قد أوجدته ضرورة ملحة إذ يبدو أن الجدران ذات التفجوات التي على أبعاد منتظمة لم تعد لها نفس الكفاية السابقة كوسيلة دفاعية وربما كان انتشار استخدام أسلحة أبعد مدى من السابقة كالحراب الخفيفة أو السهام قد بدأ فظهرت قيمة هذه المعابد المرتفعة لما لها من ميزة دفاعية إذ تتيح للدفاعيين مستوى ضرب أكثر فاعلية عما يتيح للمهاجمين وتتيح لهم النبل من هؤلاء على عدة مراحل حتى ولو أخذ عددهم في التناقص وبما يؤيد ذلك أن المعابد الأرضية ظلت تبنى إلى جوار المعبد العلوى وكان كل منها يحاط بسور خاص إلى جانب السور العام الذى كان يحيط بمجموعة المعابد .

وما أن بدأت العصور التاريخية الا وأخذت نظم الحكم والادارة في التطور وتغيرت الأساليب الحربية وتكيفت الطرز المعمارية تبعاً لذلك - ففي العصر السومري كانت المدينة دولة قائمة بذاتها والمعبد هو محور النشاط فيها باعتباره مقر الآلهة وهو حامي المدينة وسيدها الحقيقي الذى اختار حاكمها وكيلاً عنه لتصريف شئونها ، وفي خارج أسواره تركز دور البيع والشراء وغيرها من مظاهر حياة المدينة وحضارتها ، وهذه الأسوار أيضاً تفصل بين المعبد والمساكن التي تتجمع حوله ثم يحيط بالمدينة بأكملها سور عام ضخم له

بضعة بوابات كبيرة تودى إلى خارج المدينة حيث المزارع والمراعى - ولم يحدث أى تغيير فى تخطيط المعابد الأرضية خلال تلك الفترة الا قليلا (حيث أضيفت بعض الادارات الخاصة بالمعابد فى فناءها الخارجى) ، ويل هذا الفناء سور داخلى يحيط بفناء آخر به بئر للظهور ، وعلى الشرفة المقام عليها قدس الأقداس مذبح للقرابين ، وقد استعمل الآجر المحذب (أى انه كان مميكا فى الوسط أكثر منه فى الوسطين لأنه صنع باليد ولم يصب فى قوالب) حول النوافذ والأبواب كما استعمل نوع من الحجر الخشن فى بناء العقود .

ولم يعرف الكثير عن مباني الأكديين (حوالى ٢٣٥٠ - ٢١٨٠ ق. م) وطرزها ولكن من المرجح أنها سارت على نفس الخطوط التى سارت عليها العمارة فى العهد السابق .

وفى العهد البابلي القديم (حوالى ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق. م) ظهر تطور جديد فى طراز المعابد من أمثله المعبد الذى وجدت آثاره فى تل أسر وكان مشيداً لعبادة الملك الحاكم ، وهو مربع الشكل أضيفت إلى جدرانه الخارجية دعائم أو ركائز وفى مدخله برجان مزينان بالتجاويف . وهذا المدخل يودى إلى محراب ضيق فى يساره غرفة للتخزين وفى نهايته فناء مربع يودى إلى صومعة بها كوة لتثال الاله أمامها مجرى من الفخار لتصرف سائل الندور . وإلى يسار الصومعة غرفة للاجتماعات أو للصلاة - وإلى يسار هذا هذا المعبد قصر الحاكم الذى يليه غرباً معبد آخر بنفس نظام المعبد السابق غير أنه يتميز عنه بملحقات من المباني أضيفت للكهنة ، ومن المرجح والحالة هذه أن قصر الملك كان يحتوى بهذين المعبدتين وخاصة لأن الدخول إلى القصر عن طريق أحد المعبدتين كان عليه أن يمر فى غرفتين طويلتين ضيقتين شددت عليهما الحراسة . وبين الغرفة الأخيرة والقصر ساحة مربعة تودى إلى الديوان الذى يتألف من قاعة للعرش تتوسط بين حجرة كبيرة للأعمال الادارية والاحتفالات (يحيط بها دوائر) وبين الغرفة الخاصة للملك .

وفى عهد الكاشيين (١٦٠٠ - ١١٠٠ ق. م) كان التطور ينحصر فى زيادة عدد الأتنية والحجرات سواء فى المعابد أو فى القصور الملكية وفى جعل

مدخل المعبد على محور واحد مع صومعة الاله التي أصبح الوصول اليها يتم عن طريق باب يؤدي إلى دهليز واسع أضيفت إلى زواياها أبراج قوية . كما أن الفجوات التي كانت تزين جدران المعبد من الخارج زينت بمنحوتات بارزة في الآجر الذي بنيت به - وهذا الآجر الذي صنع في قوالب ونقش بأجزاء هذه المنحوتات لم يكن معروفاً من قبل .

وحافظت العمارة على التقاليد المعروفة في طرزها في عهد الآشوريين إلا أن الألواح الحجرية استعملت لحماية الأجزاء السفلى من جدران المعابد والقصور ويكتمل تجميل الرسوم المنقوشة على الجدران بتزيينها . وفي العصر الآشوري المتأخر زودت المدينة بأسوار كل ضلع لها به مدخلان ، وهذه المداخل تحميها أبراج قوية (شكل رقم ٥) وعلى أبواب القصور وضعت تماثيل لثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية لحمايتها ومنع دخول الأشرار . (شكل رقم ٦) .

أما في العصر البابلي الحديث فقد عادت التقاليد القديمة من جديد إذ اختفت التماثيل التي كانت توضع للحماية عند مداخل القصور وحلت محلها نقوش لحبوانات وأزهار على آجر أزرق مزجج . وكان قصر الملك يقع في إحدى نهايتي الشارع الرئيسي (وكان يعرف باسم شارع المواكب أو الأساجيل) ، وفي النهاية الأخرى شيد المعبد الرئيسي وإلى جواره برج بابل أو زقورة مردوخ .

وخلاصة القول أن العمارة في العراق القديم رغم أنها لم تدرس بعناية وكل ما كتب عنها لا يتناولها إلا بصفة عامة فإن من الممكن أن نستنتج من الوصف الموجز السابق أنها تعكس في مظاهرها المختلفة صورة عن الحياة الحضارية والسياسية التي اقتضتها ظروف البيئة في الأدوار التاريخية المختلفة ففي البداية كان المعبد مقر الاله حامي المدينة وحارسها وبالتالي كان حصنها وآخر مرحلة دفاعية فيها ، وإلى الغرب منه يقع قصر وكيل الاله أو الحاكم ثم تطورت أساليب القتال وأصبحت الأسلحة أبعد مدى فأحيطت المعابد والقصور بالأسوار . وعندما تعقدت الأمور أكثر من ذلك ازدوجت هذه

وقد سار تحت كتل الأجسام هو الآخر وفق تقاليد معينة لا شك في أنها أصلاً كانت متأثرة بمظهر البيئة - التي يغلب عليها الانفصال في وحدات صغيرة يعيش الناس فيها على الأماكن المرتفعة عن المجارى والمسطحات المائية حيث تبدو هذه الأماكن كمخاريط أو أساطين متأثرة . ولذا غلب على النماثيل الآدمية أن تكون أجزاء الجسم في هيئة كتل مخروطية (شكل رقم ٨) أو اسطوانية ، ونظراً لأن معظم النماثيل كانت تصنع لغرض ديني حيث تحفظ في المعبد في حضرة تمثال الإله أو رمزه فإن الفنان تغالى في إبراز لاهتمام الشديد في ملامح التمثال ولهذا بالغ في حجم العيون ، كما أنه في أول الأمر جعل نسبة الوجه إلى الرأس أكبر مما ينبغي . ولم يوفق في تمثيل الساقين لحشيته من عدم احتمالهما لثقل الجسم إذ أنه بدلاً من أن يضيف دعامة يستند إليها التمثال جعل الساقين أضخم من المعتاد وخاصة عند العقبين (شكل رقم ٩) كما أنه أخطأ إذ فرغ ما بين الساقين وما تحت الذراعين فعرضت هذه الأجزاء إلى انتلف ، ولم يعن الفنان كذلك بزى التمثال ولا بإبراز تقاطيع الجسم ولم يشذ عن ذلك إلا في أمثلة نادرة تحرر فيها أماً نماثيل الحيوان فقد أبدع فيها أبجاً ابداع .

لانيا : ل مصر

تقع مصر بين صحراويين كبيرتين شديدي الخفاف والجلب فلم تغامر إحدى الجماعات البشرية باجتياز أحدهما للوصول إلى وادى النيل الخصيب إلا في أحوال قليلة ، وما أن تصل هذه إلى الوادى حتى يستقر بها المقام وتندمج في سكانه وتتأقلم إلى درجة تفقدتها صلتها بماضيها وحضارتها ووطنها الأصل لأن العودة لاجتياز الصحراء تكاد تكون ضرباً من المستحيل - فصر والحالة هذه كانت أبعد نسياً عن طريق الهجرات البشرية ، ولذا نعمت بالأمن والاستقرار في معظم عصورها الفرعونية .

أما من حيث السطح فانه يمثل سهلاً منبسطاً يجرى فيه النيل بالحدار لطيف نحو الشمال وتنتشر الأراضي الزراعية على ضفته وهذه تحف بها الصحراء الشرقية والغربية بما فيها من مرتضعات وهضاب على كلا الجانبين

أى أن البيئة المصرية بأكملها تمثل خطوطاً مستقيمة متوازية تتعامد عليها قوائم
المضارب والمرتفعات التى تمتد فى ملاسل متقطعة موازية لاتجاه الوادى
(شكل رقم ١٠) .

ومصر فوق ذلك تتمتع بمناخ معتدل مسطر لا تتطلب ستمائها بالغيوم
الا نادراً ولا تتعرض للعواصف أو الأعاصير الا فى حالات شاذة وتسودها
طوال العام تقريباً الرياح التجارية الشمالية الشرقية .

وقد أثاحت كل هذه العوامل للجماعات البشرية التى استقرت على ضفتى
النيل فرصة الاتصال بعضها ببعض فى سهولة ويسر وخاصة عن طريق
النيل حيث يسهل لإبحار فيه شمالاً بمساعدة يار جريانه والابحار فيه جنوباً
بالاستعانة بالشرار ونشأت بين هذه الجماعات مصالح مشتركة وانتهى الأمر
باتحادها جميعاً فى مملكة واحدة . وكان هذا الاتحاد أسرع وأطول بقاء
من اتحاد الجماعات فى أى قطر آخر .

وهكذا شاهد المصرى فى كل ما حوله مظاهر الاستقرار والهدوء
والتماثل والخلود ، فالشمس دائمة الشروق والفيضان يحمل فى موعده فيحيى
الأرض بعد موتها وتتماثل وتتوازى الأراضي الزراعية بل والصحارى
التي تحف بها بعيداً على جانبيه ، وانعكس كل ذلك فى فنه فجاء متسقاً وهذه
العوامل . فالتسم بطابع الهدوء والمحافظة على التقاليد ولذا لم يطرأ تغير يستحق
الذكر طوال العصور الفرعونية فى أصول وقواعد الفن المتبعة إذ نشاهد
فيه تغلب الخطوط المستقيمة المتوازية والمتعامدة كما يتميز بالمحافظة على
التماثل بين الأجزاء المتناظرة فيما أبدعه .

١ — المهارة الدينية :

لا يتسع المقام هنا للحديث عن كافة أنواع الممار الدينية ولذا سنتجاوز
عن الأهرام والمعابد الجبزية على اعتبار أن الأولى مقابر الملوك فحسب دون النظر
إلى مغزاها وهدفها الدينى وأن الثانية مرتبطة بها وعبادة آلهة الموتى ، ومع كل
فى تتفق والطابع العام للفنون المصرية من حيث استقامة خطوطها وتماثل

بعضها ضد البعض . بل ولا نعرف عن حصون أقيمت في داخل البلاد لغرض الدفاع الا القليل بل من المشكوك فيه أيضاً أن هذه . - إن وجدت - كانت حصوناً بالمعنى الصحيح وليست مجرد تحصينات حول قصور بعض الملوك مثل تلك التي عثر على آثارها في أيلوس وترجع إلى عهد السلالة الثانية . - أما على الحدود فلدينا من المعلومات بما يؤكد أن المصريين أقاموا بعض الحصون على الحدود الشرقية والغربية للدلتا كما أن آثار عدد من الحصون وجدت في بلاد النوبة في جنوب مصر وهذه كانت أشبه بمدن قائمة بذاتها : بها منازل ودوائر حكومية وأسواق ومعابد ، وهي تختلف في تخطيطها بحسب موقعها والسطح الذي أقيمت عليه ، فالحصون التي كانت في الوادي أو في الأراضي السهلية كانت مستطيلة أو شبه مستطيلة بحيث يكون الضلعان الطوليان للمحصن موازيين للنهر ويزود الضلع البعيد عن النهر (أى المواجه للصحراء بالكثير من الأبراج - وأهم عناصر الدفاع في هذا النوع من القلاع ينحصر في جعل سورها نحو الداخل واحاطتها بخندق جاف وفي خارج هذا الأخير سور خارجي أقل ارتفاعاً من السور الداخلي ، أما الحصون التي توجد على الهضاب أو على جزر في النيل فإنها كانت تتخذ شكلاً مماثل تقريباً شكل البقعة التي يحددها خط الكتور الواقعة فيه . وخلاصة الأمر أن تخطيط المعبد كان منفصلاً تماماً عن التخطيط الدفاعي أو العسكري .

(ب) الرسم والنقش والنحت :

لم يستعمل الفنان المصري قواعد المنظور الا في أحوال نادرة جداً لأنه كان يخضع لتقاليد معينة فقد أظهر الأشياء والكائنات في رسومه ونقوشه لا كما تراها عينه بل بحيث تبرز أهم صفاتها الواقعية أى أن عمله كان إخبارياً وليس تأثيرياً على غير المؤلف عن هذه الفنون في العراق ، فالفنان المصري كان يمثل الكائنات والأشياء في أحجام تتناسب مع أهميتها ولم يكن حراً في تمثيل الموضوع المراد كما يتراءى له بل كانت المساحة المطلوب رسمها أو نقشها تحدد له وكانت هذه المساحة تقسم إلى مربعات متساوية ويوزع الرسم أو النقش المراد على تلك المربعات - وكان هناك اتفاق عام في مختلف

المدارس الفنية على النبة بين أجزاء الأشكال المختلفة التي تمثل في الرسوم وكان كل جزء ينفذ على حدة .

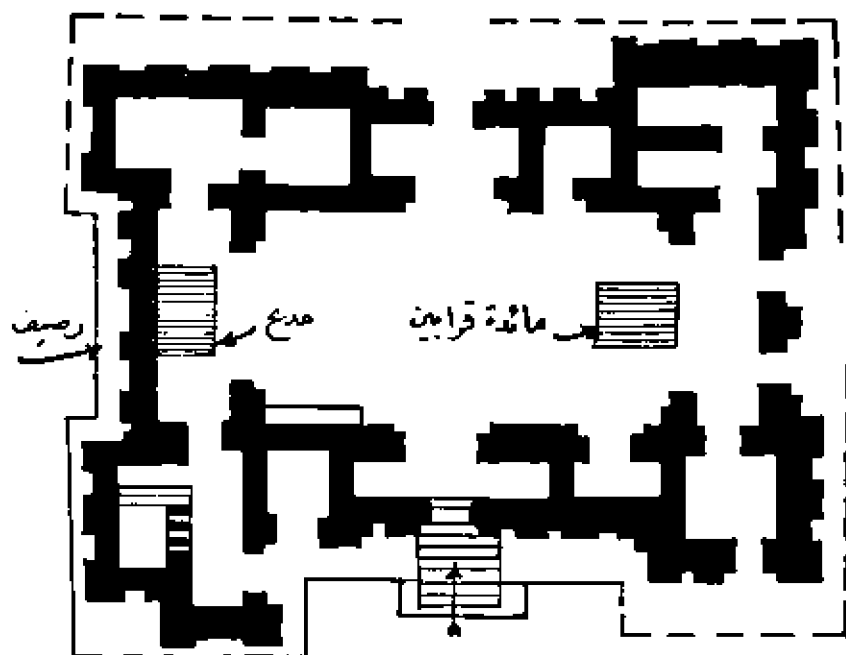
وقد حاول البعض أن يشبه الفن المصرى برسوم الأطفال ظناً منهم بأن الفنان المصرى كان يرسم الأشياء من ذاكرته وليس من الشيء نفسه ولكن الواقع يخطئ ذلك إذ ميز الفنان بين ملامح الأشخاص المختلفين وأوضح الفروق بين أفراد النوع الواحد من الكائنات المختلفة كما أبدع في تصوير الطبيعة ومحاكاتها ، ومادعاً إلى هذا الخطأ أو اللبس عند البعض الالتزام المصرى باتباع قواعد تقاليد معينة تنفق والروح الإخبارية التي توخاها في فنه من جهة ويبدو فيها إغراقه في التأثريته من جهة أخرى . ولذا نجد عند رسم أو نقش منظر معين يرسم مفردات المنظر أى الأشياء والكائنات التي تضمنها كل على حدة بل ويرسم أجزاء هذه المفردات أيضاً كل على حدة ومن أكبر زاوية تمثلها وهو ما يعبر عنه بالاصلاح .

Formation of Visual axis بالانجليزية

Gesichtsgestaltung وبالألمانية

فاذا أراد رسم مائدة عليها أنواع من الأطعمة رسم المائدة عليها أنواع الأطعمة بحيث تظهر كل أنواعها وكأنها في طبقات وبحيث تظهر مفرداتها كاملة . وعند رسم كائن من الكائنات فانه يبرز جزء هذا الكائن الذي يوضح هيأته إذ يرسم السمكة مثلاً وكأنها ثابتة على أحد جانبيها بل ويبين الزعانف العليا والسفلى مفترضاً أنها مثبتة على هذه الأخيرة ، ويرسم السلحفاة والجمل من سطحيهما العلويين والحيوانات التي تتضح معالمها من الجانب يرسمها من الجانب وهكذا — أما الانسان فقد رسمه بحيث يبدو الرأس والياقان من الجانب ، وكان يمثل القدمين من الداخل فيظهر الاصبع الأكبر لكل منهما ويرسم الكفين والعينين والجلد والذراعين من الأمام — وفي المناظر كان الشخص الهام أو مفردات المناظر الهامة تشغل معظم السطح الذي مثل عليه المنظر أما بقية مفرداته فتحتل مكاناً ثانوياً — ويبدو أثر البيئة بوضوح في

The first part of the paper discusses the importance of understanding the cultural context of the research. It highlights the need for researchers to be sensitive to the values and beliefs of the communities they are studying. This is particularly important in the field of education, where cultural differences can significantly impact learning outcomes. The paper then moves on to discuss the challenges of conducting research in culturally diverse settings. It notes that researchers often face difficulties in establishing rapport with participants and in interpreting their responses. To address these challenges, the paper suggests several strategies, including the use of local researchers and the development of culturally appropriate research instruments. The final part of the paper discusses the importance of sharing research findings with the community. It argues that research should not be conducted in a vacuum, but should be a collaborative process that involves the community from the beginning to the end. This approach not only ensures that the research is relevant and useful, but also helps to build trust and capacity within the community.



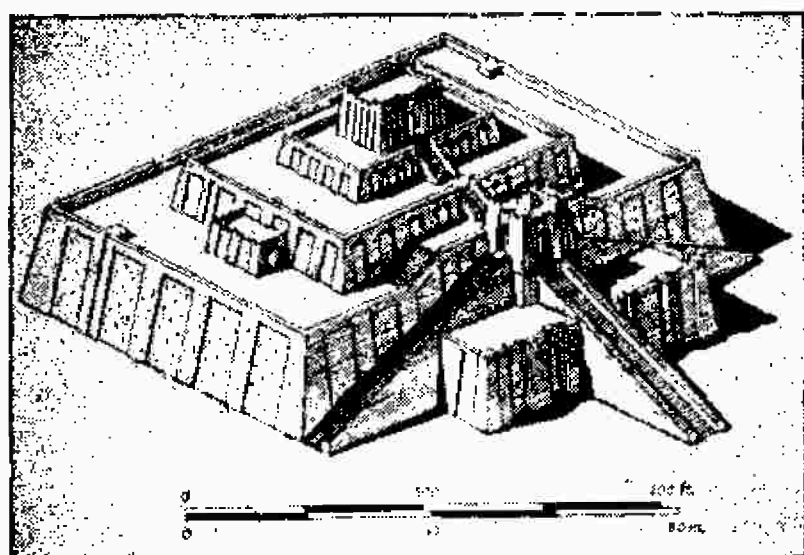
شكل (١)
معدن أردلو (عصر العيد)



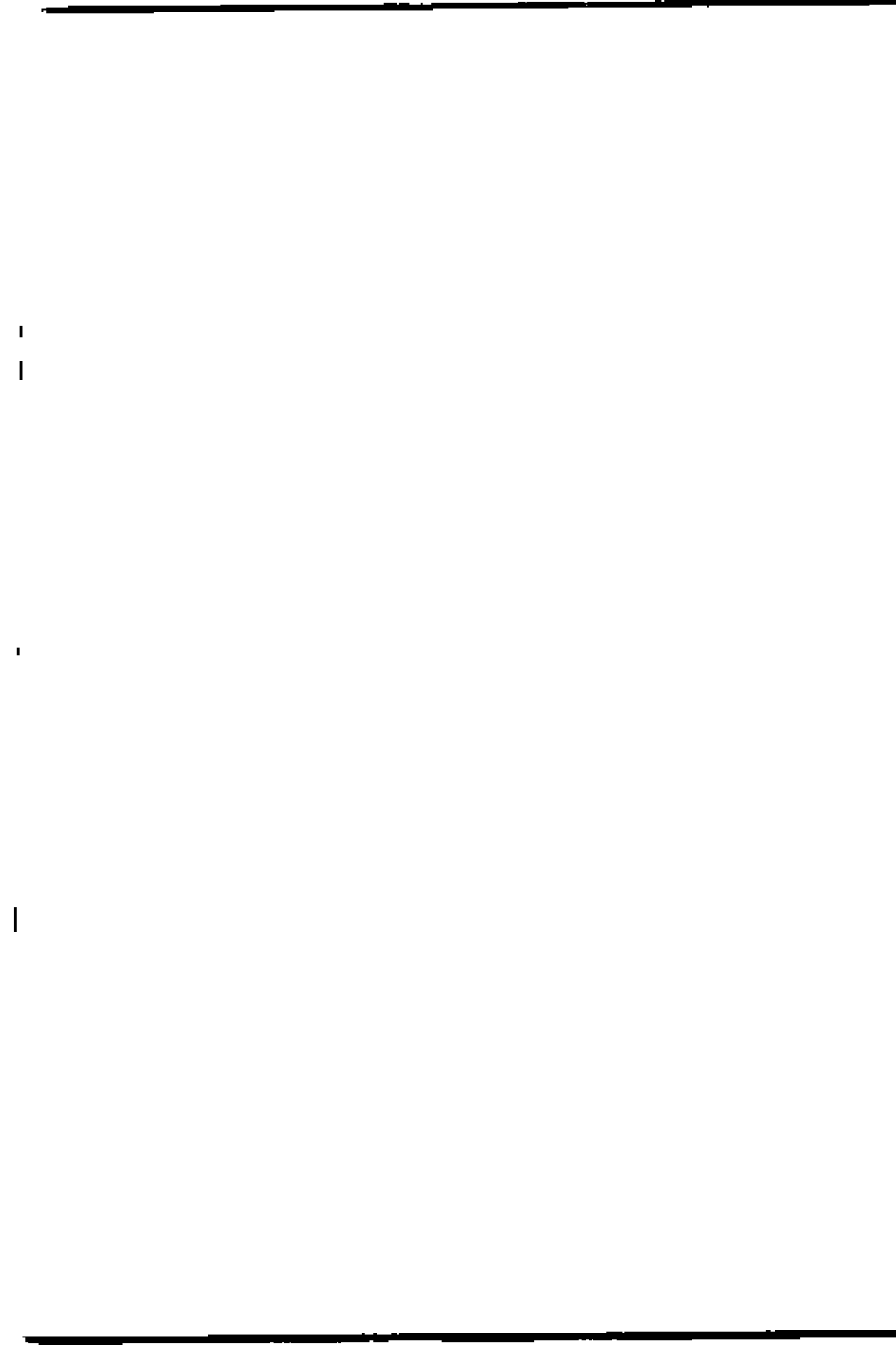
شكل رقم (٢)

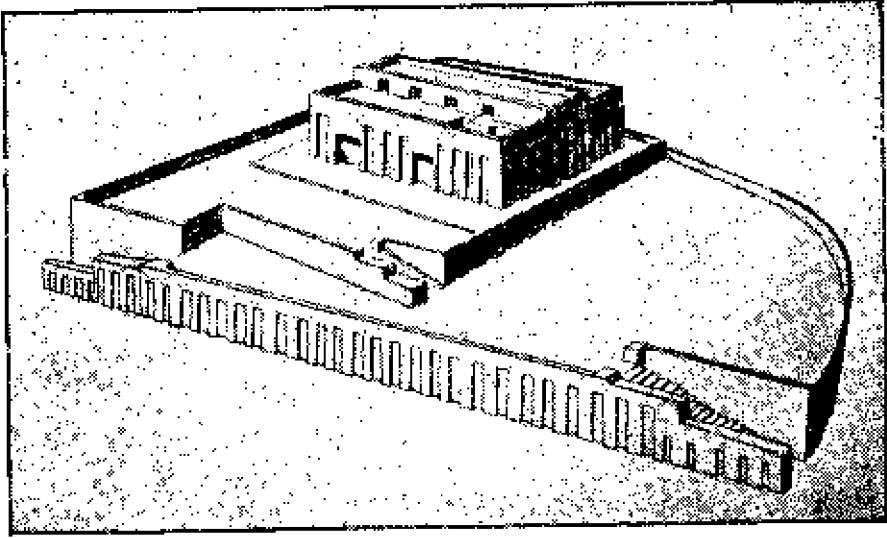
أحمد من الطي زخرفت بخاريط فخارية مثبتة بها (عصر الوركاء)

100



شكل (٢ - ب)
رسم تخيلي للزاقورة عند إنشائها





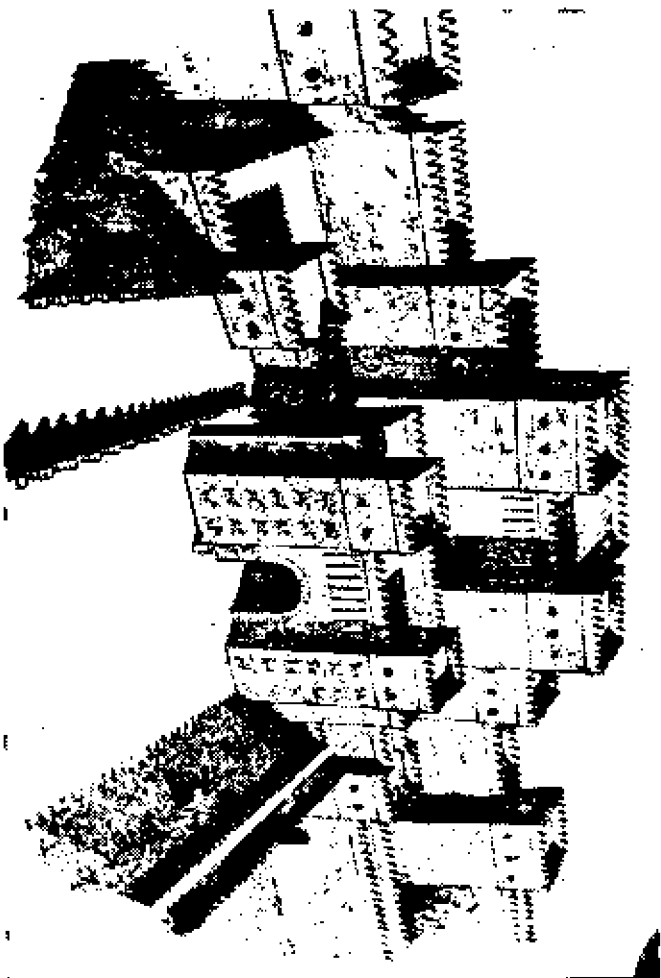
شكل (٣)

معبد شيد على مصاطب وجدت آثاره في العنبر (عصر الوركاء)



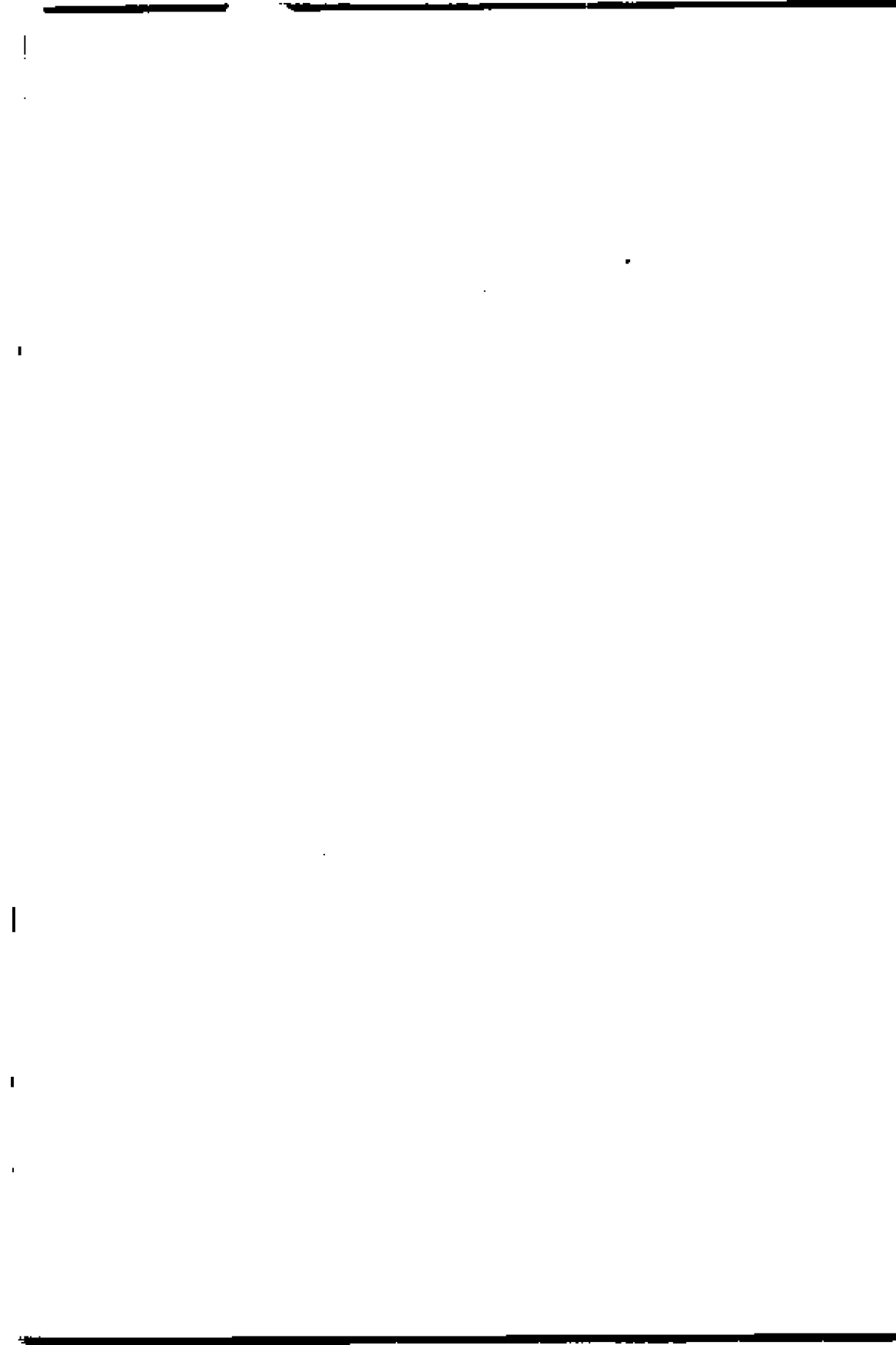
شكل (٤ - ١)

الزاقورة أو البحر المدبح (مجدد أورو)



شكل (٥)

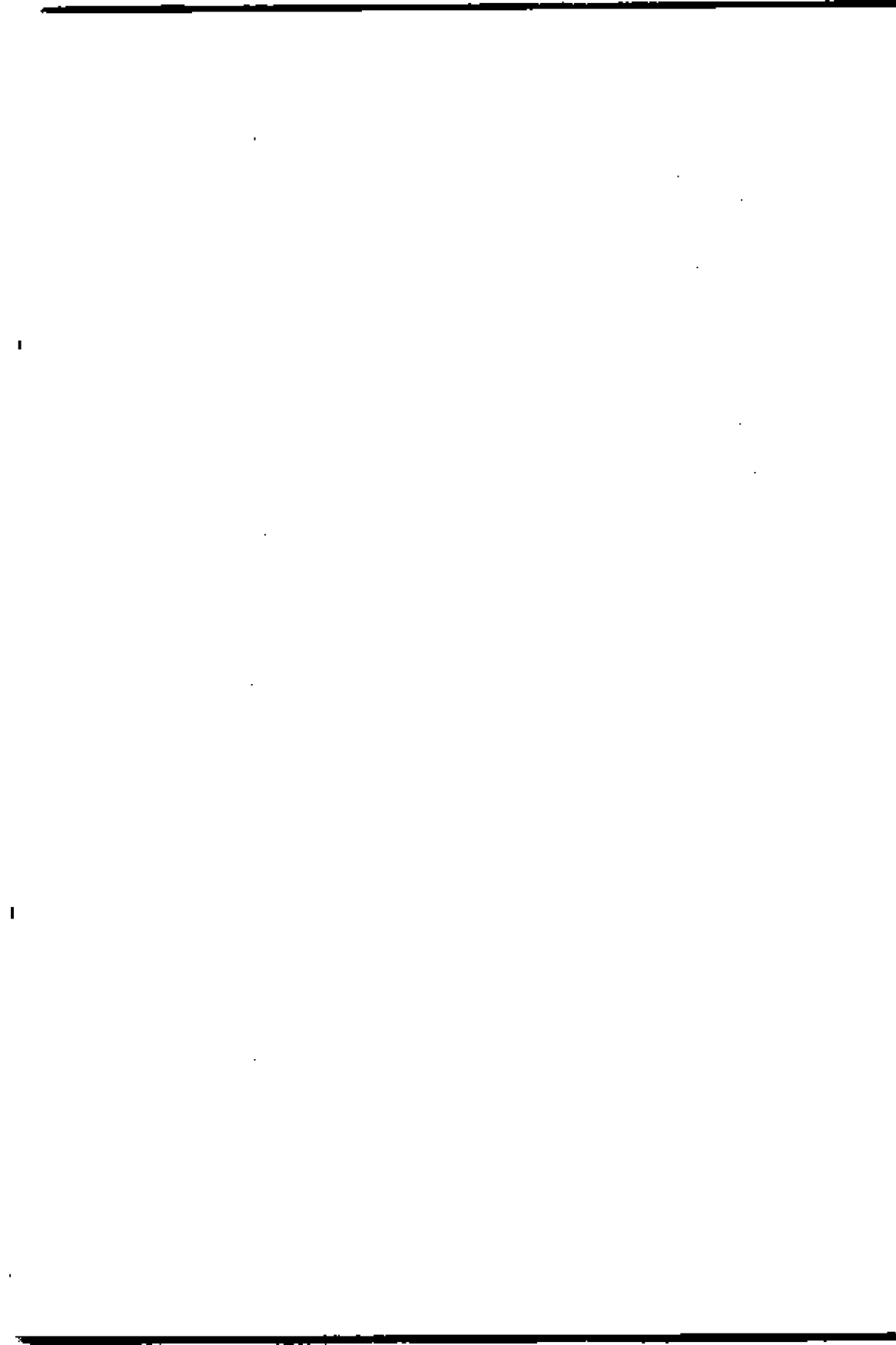
جزء من سور بابل وبوابة حشار في بابل (من عهد نبوخذ نصر ٢)





شكل (٦)

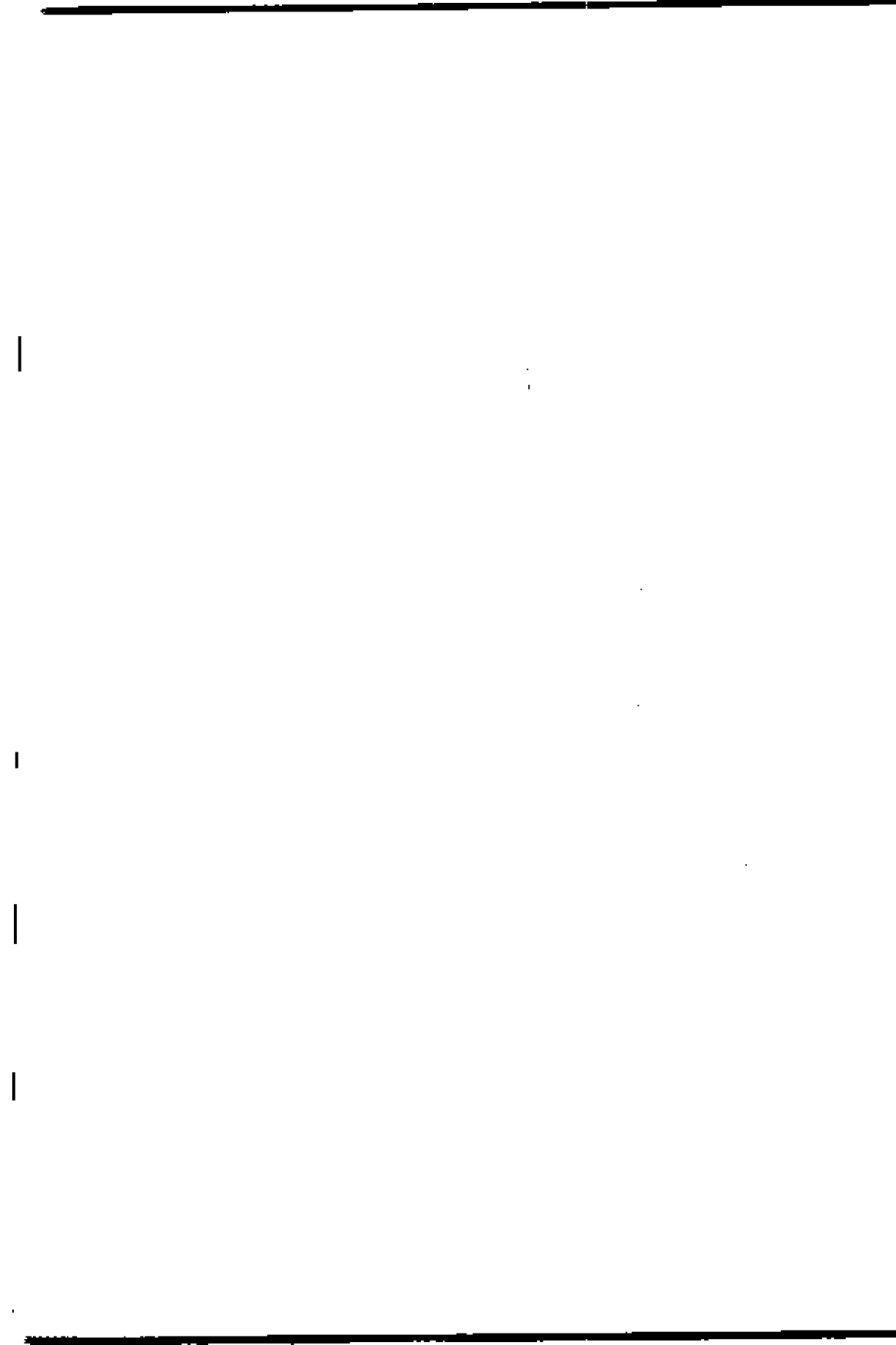
ثور يفتح برأس إنسان كان يحمى المدخل (من قصر سرجون الثاني في
خورمباد)





شكل (٧ - أ)

إله من المهر بسطحه نقش بارز يحمل قيران قواجه الرافئ





شكل (٧ - ب)
إبريق من الحجر منحوت تحت يارزا (من الوركاه)





شكل (٨ - أ)
مغنية معبد من ماري (العصر الأكدي الباكر)





شكل (٨ . ب)

تمثال ابيح الثاني (مؤلف من ماري عصر فجر الاسرات الموصري)



شكل (٩)

تمثال الإله أبو وزوجته (من تل اسمر - النصف الأول من الألف الثالث

ق . م)

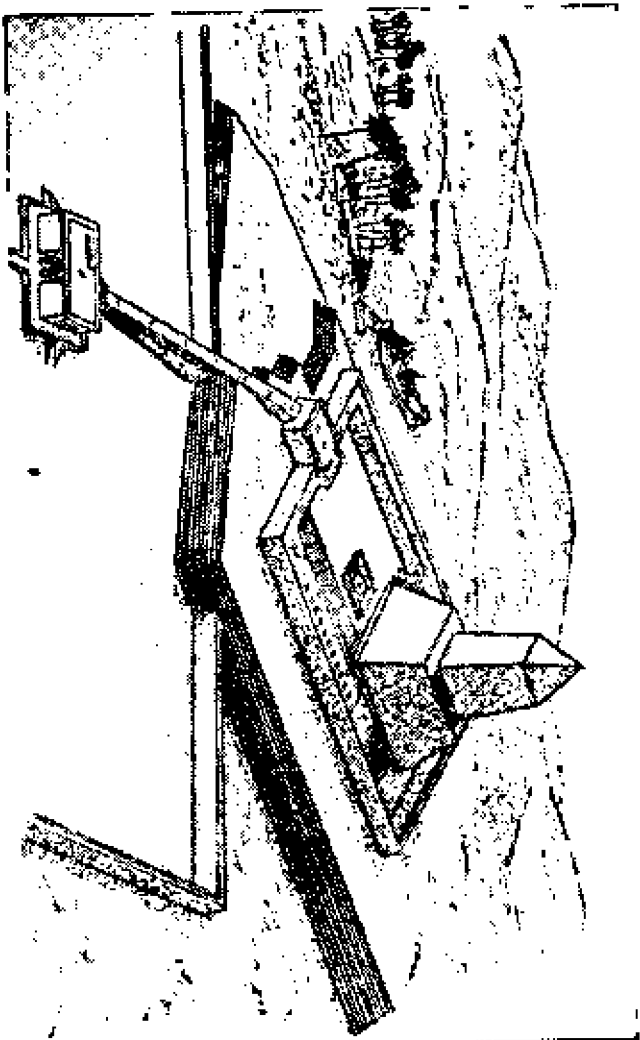


شكل (١٠ - أ)
منظر لليل عند أسوان



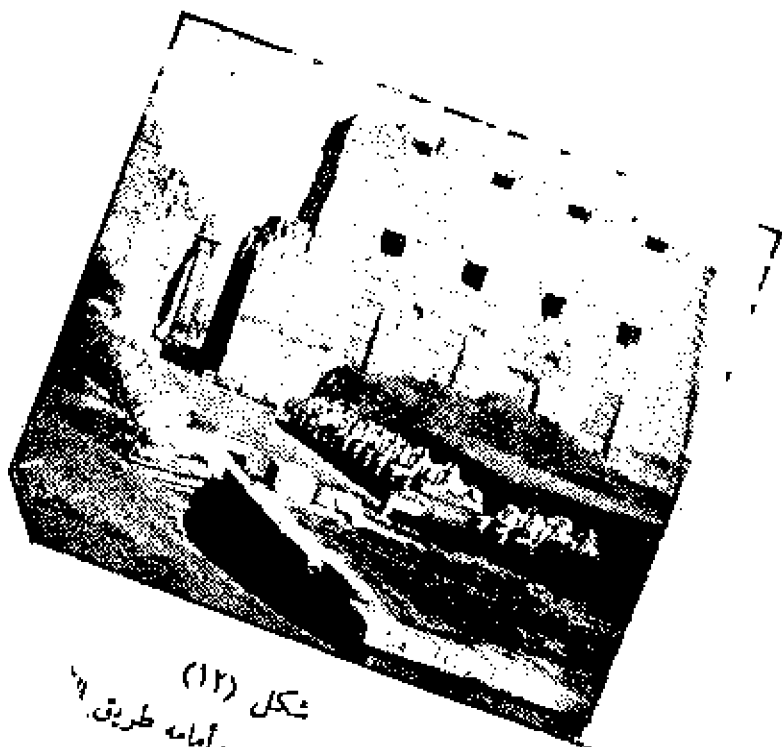
شكل (١٠ - ب)

منظر للخليل وعلى جانبيه الأراضي الزراعية التي تحف بها المقبة الصحراوية
كما تبدو على الضفة البعيدة للنهر

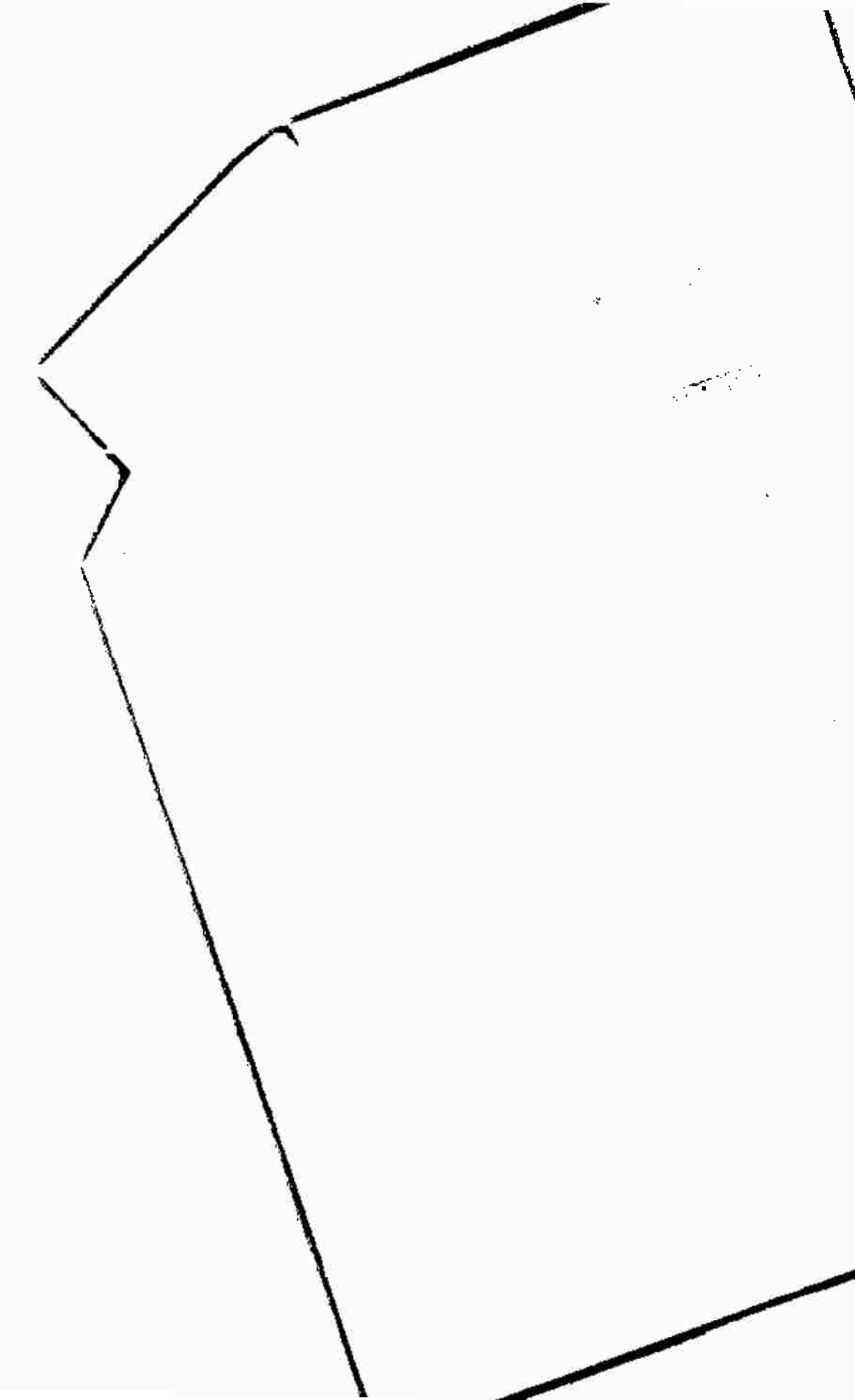


شكل رقم (١١)
معيد الشمس في أبو صير





شكل (١٢)
الصرح الأول في الكرنك وأمامه طريق



حوال وضع مصر

في الامبراطورية الرومانية

للدكتور مصطفى العبادي

استغرق تحويل حوض البحر الابيض المتوسط إلى امبراطورية رومانية نحواً من قرنين ونصف قرن ، وكانت مصر آخر ماسقط في أيدي الرومان من أقطار هذا البحر ، عقب موقعة اكتيوم ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر في أول أغسطس سنة ٣٠ ق.م. ومن الغريب أن هذا العام أصبح حداً فاصلاً في تاريخ روما بين نهاية العصر الجمهوري وبداية العصر الامبراطوري ، الذي يرأس فيه الدولة "رئيس" "Princeps" ، لا "قنصل" "Consul" (وتعني زميل) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخي بين فتح مصر وبداية الامبراطورية لا يتعدى كونه مصادفة تاريخية ، فقد كان من الممكن أن تسقط مصر في أيدي الرومان من قبل ولا تقوم الامبراطورية ، فقد كانت بداية النظام الامبراطوري في روما مرهونة بتفرد أوكتافيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس انطونيوس . وقد اقترن مصير مصر البطلمية بمصير ماركوس انطونيوس والملكة كليوباترا السابعة ، كما هو معروف في التاريخ. وذلك لأن تأخر سقوط مصر البطلمية في أيدي الرومان لم يكن راجعاً لقوتها ومنعتها ، بقدر ما كان راجعاً لظروف روما الداخلية ، وظروف النزاع الحربي بين السناق والشعبيين ، وكل من يدور تاريخ الأسرة البطلمية يعرف مقدار الضعف الذي وصل إليه ملوكها المتأخرون ، وأنهم منذ منتصف القرن الثاني ق.م. وهم يتقربون وينزلقون إلى روما بشكل متزايد ، حتى أصبح الملك

البطلمي لا يكاد يستقر على عرشه دون رضاه روما ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم في الاسكندرية (١) .

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر الهين ، لأن مصر مهمة دائماً دون نظر إلى قوتها أو ضعفها ، ولعل السبب في ذلك هو أن اسمها وراثتها القديم من ناحية ، وثروتها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضيف عليها مجداً وأهمية خاصة . ولم يفت الفاتح الروماني أن يستغل اسم مصر في أسباب الدعاية السياسية ، فأصدر عملة تذكارية خاصة بمناسبة ضم مصر لسلطان روما وقد خرجت هذه العملة تحمل صورة التمساح — أشهر الحيوانات النابية وأحد المعبودات المصرية . وقد كتب تحته عبارة *Aegypto Capta* (٢) ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعني فتح مصر ؟ كان معناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تعد دولة مستقلة تحت حكم الأسرة البطلمية في الاسكندرية ، وأصبحت ولاية تتبع سلطان روما . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر خطورة ، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضريبة نوعية من القمح والغلة يجب أن تشحن إلى روما في كل عام . أي أن جزءاً كبيراً من دخل المصريين وانتاجهم الزراعي ، أصبح يذهب إلى روما دون مقابل . من أجل هذا المعنى الاقتصادي سميت مصر أعظم أملاك امبراطور روما (٣) ومن أجل هذا المعنى احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العملة التذكارية ، ليزف النبأ للرومان ويبشروهم بأنه قد سخر لبطونهم قمح مصر . وما كان ذلك بالأمر اليسير لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع

(١) أنظر عرضاً تاريخياً لأحداث هذه الفترة في كتاب الدكتور إبراهيم نصفي « تاريخ مصر في العصر البطلمي » (١٩٦٠) وخاصة من ٢٢٠ - ٢٢٦

(٢) H. Mattingly, British Museum Catalogue of Coins of the Roman Empire I. no. 630.

(٣) Philo, in Flaccum. 19 : Τὸ μέγιστον αὐτοῦ τῶν πτημάτων (٣)

إطعام الرومان بحكمهم ، ومن يفشل في ذلك لا يبقى في الحكم يوماً واحداً (١) ولما كانت روما قد أهملت زراعة القمح في إيطاليا واعتمدت اعتماداً تاماً على استيراده من الولايات ، تعتبر السيطرة على مصر — أكبر بلد منتج للقمح في الإمبراطورية أمراً بالغ الأهمية أيضاً من الناحية السياسية ، ويوضح هذه الحالة قول المؤرخ الروماني تاكيتوس : على أن (إيطاليا) لم تصب الآن بالجلبد ولكننا نقضل استغلال (شمال) أفريقيا ومصر ، وأصبحت حياة الشعب الروماني رهنا بالسفن وأحداها (٢) .

ونظراً لأهمية مصر على هذا النحو ، واشتهار أهلها بجنوحهم إلى الثورة سواء شعب الاسكندرية أو أهالي مقاطعة طيبة في أعلى الصعيد — كما حدث مراراً في النصف الأخير من حكم البطالة (٣) ، فقد أهتم الإمبراطور أغسطس بوضع نظام دقيق لها ، يكفل استمرار خضوعها للسلطة المركزية في روما . ولقد أهتم المؤرخون المحدثون كثيراً بأمر هذا النظام الذي وضعه أغسطس لحكم مصر ، بحيث أن الكثير من معالمة أصبحت واضحة . ولكن نقطة واحدة على جانب كبير من الأهمية اختلف حولها العلماء أشد الاختلاف ، وهي وضع مصر في الإمبراطورية ، ومحور الخلاف هو هل أصبحت مصر بعد الفتح ولاية رومانية ، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً أشبه ما يكون بالضيعة أو الملكية الشخصية للإمبراطور وليس للدولة والشعب الروماني ، ولكن الرأي الأكثر انتشاراً الآن هو موقف وسط ، وهو أن مصر كانت ولاية ولكن ذات وضع فريد في الإمبراطورية الرومانية . ونظراً لكثرة ما كتب حول هذا الموضوع فسوف لا أتعرض لمناقشة الآراء المختلفة في هذه

(١) حول أهمية تأمين روما بالذلال أنظر : D van Berchem, Les distributions de blé et d'argent à la plebe romaine sous l'empire, (1939).

Tacitus, Annales, XII. 43.

(٢)

(٣) أنظر مرصاً لهذه الثورات لـ دكتور محمد مراد حسين وآخرون " كندحت ضد النزاهة "

الدراسة القصيرة : تجنباً لتكرار ما كتبه غيرى (١) . وسوف اقتصر على تحديد موقفى والتدليل عليه مباشرة بعد ذلك .

أما كون مصر ولاية رومانية ، فهذا عندى أمر لا شك فيه . أما عن وضعها «وضعها القديم» فى الامبراطورية فأعتقد أن أكثر الكتاب بالغون فى غمابة وضع مصر ، وأن الاستثناء فى حالتها أقل كثيراً مما يصورون . ولايضاح ذلك سأورد أولاً بعض النصوص القديمة التى تصف وضع مصر الجديد كما عينه الأباطور أغسطس :

أولاً : استرابون ، وهو الجغرافى المشهور الذى زار مصر عقب الفتح الرومانى مباشرة ، وكتب فى عهد الأباطور نفسه ، يقول :

«لقد أصبحت مصر الآن «ولاية» (ἐπαρχία) تلغ جزية ضخمة ويقوم على حكمها رجال حكماء ، وهم الولاة الذين يرسلون إليها تبعاً . ويحتل (أوائى) الذى يرسل إليها مكان الملك وهناك ثلاث فرق من الجنود ، واحدة منها تقيم فى المدينة (الاسكندرية) والأخريان فى سائر القطر ، وإلى جانب هؤلاء توجد تسع سرايا رومانية ، ثلاث منها فى المدينة (الاسكندرية) وثلاث على الحدود الأثيوبية - فى أسوان - كحامية لتلك البقاع ، وثلاث فى سائر القطر . وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة فى مناطق الخطر أيضاً» (٢) .

(١) اكفى هنا بأن أحيل القارىء إلى العرض الرافى لجميع وجهات انظر الخاصة بهذه المسئلة فى كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، من ١-٥٧ و يوجد بالمراجع تلك المصادر والمراجع المختلفة . أنظر أيضاً : Wilcken: Grundzüge p.28, n.2
Strabo, 17.1.12 " Ἐπαρχία δὲ νῦν ἐστὶ, φόρους μὲν τελοῦσα δέσι-
λόγους, ὑπὸ σωφρόνων δὲ ἀνδρῶν διαικουμένη τῶν πεμπομένων ἐπα-
ρχων ἀεί. ὁ μὲν οὖν πεμφθεὶς τὴν τοῦ βασιλέως ἔχει τάξιν ... ἐστὶ δὲ
καὶ στρατιωτικοῦ τρία τάγματα, ὧν τὸ ἐν κατὰ τὴν πόλιν ἔδρυσται,
τὰ ἄλλα δ' ἐν τῇ χώρῃ: χωρὶς δὲ τούτων ἐννέα μὲν εἰσι σπεῖραι Ῥωμαίων,

ثانياً : ناكيتوس ، أعظم مؤرخ روماني ، امتدت حياته بين عامي ٥٥ — ١١٥ ميلادية أو بعدها بقليل ، وتدرج في سلك الادارة الرومانية حتى تولى منصب بروقنصل والياً على آسيا الصغرى . وبحكم حياته الادارية كذلك مطلعاً على الوثائق الرسمية ، ومن ثم أهمية كتاباته ، كما امتاز بدقة التعبير والإيجاز إلى درجة ملفزة في بعض الأحيان . وقد وصف وضع مصر في الامبراطورية الرومانية بهذه العبارة :

«حكم مصر وقوات الاحتلال بها ، منذ زمن أغسطس المؤله ، أفراد من طبقة الفرسان الرومان، شغلوا مكان الملوك . فقد روى أن من الأصلح أن يبقى في يدي الامبراطور أمر ولاية provincia يصعب الوصول اليها ، وغنية بانتاج القمح ، يتوزعها النطرف الديني والأهواء والميل إلى التغيير لم تعرف نظام التشريع (الشعبي) ، ولم تألف الحكام (المتخيين)» (١)

ثالثاً : ديون كاسيوس ، عاش في النصف الثاني من القرن الثاني وبداية اقرن الثالث ، وتدرج في سلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية للمرة الثانية سنة ٢٢٩ ميلادية ، وكتب تاريخاً لروما استمده من المصادر المعاصرة القديمة . وقد وصف ما فرضه أغسطس على مصر في هذه الفقرة .

τρεῖς μὲν ἐν τῇ πόλει. τρεῖς δ' ἐπὶ τῶν ὄρων τῆς Αἰθιοπίας ἐν Συήνῃ, φρουρὰ τοῖς τόποις, τρεῖς δὲ κατὰ τὴν ἄλλην χώραν. εἰς δὲ καὶ ἐκπαρχίαι τρεῖς ὁμοίως διατεταγμέναι κατὰ τοὺς ἐπικαιρίους τόπους."

Tacitus Hist. I. 11 : Aegyptum copiasque, quibus coerceretur, iam (١)
 Inde a divo Augusto equites Romani obtinent loco regum : ita visum expedire,
 provinciam aditu difficilem, annonae fecundam, superstitione ac lascivia discordem
 et mobilem, insciam legum, ignaram magistratum, domi retinere.

«ومند ذلك الوقت جعل (أغسطس) مصر تدفع الجزية ، وعين عليها جالوس كورنيليوس . ونظراً لكثرة عدد السكان سواء في المدن أو في الريف ، ولسرعة وحدة طباعهم ، وكذلك لوفرة غلاتها وثرائها ، منع أعضاء مجلس السناتو من أن يدخلوا مصر أو الإقامة بها لأى سبب كان ، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه بذلك» (١) .

هذه من غير شك أهم الكتابات القديمة وأوفاهما في وصف وضع مصر بعد الفتح الروماني ، وغيرها وهو كثير (٢) ، نكرار لما أورده هؤلاء الكتاب الثلاثة ، أو يتناول جزئيات المشكلة ، وسوف نذكر ما يهمنا منها فيما بعد .

وقد يتبادر لذهن القارئ للنصوص السابقة أن كون مصر « ولاية رومانية » أمر لا يقبل الجدل . ولكن أصحاب الرأي المعارض (٣) أنكروا هذه الحقيقة ورفضوا الاستشهاد بكتابات الكتاب ، وحاولوا أن يجدوا مبرراً لوجهة نظرهم في أن «الريثاق» المعاصرة لا تذكر اسم مصر مقروناً بكلمة «ولاية» (provincia أو ἐπαρχία) وكان سندهم في دعواهم أن أغسطس نفسه حين كتب في سجل أعماله المعروف باسم أثر أنقرة عن فتح مصر قال :

Dio Cassius, 51.17 «ἐκ δὲ τούτου τὴν τε Αἴγυπτον ὑποτελή ἐποίησε καὶ τῇ Γάλλῳ τῇ Κορινθίῳ ἐπέτρεψε. Πρὸς τε γὰρ τὸ πολὺανδρον καὶ τῶν πόλεων καὶ τῆς χώρας, καὶ πρὸς τὸ ῥεῖδιον τὸ τε κοῦφον τῶν τρόπων, τὴν τε συτοπομπίαν καὶ τὰ χρήματα, οὐδενὶ βουλευτῇ οὐκ ὅπως ἐγχειρίσαι αὐτὴν ἐτόλμησεν, ἀλλ' οὐδὲ ἐνεπιδημεῖν αὐτῇ ἐξουσίαν ἔδωκεν, ἂν μὴ τινι αὐτὸς ὀνομαστί συγχωρήσῃ. » Also cf Tacitus, Annales, II. 59

(٢) انظر الدكتور عبد اللطيف أحمد عل ، المرجع ذاته .

T. Mommsen, Hist. of Rome, The Provinces, part II, trans. (٢)
P. Dickson, p. 233 ff ; A. Stein, Untersuchungen zur Geschichte und Verwaltung Aegyptens unter Römischer Herrschaft, pp. 92, 95 ; J. G. Milne, Egypt Under Roman Rule, p. 120.

«لقد أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني»^(١).

(*Aegyptum imperio populi Romani adieci*)

ولأنه لم يستخدم في وصفها كلمة «ولاية» *provincia* هذه من غير شك مدعمة بقول تاكيتوس الغامض *domi retinere* (الوارد في النص السالف الذكر) أقوى حجج هذا الفريق من الباحثين ، وللدعوى عليهم مأخوذ أن أثبت أن مصر من وجهة نظر القانون الروماني كانت ولاية رومانية . ولبيان ذلك نقول أنه بعد أن استتب الأمر لأغسطس تمت في عام ٢٧ ق.م. تسوية لتنظيم الإشراف على الإمبراطورية بينه وبين مجلس السناو وبناء على هذه التسوية قسمت ولايات الإمبراطورية بين أغسطس والسناو (٢) ونلاحظ أن الإمبراطور قد وضع تحت سلطانه الشخصي الولايات التي تمثل جهات الحرب الرئيسية للإمبراطورية والتي بها جيوش محاربة، وهي الغالة (وبها قيادة الجبهة الشمالية) واسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر ، وهي ولاية جديدة ضممها أغسطس للإمبراطورية وأقام بها حامية عسكرية (وبذلك تعتبر مقراً لقيادة الجبهة الجنوبية)، وعلى هذا النحو ركز في يديه السلطة العسكرية العليا لكل الجيوش الرومانية تقريباً . وهذا هو جوهر الموقف كله ، فقد حرص أغسطس على أن يلبس مجلس السناو سلطة القيادة العسكرية، والسبب في ذلك واضح ، وهو أن أعضاء هذا المجلس هم الذين استولوا على السلطة العسكرية وهددوا سلامة الدولة وكيانها بالحروب الأهلية من أمثال ملا وبومبي وقيصر وماركوس انطونيوس ، وخاصة الأخير الذي شن على أغسطس حرباً من مصر ذاتها قبل أن تصبح ولاية رومانية .

فصر على هذا الأساس قد اعتبرت في نظر المشرع الروماني ولاية رومانية، عوملت في تسوية عام ٢٧ ق.م. معاملة الولايات الكبرى الأخرى^(٣)

^(١) *Res Gestae Divi Augusti*, 27.1.

^(٢) أنظر حول تسوية عام ٢٧ ق.م. R. Syme, *The Roman Revolution* (1952) pp. 313 — 330 ; *Cambridge Ancient History*, X, p. 128.

^(٣) يعارض هذا الاتجاه دون دليل مقنع A. Stein, *Op. cit.*

وما ينبغي استغلال عدم استخدام كلمة provincia في أثر أنقرة للتدليل على أن مصر لم تكن ولاية، فكل من يقرأ أثر أنقرة ويدرس أساليب تعبيره يدرك أن هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن أغسطس يستخدم في وصفه لضم «بانونيا» و«إليزييا» للأمبراطورية ، تعبيراً شبيهاً بعبارته عن ضم مصر ، أي دون ذكر كلمة provincia ، ولم يشك أحد أن «بانونيا» و«إليزييا» كانتا ولايتين رومانيتين (١) .

ولم يشك أحد من العلماء أيضاً — فيما يبدو — أن مصر كانت ولاية رومانية ، والا لما غاب عن كل من استرابون وتاكيثوس ملاحظة ذلك ، كما سبق أن بينا ، فكلاهما يصف مصر بأنها ولاية (*ἐπαρχία*) provincia النصيين اللذين قلنا بترجمتهما . ويمكننا أن نضيف إلى هذه النصوص التاريخية ومثيلاتها ، نصاً قانونياً يرجع إلى نهاية القرن الثاني ، ولكنه يصف بعض مسؤوليات والى مصر على الأسس التي عليها أغسطس . فهذا القانون يصف مصر بلفظ ولاية provincia :

“ De officio praefecti Augustalis. Praefectus Aegypti non prius deponit praefecturam et imperium, quod ad similitudinem procursulis lege sub Augusto ei datum est, quam Alexandriam ingressus sit successor eius, licet in provinciam venerit : et ita mandatis eis continetur. ” (٢)

يتضح من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانوني — كانت ولاية رومانية ، وأنها حسب نسوية عام ٢٧ ق.م. كانت إحدى الولايات

(١) Res Gestae, 30.1, “Pannoniorum gentes, quas ante me principem populi Romani exercitus nunquam adit, devictas per Ti Neronem, qui tum erat privignus et legatus meus, imperio populi Romani subieci, protulige fines Illirici ad ripam ripam flumen Danui.”

(٢) Tacitus, Ann. XII, 60، وأنظر أيضاً في المعنى ذاته Ulpianus apud Digest. I. 17.1
وقد استخدمت كلمة ولاية (*ἐπαρχία*) أيضاً مجموعة القوانين الرومانية في مصر من القرن الثامن الميلادي المعروفة باسم P. Gnomon, 102

التي تتبع الامبراطور . ويجب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانا مطلقاً على هذه الولايات التابعة له ، يختار حكامها على النحو الذي يراه هو ويقيم في مناصبهم حسب ارادته الشخصية ، فهم نوابه وممثلوه شخصياً ، وممثلون أمامه فقط ، كما كان يحق له أن يصدر ما يشاء من النظم والقوانين في تلك الولايات بما يتفق وظروف كل واحدة منها . ولم يقتصر أغسطس في الواقع على ممارسة هذا السلطان في ولاياته فحسب ، بل نجده أحياناً يتدخل تلمحاً مباشراً في شئون الولايات التي تتبع الساتو ، كما حدث في تورين (برقة) وقبرص (١) . ولذلك لا ينبغي أن ينظر لسلطان السيادة الذي مارسه أغسطس في شئون مصر أعلى ته استثناء خاص بها .

رأينا أن أغسطس في تسوية عام ٢٧ ق.م. حاول أن يضعف من شأن مجلس الساتو ، وفي الواقع كان ذلك جزءاً من سياسة مقصودة تهدف إلى إضعاف طبقة ومجلس الساتو . وتنفيذاً لهذه السياسة العامة أنجبه أغسطس نحو العمل على زيادة أهمية الطبقة المتوسطة المعروفة باسم طبقة الفرسان *equites* وذلك بزيادة الاعتماد عليها سياسياً ، فوجدناه يعين حكماً من بين أفراد هذه الطبقة لولاياته الجديدة ، وفي الولايات القديمة ، حيث التقليد المتبع حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاة من أعضاء مجلس الساتو من القناصل والبريتورين السابقين ، نجده لا يميل إلى تعيين ولاة من فئة بروقنصل (أى من القناصل السابقين) - وهى الفئة الأرقى والأكثر أهمية من الناحية السياسية وأكثر خطورة من الناحية العسكرية ، ويعين حتى في الولايات الكبرى مثل الغالة واسبانيا وسوريا نواباً عنه من فئة البرو بريتور *legati pro praetore* الأقل أهمية ومن الأسر الأقل شأنًا (٢).

وفي حالة مصر ، طبق نظامه المتبع في الولايات الجديدة التي أضافها

Cambridge Ancient History, X. pp. 212, 214

(١)

Syme, Roman Revolution, p. 326. : Camb. Anc. Hist. p. 215

(٢)

هو إلى الامبراطورية ، فعين إليها praefectus من طبقة الفرسان (١) . ولكن لما كان لا يجوز لأفراد طبقة الفرسان — حسب التقاليد الدستورية الرومانية — أن يتولوا قيادة جيوش مكونة من الفرق الرومانية legiones والتي كان أمر قيادتها قاصراً على أفراد طبقة السناو (يحق للفرسان قيادة وحدات الامدادات العسكرية auxilia) فقد اتخذ أغسطس اجراء استثنائياً في حالة مصر فقط ، بأن منح والى مصر من طبقة الفرسان سلطة الامر يوم imperium (٢) التي تخوله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية (legiones) وحتى هذا السلطان الاستثنائي كان يتعين أن تقره الجمعية التشريعية في روما (٣) والسبب في اتخاذ هذا الاجراء غير العادى في حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس في ولاء طبقة السناو له : لقد تأمروا من قبل بقيصر وقتلوه ، كما امتحن أغسطس نفسه بتجربة قاسية على يدى انطونيوس وحليفته كلوديائرا ، حتى كادت من جراتها تتصدع الامبراطورية بأسرها .

ولما كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول اليها بسبب ظروف الملاحة قديماً وارتباطها بمواسم الرياح ، لذلك كان أغسطس يخشى أن يتمكن أحد أعضاء طبقة السناو من اكتساب ولاء الجنود لشخصه — بحكم حقهم التمثيلدى في قيادة الجيوش — ويستقل عصر (٤) . فيحرم روما من مصدر هام للتمتع ، مما قد يكون له عواقب خطيرة .

(١) كما يتضح من نص المؤرخ تاسيتوس السالف ذكره Hist. I, 11.

(٢) كما هو ثابت في النص سالف الذكر : Digest. I. 17.1 "imperium quod ad similitudinem proconsulis lege sub Augusto ei datum est."

A. H. M Jones, Legacy of Egypt p. 288.

(٣)

(٤) لمن من المناسب أن نذكر هنا أن الملك بطليموس اترمار كان قد أعيد إلى عرشه بمساعدة فرقة من الجيش الرومانى من رجال بومبي ، وكان قائده أحد رجاله المنسج جابينيوس ، وقد بقيت هذه الفرقة في الاسكندرية ولعل هذا هو السبب في أن بومبي حاول الفرار الى مصر بنذات بعد هزيمة فارسالوس . وقد حارب جنود جابينيوس ضد قيصر في حرب الاسكندرية (Bell. Civ. 110) ولابد أن أنطونيوس قد ترك في مصر جنوداً آخرين ، قد لا يبردون في الثورة ضد أغسطس إذا ما وجها لهم قائداً مناسباً ، كما أن المصريين وأهل الاسكندرية لم يكونوا راضين من الحكم الرومانى الجديد .

من أجل هذا كان الاجراء الاستثنائي الوحيد انذى طبقه أغسطس في مصر يتعلق باقصاء هذه الطبقة عنها ، فتح واتى مصر من طبقة الفرسان مسلمان الامبريوم لقيادة الجيوش كما منع أعضاء الساتو والشخصيات البارزة في روما من دخول مصر إلا باذن خاص من الامبراطور شخصياً . ويوضح هذه السياسة عبارة المؤرخ تاكيتوس المعروفة التى يقول فيها : «إن من بين أسرار توطيد حكم أغسطس أنه أمن مصر عن طريق منع أعضاء الساتو والشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها الا باذنه وذلك حتى لا يصيب أحد ايطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومناقلها البرية والبحرية ، فيصمد بقوة مهما كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة (١)»

وهكذا يتضح من هذا العرض الموجز أن مصر كانت ولاية رومانية تشبه من حيث وضعها الثانوى سائر الولايات التى كانت تتبع شخص الامبراطور وأن الاستثناء الوحيد في وضعها كان يتعلق بابعاد طبقة الساتو والأشخاص الخطيرين عنها ، وما عدا ذلك من حيث سلطة الامبراطور عليها وشخص الوالى وسلطاته المتعددة (٢) ومعاملة ما كان يرد منها من جزية أو قمع ، فقد كان متمشياً مع هو مألوف في ظل النظم الدستورية الرومانية في العصر الامبراطورى .

(١) لاحظ أنه يستخدم أيضاً كلمة "Provincia" Tacitus, Annales, II. 59.

حول هذا الأجراء أنظر أيضاً : Dio Cassius, 51. 17

(٢) Tacitus, Annales, XII 60.

EMERALD MINING IN EGYPT

A Long-Abandoned Industry

By

A. F. WEHEDA, M.A., Ph.D., (Lon.)

Department of Geography

Foreword :

Archeological research has proved beyond doubt that the Ancient Egyptians were not acquainted with many precious stones such as emeralds, diamonds, ruby and sapphires¹. Beryl of which emerald is the jewel form, does not occur until Ptolemaic times². However, the mineralogical terms of the Greeks and Arabs for emerald were lacking in precision. The Greek "Smaragdus" and the Arabic "Zamurrud" (at least in the early centuries of Arab administration) were all embracing including all minerals of the emerald species i.e., emerald matrix, beryl and peridot. This, perhaps, explains the tales of Herodotus and some Arab historians of emerald statues, obelisks and other curiosities³.

In this article an attempt is being made to show a long struggle of Man against one of the most inhospitable and desolate environment, in the hope of gaining one of the gifts of Nature, emerald and plenty of it. The search took him a long way from the Nile Valley where, at last, he found amidst the geological museum of the Red Sea Hills metamorphic mica-schists rich in beryls. The ruins of his mining settlements and workings are still evident over a wide area in the Sikait-Zabara district (Fig. 1.) Because of inaccessibility and distance (7 days

1. Granville, S. R. (Ed.) *The Legacy of Egypt*, Oxford, 1947, p. 15. Only were precious stones such as turquoise, lapis, lazuli familiar — see J. Wilson, *The Culture of Ancient Egypt*, Chicago, 1963, p. 128.

2. Ball, J. *The Geography and Geology of S. Eastern Egypt*, Cairo, 1912, p. J.

3. Thomas, E. S. "The mineral Industry of Egypt" *Precious stones: Emeralds* Cairo Sc. J. vol. III, No 28 1904 p. 267.

from the Nile Valley) the preparation of the gems had to be carried out on the spot, thus avoiding considerable expense and trouble in transporting bulky material. This in fact necessitated the establishment, where suitable, of seemingly long-lasting mining settlements (or encampments) served with wells and water reservoirs, watch towers worship places (temples and mosques) in addition to requisite stores and mechanical aids. Emerald mining, like that of gold and other precious stones (in the E. Desert and Sinai) was mostly the monopoly of the government exploited, at least in the Greco-Roman period, through the use of what seems to be a kind of forced labour. Intensive as this exploitation was, Egypt remained for 1,800 years or so the only source of World's emeralds. As a corollary, these stones must have been of good quality and not mere beryls as modern mining engineers allege. "It is hard to believe, states Murray, "that these so very extensive workings were excavated to obtain stones of poor quality" ¹.

I

THE ENVIRONMENT

To appreciate the conditions under which mining operations were conducted and miners lived, it may be useful to describe the physical environment which has underwent only slight climatic fluctuation since the opening of the workings in the 4th century B.C. ².

The renowned Sikait-Zabara emerald-producing district is situated in the hilly sector of the south Eastern Desert between latitudes 24° 37'—24° 47' N extending approximately from north to south for 15 kilometres. It may be of interest to note that Ptolemy places the Smaraggad Mt. (Gebel Zabara) a little higher than its true position. The journey to the mines took 7 or 8 days in which a distance of about 200 Kilometres had to be covered.

1. Murray, G.W., *Troglodytica. The Red Sea Littoral in Ptolemaic Times*" *Geog. J.* Vol. 133, part I March, 1967 pp. 24 — 33.

2. Huzayyin, S. "Changes in Climate, Vegetation and Human Adjustment in the Saharo-Arabian Belt," *Man's Role in Changing the Face of the Earth*, Ed. W. Thomas and Others, Chicago, 1955, p. 567 et seq.

Burner, K. "Environment and Human Ecology in Egypt". *Bull. Soc. geog. D'Égypte*. T. XXXII. 1954 pp. 63 — 74.

Speaking of the Eastern Desert in general, the most striking feature is its dissected nature. Dry wadis with their ramifications cut the desert into hill-masses and minor plateaux especially on the west and north, making it all the more inaccessible as we penetrate deeper into the Red Sea Hills. In their upper parts wadis resemble torrent beds, but gradually develop into long flat winding watercourses with cliffs of rocks on their sides, sometimes 20 feet in height and beds of sand and pebbles in which all the lithological constituents of the surroundings are represented. In the highlands, the predominant types of scenery are extensive sandy plains and gaunt, bare, rugged mountains, though barrenness becomes slightly relieved in the Elba Mountain which occupies the far south-eastern corner.

Land forms are mostly a reflection of solid geology. Thus stone plateaux side by side with granite bosses, spiky granite peaks over 1500ms. above sea-level, and broken masses of gneiss. Crushing of the older rocks igneous and metamorphic is almost everywhere evidenced. Good building stones abound, and a variety of minerals (gold, copper etc.) occur though in modest quantities¹.

The climate of the region is predominantly a desert type, though it becomes slightly moist eastward of the watershed which extends not far from the Red Sea coast-line. The change from the cold cloudy weather (in Jan and Feb.) to the typical hot weather of the desert, is brought about very suddenly by a change of wind direction. Cool north-west winds are felt in the north part, while hot damp winds from the south-east prevail in the south. The hot-dry, sand-laden "Khamsin" winds usually blow for four or five days together in March and April. They cause a sharp rise in temperature (over a 45°C. in the shade) and fill air with sand dust. Rain falls in most years, but its quantity is very variable, in some years there is barely enough to keep the wells replenished, and much of the scanty vegetation dries up; in others, heavy storms produce very rapid downrushes in the wadis, filling them for short periods with raging torrents. With the exception of Gebel Elba which is fairly wooded, the other mountains make a dreary waste of naked rocks². Both animal and plant life, however, is

1. Dall, J. (1912) *op. cit.* p. 23.

2. On Gebel Elba see "Gebel Elba" by I. R. Fahmy. *Fac. of Medicine, Cairo Pub. No. 7.* 1938.

mainly restricted to wadis, namely drainage lines. For reasons not yet fully understood members of the local fauna, notably, ostriches and zebras have recently disappeared, leaving behind vestiges of their past existence¹.

Water supply is everywhere scanty and is obtained from very widely scattered springs, rock pools (in the mountains) and wells sunk in the alluvial deposits of wadi-floors. Being entirely dependent on the rainfall, their yield is often barely sufficient for Man and Animal. The Eastern Desert possesses no artesian water-supplies similar to those of the oases of the Western Desert². In consequence it is only at very few places that any cultivation can be practised. This condition applies to the past as well. Of the sources of water, rock basins in the mountains yield the purest water and form the principal supply of pastoralists while springs and wells are mostly used by travellers and traders for their easier accessibility³. It is to be noted that the coastal plain is waterless except for salty wells near the sea.

A closer view of the Sikait-Zabara district (Fig. 1) will bring home the actual scene and the kinds of minerals, the ancient mining expeditions knew so well. Approaching the district from the south-east we shall come across Wadi Nugrus and thence up its tributary, Wadi Sikait, which drains Gebel Sikait from the west, the eastern flanks being drained by wadi Um Gamil. Gebel Sikait itself 771 ms above sea-level is a rugged ridge of schists and serpentine in the upper part situated in the midst of hilly country 14 kms south-east of Gebel Zabara and 24 Kms from the Red Sea as the crow flies. The district between Gebel Sikait and the sea consists of an expanse of low hills through which small wadis wind in and out. Towards the west, the hills are higher and beyond them is an arid plain. To the north and south mountains rise in the distance. Ancient miners found the Wadi Sikait a suitable

1. According to S. Huzayyin (*The Place of Egypt in Prehistory*, 1941) the contemporary conditions of aridity did not set in until after 2500 B.C. G. Murray (1951) on the other hand, concludes that the present climatic conditions set in after 500 B.C.

2. Ball, J. *Contribution to the Geography of Egypt* Cairo, 1952, p. 11

3. Mac Alister, D., "The Emerald Mines of N. Etbai", *Geog. J* Vol. XVI. No. 5, Nov. 1900, p. 548.

It has been found that the water of certain wells and springs is either purgative (due to the absorption of magnesium salt) or so salty as to be only drinkable by camels.

place to climb the mountain from. It was not a difficult ascent especially after the construction of a road now broken¹. The abundance of ruins near-by and the many old emerald mines met with at the foot of the mountain testify to the intensity of past exploitation. In addition to beryl, the mountain possesses a variety of minerals. Tourmaline, actinolite, various micas, chlorite, talc and crystals of calcite are among the commonest minerals available². Figure (2) represents a geological section of Gebel sikait made by D. Mac. Alister (1900) and it is apparent from the accompanying remarks (referred to by inserted numbers) how rich in minerals this Gebel has been³. Proceeding across the hilly

1. Roads were essentially built in the Eastern Desert to facilitate the movement of the Eastern trade. And wherever a road traversed the desert, some mineral more or less valuable was sure to turn up near the passes.

2. Mac Alister, op., cit. p. 543 -- 45.
See also Ball, J (1912) op. cit., p. 169 et seq.
Floyer, R. The Mines of the N. Eihai. Q. J. R. Asiat. Soc. Vol. XXIV, Oct. 1892, pp. 811 — 833.

3. Inserted numbers and what they indicate — see Fig. 1.

1. Coarse talc schist with graphite.
2. Hornblende rock.
3. Quartz.
4. Fissile mica schist and trough hornblende schist.
5. (Mined) Mica schist and impure talc schist, beryl.
6. Quartz porphyry (brownish — red crystals)
7. Fissile yellow quartzose mica schist.
8. Talc schist with graphite.
9. Quartzose mica schist.
10. Fissile mica schist chrysolite and talc schist in pockets.
11. (Mined) Quartzose mica schist, beryl.
12. Talc schist with ferruginous calcite nodules.
13. Micaceous hornblende schist.
14. Quartzose mica schist.
15. Coarse mica schist.
16. Schorl and tourmaline, actinolite.
17. Schorlaceous schist, fibrous.
18. Quartz reef.
19. Garnet rok (hornblende and quartz).
20. Quartzose hornblende schist.
21. Quartzose actinolic schist.
22. Fissile hornblende schist.
23. (Mined) Quartzose mica schist, beryl.
24. Talc schist with ferruginous calcite nodules.
25. Gneissen, rich in quartz.

country to the north west we come to Gebel Zabara, a mountain mass rising to 1,361 ms above sea - level and at the same time forms a southward extension of the Hangalia range. The mountain is drained on the north and east sides by feeders of the Wadi Gadir (especially wadi Zabara), while its western flanks, are partly drained by the wadi El-Noun. Gebel Zabara is chiefly made up of schists of various types with beryl veins extending in the north-east part¹. The ruins in the wadi Zabara near the old emerald mines, show that beryl was found at some 500 ms above sea-level.

II

EMERALD EXPLOITATION

Egypt's mineral wealth was to the Ancient World proverbial. This wealth essentially concentrated in the mountains rising east of Coptos and Appollonos and was exploited by the Ancient Egyptians if not by their predecessors. However, emeralds were among the gems that Egypt knew of late, probably not earlier than the time of the Greek domination (332 — 30 B. C.) Under the Ptolemies Egypt was in principle a royal domain and so regal rights were exercised all over the existing

-
- =
26. Gneiss.
 27. Coarse impure talc schist.
 28. Quartzose mica schist.
 29. (Mined) Mica schist, beryl.
 30. Talc schist with ferruginous impurities.
 31. Argillaceous mica schist.
 32. Fine - grained salty mica schist.
 33. Fissile hornblende schist.
 34. Fine-grained salty mica schist.
 35. Quartzose mica schist.
 36. Fine - grained micaceous hornblende schist, poor in hornblende.
 37. Jasper.
 38. Granite.
 39. Amphibolite rock, poor in hornblende.
 40. Argillaceous slate with dendrites.
 41. Impure talc schist.
 42. Schistose amphibolite rock poor in hornblende.
 43. Light spotted apple-green serpentine, chrysolite, rephite, and metamorphosed siliceous limestone.
 44. Subtranslucent green serpentine, olivine, and nests of talc schist which contain soluble salts, stockworks of actinolite.

1. Ball, J. (1912) op., cit. P. 169.

mineral wealth¹. In the same way mines were in Roman times controlled by the treasury and either exploited directly or worked by private contracts².

Our information on emerald mining in the Eastern Desert is derived from two main sources: 1. historical records and inscriptions 2. investigations carried out in recent years by certain explorers. Arabic documents furnish us with good information while Greek and Roman sources give no clue to many questions. It is the recent investigations that have enabled us to make a general characterization of this activity in antiquity.

The Greco-Roman Period :

The earliest direct reference to emerald exploitation in Egypt is made by Strabo (C. 63 B.C. — A.D. 24) who informs us that "on the road crossing the Eastern Desert between the Nile (Coptos) and the Red Sea there are the mines of peridots (obviously emeralds) and other precious stones "Here Arabians (the local inhabitants) excavate deep tunnels from which they extract emeralds"³ In all probability his "Traglodytes" or cave-dwellers worked in the mines.⁴ The road from Coptos to Berenice past the emerald mountains is mentioned with lists of halting stations and water reservoirs and their distances from each other both by Pliny (A. D. 24 — 79) and the writer of the Antonine Itinerary (A.D. 285—305). Appollonos (Arab Idfu) became at one time an important starting-station on the road to the mines. From it (Fig.3) the road ran past Bir Abad to a place called now Kanais, some 40 Kms from the Nile. Further on, it reached a place named Midrik. The next station was Samut, a place scattered with ruins. After Samut the road ran past Gebel Dweig where it joined that of Coptos. Further on, after passing over the watershed the road continued past Gebel Abu Had to the Wadi Gemal and thence up to the wadi Nugrus and Wadi Sikait to the mines.

1. Praaux, C. *L'Economie Royale des Lagides*, Bruxelles, 1939, pp.253—67.

2. Milne, J. A. *History of Egypt-Under Roman Rule*, London, 1924, p.16.

3. Kamel, W. *Strabo in Egypt*, Cairo, 1953, p. 112 (Arabic text).

4. Murray, G. (1967) *op. cit.*, p.p 24 — 33.

the other jewels for the peculiar virtues ascribed to it, the many purposes it may be put to and lastly for its light weight compared with other precious stones¹.

The Arab Period :

The same factors that were behind the exploitation of Egyptian emerald in antiquity i.e. the productivity of the mines and the wide and ever increasing demand for the stone continued in operation in Medieval Egypt. One is even inclined to state that emerald exploitation was more active and intense in the Middle Ages than in antiquity.

Qift then Qous replaced Idfu (old Appollonos) as the terminus of the road starting from "El-Khareba" (mining district)². Leaving "El-Kareha" the road crossed the watershed heading southwards to wadi Barramia thence it continued north-westwards partly following the wadi Hammamat before it reached Qous.

To quote Masoudi (10 the century A.D.) "Emerald is to be found within the administrative district of Qift, in southern upper Egypt. Thence the road to the mines begins. The place in which the mines are located is called El-khareba (the ruined) a mountainous desert. The Bedja (taken for the indigenous Abhada tribes) protect this place and receive royalties from whoever comes to dig the stone"³. Idrisi and Abu El-Feda refer to the mines and the roads leading to them but their description contains palpable errors. It is Makrizi (1364 — 1442) who furnishes us with a fairly informative account on emerald mines and their exploitation⁴.

According to this historiographer, it took from seven to eight days to reach the mines from Qous⁵. As to the mines they were located in the center of a chain of mountains and to the north of the highest

1. Masoudi, *Muruj Al-Tahab*, Vol. I, Cairo 1938, p. 329, (Arabic text)

2. Makrizi, *Al-Khetat*, Cairo, 1905 vol. I. p. 376

3. Masoudi *op. cit.*, p. 338

4. Makrizi *op. cit.*, pp. 313 — 318 and P. 376.

5. *Ibid*, p. 376

peak named "Karkashenda". An Arab manuscript entitled "Precious stones" written in 1182 A.D. by Abou El-Abbas El-Teisachi describes the talcose matrix in which the stones are found¹. Makrizi also speaks of two kinds of talc matrix, camphor talc and silver talc (as well as jeroui stone?). Emeralds, continues Makrizi, "are found in dark deep caverns where miners work with lamps and use guiding cords lest they lose their way in the labyrinth of passages, whence they dig the stones with pickaxes². With the utmost care emerald was then handled. "The newly extracted emerald is thrown into warm oil, wrapped in cotton and finally packed in linen"³. The reports of Masoudi and Makrizi reveal that the southern portion of the Eastern Desert (from which gold, copper and emeralds were extracted) was in the Arab period a prosperous land inhabited by warlike tribes of mixed origin. "The tribe of Rabi'a, states Masoudi, "mixed with the Bedjah (the natives) and as a result grew in strength and wealth⁴. Though under the protection of these nomads (whose chiefs received royalties) the mines were policed by soldiers and officers sent by the Sultan. However, it was through the agency of a certain contractor that the mines were worked. Furthermore, we are informed that a bureau with overseers and scribes looked after the mines and their labour force⁵. Miners wages and other expenses were being paid by the Sultan through this office. This in fact confirms our view that in the Arab period paid labour replaced the age-old forced labour of former times. The number of workers was never fixed. If the government became really anxious to increase emerald production many workers were recruited, and if for some reason or other it lost interest, the number decreased appreciably. A duty that overseers had to perform daily before the end of the working hours was a careful and scrupulous search privately applied to every worker lest he hid a precious stone. Yet despite this precaution some workers succeeded in getting away with gems⁶. As regards

1. For comment see. A.-M. De Rogiere Description de l'Egypte Vol. XXI. Paris D.M. ccv, xxvi, pp. 116 — 121

B. Quatremère, E. E. Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Egypte. Tome second, Paris, 1811, p. 174.

2. Makrizi op., cit., p. 313.

3. Ibid.

4. Masoudi, op., cit., p. 338.

5. Makrizi op., cit., p. 376.

6. Ibid., op., cit., p. 376

Arab mining settlements they represent a continuation of previous ones. Expectedly they were humble villages built up of rubble stones and stood close to the mines but slightly above the bed of wadis.

Abou-El-Abbas El-Teisachi (1182 A.D.) names six mines worked in his days, but the places referred to by these names, cannot be identified¹. Further though emerald was essentially extracted from subterranean pits, small amounts of inferior quality were found embedded in wadis floors. However, four kinds of emeralds came to be known as early as the tenth century².

1. El-Mur المر — very beautiful, costly and flawless, as brilliants and bright as white-beet.

2. El-Bahari (Maritime) البحري — myrtle coloured, prized by the kings of Sind India, Zinj and China.

3. El-Maghrebi (Occidental) المغربي — so named because it is much sought after by the kings of France, Lombardy, Andalusia, Galicia, Gascony and Russia.

4. El-Assum الأسوم — the commonest and most inferior, pale green and not brilliant.

Masoudi and Dimashki (10th and 14th century respectively) also distinguish the following four grades of emeralds³:

1. El-Thubabi الثبوبي — (likened in colour to that of the cantharides fly) is of true brilliant green colour and the most costly and precious of all. One carat of it may cost as much as 4 dinars.

2. El-Rihani الريحاني — (myrtle leaf hued) is a second grade stone but preferred by orientals and negroes.

3. El-Salki السلكي — White-beet coloured.

4. El-Saboni السابوني — has the appearance of Egyptian soap; being dull in colour is of little value.

1. M. De Rozière, op., cit., p. 120 et seq.

2. Masoudi, op., cit., 338 and p. 339.

3. Ibid.

Dimashki, Nukhbat El-Dahre, Leipzig, 1922, p. 76. (Arabic text).

Regarding the size of Egyptian emeralds El-Teisachi mentions that the biggest stones are from twelve to fifteen millimetres in diameter, the average being seven to eight millimetres¹. In terms of weight Masoudi gives five mithkals (three-quarter of an ounce) as the weight of the heaviest emerald found. But Makrizi cites a stone weighing one rotl (about one lb) and another found in 1286 A.D. weighing 165 mithkals (about 25 ounces)². The unanimity of Arab writers in their admiration of Egyptian emeralds and the world-wide reputation these gems had, go far to refute the assertions of modern engineers and jewellers who deny that the Egyptian mines ever have produced good stones. Furthermore, the early Arab jewellers who appreciated the value of high-quality gems considered Egypt the sole producer of the most precious emerald stones³. We are even inclined to suggest that in this period great efforts were spent to increase emerald production in order to meet an ever increasing demand at home and abroad. The prodigious amounts of emeralds bequeathed by members of the reigning dynasty⁴, and the unanimous admiration shown by foreign kings to certain Egyptian emerald stones, strengthen this view.

Of superstitions connected with the stone, Masoudi relates that its colour is said to improve early in the month and under the full moon, that the stones vary in abundance according to the season, weather, and origin of the blowing wind, and that the stones destroy the eyes of serpents that rashly gaze upon them⁵.

1. Thomas, *S. op. cit.*, p. 268

2. Makrizi-*Kitab Al-soulok* Vol. 2, 1st part Cairo, 1941, p. 12. (Arabic text) See also Taghri Bardī—*Al-Noujoum Al-Zahira* Vol. 8, Cairo 1939, p. 215. (Arabic text).

3. In this connection the well-known Arab writer El-Ga-hiz (9th century A.D.) states clearly in one of his essays that the best emerald stones in his days are imported from Egypt. See his "*Al-Tabassur Bittijarah*", Cairo 1935, p. 27 (Arabic text).

4. One of the daughter of Mo-izz, states Makrizi, "left at her death an ardeb (about five bushels) of emeralds" see Makrizi *Al-Khetat*. Vol. II, p. 263. Also of significance is the fact that the receipts from emerald mines were at one time assigned to the emirs, mamluks, and army. — Lane-poole — *A History of Egypt in the Middle Ages*, London, 1961, p. 304.

5. Masoudi, *op. cit.*, p. 339.

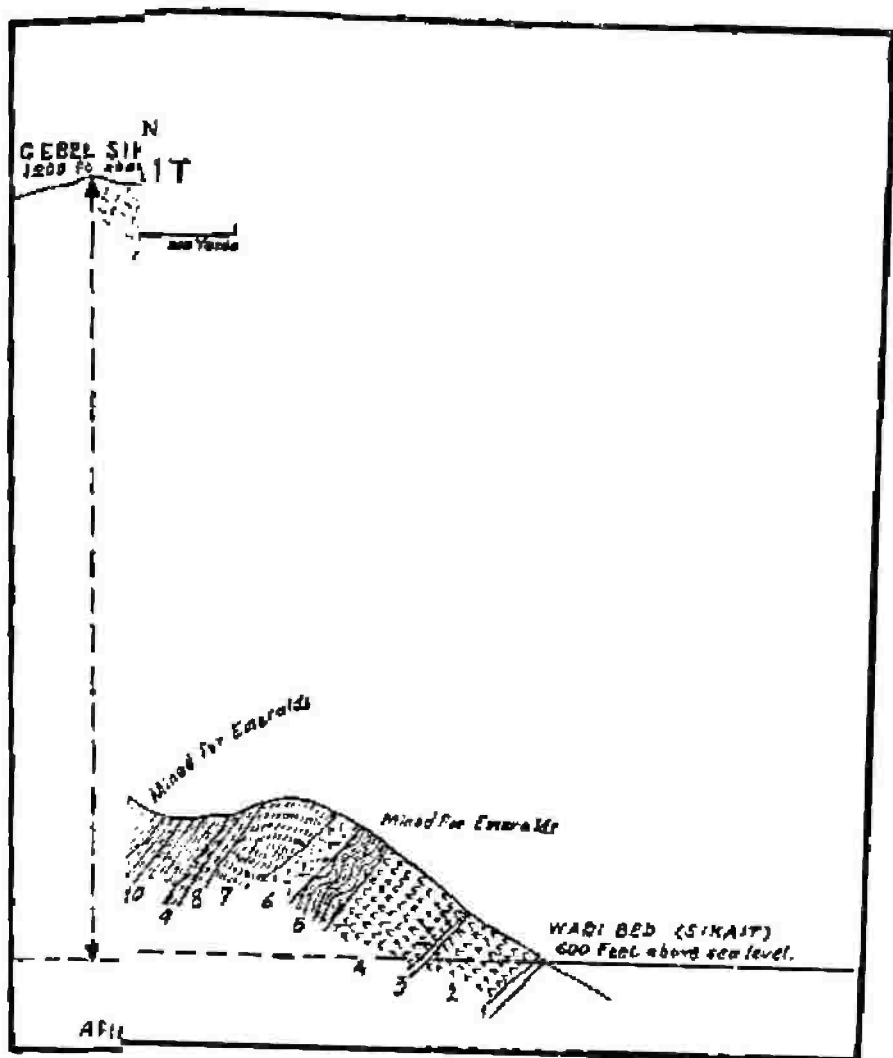
Emerald was carried from the mines to Cairo, thence it made its way to the far corners of the oecumene. It was coveted and highly-prized by kings for the many virtues ascribed to it. To mention a few, it was held to be a perservative against epilepsy, it cured dysentery and snake bites, it assisted women in childbirth, it drove away evil spirit, and because of its colour was believed to be good for eyesight.

After 18 centuries of active exploitation the mines showed signs of exhaustion and had to be abandoned. Makrizi approximately fixes the year 765 A.H. (c. 1365 A. D.) as marking the end of emerald mining in Egypt¹. But it is likely that production of inferior stones continued, though on a very small scale, untile Pizarro conquered Peru (1520), a new country rich in emerald². Thus, a mineral exploitation that increased Egypt's wealth and fixed Man's labour for so long at an inhospitable and desolate place, came to an end³.

1. Makrizi, *Al Khatat*. Vol. I. p., 376.

2. Ismailun, M., *op. cit.*, p. 188.

3. During the 19th century, and the early years of this century certain attempts were made towards re-opening the mines but they failed.



The Arab section of the survey follows the pattern of the main portion as closely as feasible. As *entrée en matière* we have the impressions made by the Cordovan court upon John of Gorze, envoy of Otto I; there follows a survey of historical and literary developments from the Moslem conquest of Spain to the abolition of the Cordovan caliphate. At this point comes a discussion of the *Dove's Neck Ring* of Ibn Hazm—one of the few pages of this section which recall the perceptive critical passages (such as those on the *Rhythmus of Modena* and on *Ruodlieb*) which, earlier in this volume, enliven the drier factual manner of the bulk of the exposition. With the courts of the *reyes de las taifas* — the nearest equivalent to the feudal signorial courts — the author is able to return to the identical method of regional survey which he uses in the earlier sections. This portion ends with an account of the two strophic forms of Spanish Arabic poetry, the *muwashshah* and *zajal*, followed, very abruptly, by a page on Sicily. It is a very great boon to have, after this, a bird's-eye view of the arguments for and against Arab influence upon mediaeval courtly literature. This includes a history of the controversy, beginning as far back as the sixteenth century, with Barbieri's supposition that rhyme is of Arabic provenance. Professor Bezzola divides the question into the study of genres, themes, and motifs on one hand, and of verse forms on the other, and ends with a carefully balanced judgement of his own.

It is often said that a reader is impressed by a work of synthesis until he comes to the topic he knows something about — when his eyes open to the deficiencies. If I say that this happened in my own reading of this volume, I must immediately qualify this criticism by emphasizing that the Arab portion of the work is marginal to the whole scheme. This may be the least sound portion of an impressive work, but it is not the weakest link in the chain, since it is only a pendentive to it.

It is stimulating to have a view of a fragment of the literary history of Arabic as seen by a comparativist with a general interpretation of cultural developments in mind; but, perhaps inevitably, there are distortions of vision which irritate. It is not clear if the purpose of this survey is pure comparison, or whether it is intended to throw light on the question of influences; in either case, one calls in doubt the delimitations and proportionate treatments of the topics discussed. Arab

Europe was not culturally a separate entity in the Arab world; as much as any other portion, it shared the heritage of Islamic civilization, and such new developments as affected Arab culture in general in the centuries reviewed. Professor Bezzola, by dealing only with the specific contribution of Spain, without filling in the background into which it fitted, gives it a false emphasis.

This does injustice to the Arab literature of Spain itself; thus though he accords it the priority for fully developed stanzaic verse, he does not (as Pérès and others have done) recognize the particular emphasis given in Spain to specific themes such as the description of gardens, and the use of flower symbolism. He does not sufficiently bring out the way in which Arab Spain made for itself out of the culture of the eastern Caliphate the stimulus of an admired and emulated model — thus though he does broach the subject (pp. 169 f.) as well as mentioning some of the comings and goings of texts, traditions, and scholars between Spain and the east (pp. 159, 163, 167, 170—71). This is regrettable, because the Spanish situation would throw light upon Bezzola's own view that classical culture played a similar rôle in mediaeval European secular developments. Presumably in an attempt to justify the ending of the survey with the eleventh century, we are told that '*La grande période de la littérature, de la philosophie et des sciences arabes en Espagne ira du xe au xie siècle.*' Yet Bezzola himself reminds us that Ibn Quzman, in whom he is particularly interested, lived to 1160, and the statement ignores three giants: Averroes (1126 — 98), Ibn 'Arabi and Musa ibn Maymun (Maimonides), to whom no one, surely, will deny the status of an Arabic philosopher. Professor Bezzola, like so many western observers, fails to understand the peculiar way in which Islamic civilization was at one and the same time so heterogeneous in its elements, and yet so uniquely itself; thus one cannot consider Ibn ul-Qutiyyah's history as representing a 'non-Arab' point of view (p. 171) simply by reason of the historian's being the son of a descendant of Witiza. The respected position which a poet was accorded at Arab courts is emphasized (p. 175), but although Professor Bezzola, in this same context, recognizes the existence of poetic taste among the middle classes, he reveals no awareness of a prime difference between

Arab and European culture at that time — the importance of cities in the first of the two. Ibn 'Abdi Rabbihi published (p. 166) 'tout un recueil composé de vers érotiques toujours suivis de poésies religieuses', Al-Zubayrī is known (p. 168 n 2) for religious and moral poems as well as poems of *fin' amors* : but the Arabic secular tradition was altogether very much more closely knit with religious considerations than such passing remarks show — as closely as it was also with linguistic studies, which receive scant treatment. Ibn Hazm not only, like Andreas Capellanus, ends his treatise with a *retraccioun*, but also begins it with one, using — as Chrestien de Troyes does in his *Lancelot*, words which lay some responsibility for the work upon the person who requested it. If the *Dove's Neck Ring* can be looked upon as a study in 'comparative love', is it entirely fortuitous that its author, a totally 'committed' Moslem theologian and a keenly observant humanist, should have written, in his *Kitāb ul milāl wan-nihāl*, one of the world's first works on comparative religion?

The details of literary and political history are not always exact, and are sometimes not stated in the clearest fashion. A reader not familiar with Arabic history will be puzzled by the incomplete reference on p. 156 to the 'premier Umayyade [sc. first Umayyad ruler of Spain] Abd el-Rahman Ier (776 — 788)', especially as the next page refers to him as the nephew of the 'dernier calif umaiyade [i.e. of the East], Marwan II (1750)', while p. 165 speaks of Abd ur-Rahmān III as the first Umayyad [i.e. of the West] to adopt the title of caliph. Well may Professor Bezzola warn us at the outset (p. 153 n 1) that the transliteration of names follows no uniform method : we have *rechez* for *rajaz* (p. 159), *Asdi Ibn Hani* for Ibn Hani' al Azdi (p. 168), *Amoish* for Al-Mu'izz (p. 168), and, throughout, the impossible form *Ibn 'Abd al-Rabbihi* for Ibn 'Abdi Rabbihi. The title of the *Sakuntala* is spelt in two different ways within the space of four lines (p. 190 n. 3). Misprints which would normally be unimportant can in a work of such a nature be a trap to the uninitiate: among names, titles and expressions misspelt are Ibn Yahyā (p. 169), *Siraj ul-muluk* (p. 167 n. 1), Ibn Bājja (p. 179), Ja'far (p. 182) and *ribatī* (p. 192). On p. 172, it is said of Ibn Hazm's grandfather that he was 'converti au christianisme': this surely should be

'converti du christianisme' ? There are double references to the same works and persons under different forms of the names, as well as in translated forms : thus Abū 'Alī ul-Kālī (167, 170), *Al 'iqd ul farīd* (pp. 164, 166) and *Siraj ul-mulūk* (pp. 167 n. 1, 179) are each twice introduced as new to the reader; p. 163n1 contains no sign that two of the works referred to in it are translations of the same book.

This type of error is not confined to matters of special knowledge, but threaten the common-sense of the exposition. We are given a general supposition that Ar-Ramādī 'devait être un poète d'amour raffiné' for Ibn Hazm to have singled him out as the perfect lover (p. 169); two pages later we are given a much more specific reason (his poems to a woman whom he had only glimpsed once in his life). On the same page we are told twice over that Hishām II's mother was a Basque; Amari's work on Sicily and Bloch's on feudalism are each referred to in full twice (pp. 182 n.1 and 185n.2; pp. 192n.1 and 198n.1). In an important footnote (p. 185 n.6) listing motifs, item no. 34 has dropped out. Ariaga's tract criticizing the theory of Arab influence is dated (p. 188 n. 6) "Venise, 1791"; the copy which the present reviewer owns was published in Rome in the same year : were there two impressions of it ? Sometimes the footnotes somewhat alter the argument in the text : thus the original Latin text of Alvaro's *Indiculus luninosus* (p. 161 n.1) makes it less indubitable than Dozy's translation (in the body of the text, p. 161) that it is Moslem (and not classical pagan) works which were distracting the attention of this ninth-century bishop's flock.

Professor Bezzola's work, in brief, though it is magistral in its broad lines, remains in parts something of a patchwork of which the tacking threads have not yet been removed.

For the readers of this book the survey of the debate on Arab influence upon European literature will be the most interesting part of this section. Its value would have been greater if it had been more systematic : the very fact that it is so detailed makes it look more on the one hand, the valid arguments among arguments scarcely had caught up on the work

A few examples of lacunae and weaknesses of different types may be cited. After Thomas Warton (p. 184) it would have been welcome to see a reference to Joseph Berington's *Literary History of the Middle Ages* (1814), especially since this work set out to do, in its leisurely and unprofessional manner, very much what Professor Bezzola has succeeded in giving us today. Complete with an appendix 'On the Arabian or Saracenic Learning', it is the work of a Bezzola of the Napoleonic period. There is no reference to the recent theory that Gerbert, who justly figures prominently in the main portion of this volume (e.g. pp. 52, 53, 58n.4, 74 n.5) studied Arabic thought and philosophy at Rippoll: this, if true, brings forward the effect of Arab learning on Europe by over a century (cf. p. 192 n. 3). The indebtedness of the *Divina Commedia* to Islamic eschatology is a notion that should not have been readily dismissed in 1960, some years after the *Liber scale* had been published. Arab influence on the fine arts and music may safely (*pace* Bezzola p. 183) be classed together with influence on the sciences, medicine, and philosophy, as 'un fait prouvé'. No attempt is made to adduce the evidence of indisputable influence upon European writers, such as is seen, later than the period covered, in Ramon Lull's use of *Kalīlah wa Dinnah*. In the discussion of parallel motifs in courtly literature, no comparison is made with oriental analogues (probably due to a much earlier wave of transmission) in popular romances such as *Herzog Ernst*.

Over stanzaic schemes there is some confusion. A distinction should be made between the overall scheme of the *muwashshah*, in which crossed rhyme occurs, and the usually monorime schemes of the *kharjah* of the *muwashshah*, which has a rough equivalent, in Middle English prosody, in the short-lined *wheel* at the end of a section of verse. There is certainly some reason to suppose that the *kharjah* is borrowed from lost Romance songs; but there is a 'proto-muwashshah' attributed to an eastern Arabic provenance and to the ninth century. (For recent contributions to this controversy, no fewer than three articles in one number (vol. xxi, fasc. 2) of *Al-Andalus* for 1956 may be adduced.)

Professor Bezzola's survey, which comes to no dogmatic conclusion regarding the transmission of verse-forms and the cult of *fin' amors*, should persuade any reader that the parallels between Arabic and European literature are, on these two points, too striking for a scholar of the European tradition to dismiss Arabic literature as 'exotic' to his theme. Even with no influence proven, the religious and cultural similarities (Bezzola, p. 199) are illuminating; but when a king of Seville, and patron of poetry, is shown to be descended both from a Yemenite tribe and from the Wisigothic rulers (p. 164), signs of inter-penetration must surely be carefully considered. A student of western love-literature who is at all interested in the interplay between faith and the emotions, the tender nostalgic sorrow with which a believer who is also a 'humanist' folds away the second-best raiment of his being, will inevitably take in at one glance the closing stanzas of Chaucer's *Troilus*, the last book of Andreas's *De arte honeste amandi* and the final sections of *The Dove's Neck Ring*, a book of which Professor Bezzola (p. 173) writes :

Le moule ovidien du 'Livre de la Colombe' est encore reconnaissable, mais le genre didactique à base sceptique s'est transformé, par l'inspiration d'un vrai poète et philosophe platonicien, en une charmante suite de scènes non seulement bien observées et décrites, mais profondément vécues. A côté du *Tawq al-hamama* d'Ibn Hazm, l'*Ars amandi* d'Ovide, malgré son raffinement formel tout pénétré de la sensualité la plus cynique, et le *De arte honeste amandi* d'André le Chapelain, dans la sécheresse de son exposition et de sa casuistique, font assez piètre figure.

MAHMOUD MANZALAOUI

SPAIN BETWEEN EAST AND WEST

By

ANTONIO IGLESIAS LAGUNA

Spain as an Eastern Country :

Among all the European nations having ever built a bridge between Eastern and Western civilization, Spain is perhaps the country that better preserved the Oriental heritage. Much better than Greece, Rome or Byzantium. Greece absorbed much of the Oriental cultures of her age, specially in her origins, but she remained Greek, I mean European, throughout the centuries. It is for this very reason that we, Europeans, talk about Greek culture and thought as the living source of our spiritual life. Rome, too, was imbued of Oriental spirit but for the Romans the Orient consisted only of far-off provinces that had to be protected and raised to Roman standards of civilization. Greece formed the European mind. (Byzantium should be considered as a kind of Christian bulwark able to resist the Asiatic onrush till 1453, in which year Constantinople was conquered by the Turks.)

Lastly, the great powers of modern Europe — England and France — came to the Orient with a view to subduing it. Colonization, Imperialism were means for a political task which besides the political enslavement included the diffusion of European ideas and habits but not the opposite, though the total impermeability was impossible. Those countries were more interested in (cheap) raw materials than in cultural values. The antagonism brought about the jealousy between both of them. In Egypt, for instance, England and France clashed in Napoleonic times. The invasion of Syria proved to be of no avail and Napoleon had to return to France in August, 1799, but this war only reflected the struggle for supremacy in the Middle East between both nations. Their colonial mentality is well illustrated, as Dr. Ahmad Anwar, Egyptian Ambassador in Madrid remembered in a lecture at Zaragoza, by the fact that the French Prime Minister, M. Jules Ferry, denied in the year 1885 before the French Assembly that the Human Rights Declaration may have anything to do with Negroes.

thern Spain. For the same reasons when France conquered Mauritania we took the necessary steps for protecting the Canary Islands. Britain, for instance, has more than once tried to convert these two Spanish provinces into a British colony.)

We are living today in a changing world, in a world where colonialism and imperialism are regarded as curses we cannot put up with. In this connection the Spaniards feel like all the Afroasian countries because we are still suffering under colonialism. We are sure of the final disappearance of colonialism, but in any case nobody can overlook the historical and geographical fact that Spain and Africa are complementary parts of a whole. Summing up, it is convenient to remind oneself that Spain, as regards her policies towards the Oriental world, has been conquered before conquering herself the tiniest bit of land; that Spain has lived under Oriental influence 2.500 years and only exerted her own influence during the last five centuries; that even in those bygone days when my country was a sea power in the Mediterranean she always fought a defensive war, never trying to rule over peoples, though this might have been possible in several occasions. It is therefore correct to speak of Spanish political inhibition (in the Mediterranean) as well as of a continuous trend towards friendship and cultural intercourse with Arab countries.

Spain learned very much from the Muslims, adopted their culture and established blood ties with them. We are proud of our Arab past. We believe that this common origin secures the continuity of our friendly relations with the Arab world. This community of ideals and interests gives its special flavour to our spiritual presence in the Oriental world though one must not forget that Spain is an European country and a Roman Catholic one. Our preference for the Arabic civilization has nothing to do with Imperial preferences or Imperial rights to be defended with warships, parachutists and airborne troops. It is the result of a common destiny. Kinships due to political domination, to a colonialist past are doomed to disappear, to show their real face. (Those who have to suffer under them will only be glad to see them in jeopardy, to free themselves from such „relatives“). The Holy Quran says in this connection : „And when the trumpet is blown there will be no kinship among them that day, nor will they ask of one another“.

Spain as a Western Country :

Nobody should think I am (trying to make amends for eventual errors in the past or) (suggesting to show (before your eyes) the image of one Spain) that could be an intergral part of the Mussulman world. Were this the case, one would have to explain how it is possible that my country be a Roman Catholic one, that no Muslim minorities live there like in Bulgaria or Poland, not to speak of our overwhelming Muslim population like in Albania. Of course not. Spain remains a part of Europe. Spain began her carrier as a modern nation with the discovery of America, in 1492, i. e. the same year of the Granada surrender. Nations must undergo a physical growth in order to achieve historical maturity. Important are only the elements composing national body. On the other hand Spain has absorbed Oriental elements during 25 centuries and they cannot be thought off, ignored, excluded without maiming the very framework of our soul. Nobody should, however, think these Oriental elements are the principal ones. To believe this is the usual error of some Arab historians, who mistake themselves and their readers by taking no account of our history as a whole, limiting their research to Muslim Spain. Why not to Greek, Carthaginian, Roman, Byzantine or Visigothic Spain? I don't wish to refute such an illustrious historian as Amir Ali but I cannot help to smile when I read these words printed in his famous „History of the Sarracons": "The Moors were banished; for a while Christian Spain shone, like the moon, with a borrowed light; then came the eclipse, and in that darkness Spain has grovelled ever since". The truth is just the opposite. After having achieved her national maturity in 1492, Spain rose during a couple of centuries to preeminence in Europe and throughout the world, attained her Golden Century. Her definitive political fall in 1898 has to be explained as the result of a hopeless struggle with rising European powers like Germany, France and Great Britain. Our downfall is logical due to the enormous task we took on our shoulders. The reasons for our decay should not be looked for in the existence or absence of Muslim communities in our country after 1492. Had Spain remained Muslim (until today) during those bright centuries) the European nations would not have spared her, just as they did not spare the Ottoman Empire, Persia, India or the Arab world.

I must reassert it. Spain is an European country though in a peculiar way having little in common with the Europeanism of Germany, Italy or France. Europe means for us something else. We are Europeans *as well, mainly* Europeans but not *exclusively* Europeans. (Just as the Russians are European and Asiatic at the same time.)

My country, due to her geographical situation lives inside a magic triangle : Europe, America and Africa. Not to understand this is the best way for misunderstanding Spain. The Frenchmen say „Africa begins at the Pyrenees”. Well, Africa may begin at the Pyrenees. We are proud of it, we don't forget there are racial links between the Iberian and the Berber tribes since prehistoric times. In spite of it Spain differs from Africa just as Africa differs from Spain. I consider necessary to lay stress upon this reality, (as Muslim historians went sometimes so far as to identify Mussulman Spain with Africa and the Orient. They wrote by the by pages of delicious candour about the Christian invaders of Al-Andalus.) The Spanish arabist Isidro de las Cagigas has proved that only a few thousand Muslims have been necessary for conquering Visigothic Spain. Including the Almoravide and Almohade troops who came thereafter, the Arab and African soldiers occupying the Peninsula during the famous eight centuries never supposed the bulk of our population, only a small part of it. To put it in other words, the Spanish Muslims have been no foreigners but mainly Spaniards converted to Islam. For this reason the reconquest was actually a civil war between christian and Musulman Spaniards.

Islamic toleration permitted the existence of big Christian and Hebrew communities in Al-Andalus. Marriages between Christians Muslims, military alliances between Christian and Muslim princes with a view to overrunning Muslim or Christian enemies have not been seldom but, as a matter of fact, the general inv. The case of Muslim Spain bears a striking likeness to that of Muslim India, though there is a capital difference : Muslim power was destroyed in the subcontinent by European nations, not by the natives themselves as it happened in Spain. (Therefore the outcome has been different : Spain remains today a compact, homogenous people; India is composed of peoples speaking many languages, belonging to many races, believing in many religions.)

Spain can be proud of her Arab heritage without forgetting her Christian tradition. The Muslim presence in the Peninsula enriched our spirit, changed it partially but it did not substantially modify a national genius which had had occasion for developping along original lines many centuries before the advent of Islamic civilisation. Let us not forget that Roman Spain supplied the Roman Empire with philosophers, economists, writers, poets and emperors. Thus, my country had the obligation of maintaining a culture, a spirit that had moulded our mind since the arrival of Greece and Rome to our coasts. Christianity came with the Romans and it intended to stay. The Reconquest was started in 718, seven years after the Visigothic defeat, and the rolling back could not be prevented by the Mussulmans. It seems exaggerated to speak of eight centuries of Muslim Spain. Forty per cent of the Iberian soil had been reconquered as early as 1065, at the death of Ferdinand I. The southernmost point of the Peninsula, Tarifa, fell in Christian hands in 1292. As a matter of fact Muslim Spain had been reduced to an enclave two centuries before the fall of Granada.

Please, bear also in mind that Christian Spain was not isolated from Europe. The European countries, Italy and France mainly, granted Christian Spain the cultural and spiritual support she barely needed for resisting the pressure of Islamic civilization that, as everybody knows, was paramount and better than our own during the first centuries of this confrontation. Roman tradition, Christian religion and European backing in this crucial period modeled Spain and made my country European for ever in spite of the Oriental marks and the spiritual ties with the American continent. Had Spain been forgotten like Albania, she would be toady a different land. History decided thus and to ignore its lessons seems the best way for misunderstanding a nation. (To overlook the permanent reality of Christian Spain amounts to forget the existence of Pharaonic or Ptolomaic Egypt. The vigorous personality of Egypt, if compared with that of other Muslim countries, has its roots in the historical grandeur before Islam. Nomadic peoples who never produced a great civilization possess a single cultural layer. This might be the case of the Eskimos not that of Egypt and Spain.

Arab and European Civilization :

Let us see Spain with European eyes. A German, a Briton, a Frenchman, a Scandinavian will tell you that Spain, considered as an European country, is a very queer one. They notice racial, spiri-

an European country, is a very queer one. They notice racial, spiritual, cultural differences we are always aware of. These traits are the sequel of our Oriental past, specially of our Arab tradition. In our literature, our folklore there are many traces of this Eastern trend. Spanish chivalry and hospitality have Islamic roots. The Spanish language, on account of our Roman ancestors, remains a Latin language up to the present day; has, however, adopted many thousands of Arabic and Persian words. The Spanish poetry uses strophes akin to the Arabic ones. Our early medieval poetry, as Damaso Alonso says, has not Provencal but Muslim origins. Our oldest poems contain Arabic and Spanish words gracefully intermingled. In present Spain there are many towns and villages the holydays of which — the feasts of Moors and Christians — call up those happy days in which bigotry did not hinder a common life. There is still a Spanish village, Benamahoma (Cadiz), i. e. the town of Mohammed children, where the warlike show always ends with a Muslim victory.

Thousands of Spanish geographical names have an Arabic origin. This happens because Al-Andalus was not simply a reservoir of Islamic civilisation but one of its chief centres. Muslim culture developped there nurtured by the Spaniards themselves, who fostered it with the same passion they put in the advancement of Roman culture. „Whatever can be done by sheer force of genius of the impulse of some ardent passion, whether in the physical or in the spiritual world, that a Spaniard has done“, writes the British historian Havelock Ellis. The same author remembers that the old Iberians formed part of a great Mediterranean race which reached from Spain to Africa, where they may still be seen in their present form, by the ancient called Lybians, by the modern Kabyles and Berbers. A kinship that maintains itself due to the Carthaginian presence in Spain that explained even in Roman days, the curious affinity between Africa and Spain in the resemblance in literary spirit between the Latin African writers and Spanish writers.).

Muslim Cordova could boast of a cultural christian tradition several centuries old going back to Hosius, Seneca and Lucan. It flourished in Cordova the highest civilization of its time, its university was the chief centre of European learning, and Albucasis, Abenzoari Al Hazem (and Averroes) were the chief scientific luminaries. Any way I must repeat it, they were Spaniards who developped a Muslim culture just as centuries before other Spaniards had developed in

the same place the Roman and Christian civilization. Spain was always an active, dynamic agent of Muslim learning. When the Spanish Muslims were compelled to leave the Peninsula they tried to maintain alive their cultural tradition on African soil; but having been deprived of their roots they did not succeed in the long run and brought forth a mimetic civilization, a constant repetition of the glories of Al-Andalus.

The interest for Muslim culture will on the other hand be kept alive by Christian Spaniards who travel through Africa and Asia and sometimes accept Islam. For instance, Leon de Granada, whose real name was Hassan ben Mohammed, born at Granada in 1491, author of a (giant) "Description of Africa" (1526); Luis de Marmel Carvajal, who lived 22 years in Africa, principally in Tunisia, author of a "General Description of Africa" (1573); Ali Bey el Abbasl, already referred to; Hach Mohammed el Bagdadi (José Maria de Murga), and Sheikh Ismail (Joaquin Gatell).

I have pointed out the survival of Christian Spain inside Muslim Spain. This survival accelerated the Reconquest. The Christian kingdoms of North Spain kept a watchful eye on these fellow-believers and tried to establish their rule over them. The Reconquest must therefore be considered as a roll-back, as a turn of the tide, as a civil war between both communities and not as a Spanish invasion of the Spanish fatherland). Codera has proved that many Latin languages and dialects were spoken in Al-Andalus, where Arabic was simply the official language. Latin was at the same time employed for literary and canonical purposes; the Christians of the VIII-XI centuries could not of course create a civilisation rivalising with that of Cordova. They lived on scanty books and had no libraries like that of al-Hakem II. Therefore the great writers of this period are Muslims like Algazal, Ibn Abd el-Rahiml, Aben Hanl, Azzobaidi, Habid, Radia. It is the great age of *zéjel* and *muwassaha*. But the Christian tradition instead of dying away lives underground, in Cordova itself, thanks to the scholarship of men like Sperainden, Saint Eulogius, Paulo Alvaro and Abbot Sanson. Notwithstanding the Muslim civilization grows and the Christian decays. In the days of Abd-ar-Rahman III there are in Cordova only a few Christian intellectuals, who later on migrate to Northern Spain, attracted by the intellectual revival of Cluny in the XII century. Parallel to it, Mussulman learning fades away in Al-Andalus from the XIII century onwards. Abul Beka, Alwacaxi and Aben Cueman are the last representatives of a folk fighting now not for literary

supremacy but for physical survival. The Spanish language is born, the great medieval authors write their masterpieces, the Spaniards acquire slowly the sense of nationality and they do their best in order to bring the whole country under their rule.

Summing up

Spain has enjoyed the Oriental influence during many centuries but, I must reassert it, she never forgot her European roots. Present Spain is the result of this encounter and peaceful meeting of East and West. The Western world prevailed at the end but the Oriental traits are there and nobody can deny them. It is for this reason that Spain means a compromise between both cultures. She is the only European nation who can boast of an Oriental heritage without being indeed an Oriental country. In the days of Spanish hegemony in the world our historical destiny held us aloof from the Muslim world and sent us across the seas to create our own civilization in the Western Hemisphere. Notwithstanding the Mussulman world was never forgotten and the Spanish speaking countries overseas have also got something from the essences of the Spanish soul. The mudéjar architecture, that of Muslim architects working in Christian Spain, could be the best exponent of this. Mudéjar, a style which you can find in America in the cathedral of Santo Domingo, in the house of Diego Colon, in Santo Domingo de Tunja, in San Francisco de Cartagena. Finally, let us remember there are big Syrian, Turkish and Libanese colonies in South America bringing together the Arab and Spanish ideals. The similarity between both of them has paved the way for cultural movements considered impossible one hundred years ago, for instance the revival of Arab poetry. Is it not surprising that some of the greatest Arab poets of this century were born in the Western Hemisphere? Poets like Fawzi Maahuf and Al-Karawi born in Brazil, like Younan Khulil Youbran and Naima born in the USA, like Ilias Qonsul born in Argentine. Ilias Qonsul is a bilingual poet writing both in Arabic and Spanish.

Spain, a nation between East and West, a country that although it belongs to the West is proud of her Oriental ancestry. The only European land that has treasured the best essences of the Arab soul and can therefore say that its friendly relations with the Muslim world are deep-rooted and everlasting. Spain a country with European mind and Arab soul.

Antonio Iglesias Laguna

NATURE IN THE EARLY POEMS OF MATTHEW ARNOLD

By

OMNIA RIAD GINDY

The "dissolving agencies of the eighteenth century and the fiery storm of the French Revolution" ¹ had destroyed, for Arnold, the basis of Europe's spiritual life. To him the grand business of "modern" poetry was to supply anew such a basis, to give a *moral* interpretation, from an independent point of view, of man and the world, and, therefore, it was that for him, as for Epictetus, the "concern how to live" became the best and master thing. ² This concern lies behind, and accounts for, his seemingly inconsistent dealings with Nature. His attitude remained the same throughout, and it is best reflected in the relevant poems he himself put in the *Selections* of 1877, namely, *Quiet Work*, *Parting*, *Self-Dependence*, *Morality*, *A Summer Night* and *Lines Written in Kensington Gardens*. These reveal a dualistic frame of mind in which two modes of perception co-exist without coming into conflict with each other. In the first place, he chose to see and represent nature as exempt from the bewildering and benumbing influences to which poor uprooted man was subjected; hence, as a healing power for

"The complaining millions of men
(who) Darken in labour and pain".

(from *The Youth of Nature*)

In this Arnold was not altogether treading a solitary path. Wordsworth writing in 1800 saw with concern "the increasing accumulation of men in cities". ³ By the 1840's the modern industrial city, the

1. M. Arnold's *Poetical Works*, ed. C. B. Tinker & H. F. Lowry, London, O.U.P. 1950. Pp. 498-99, from Arnold's note on Senancour.

2. See Arnold's Preface to his edition of *Poems of Wordsworth* (Macmillan, London, 1947) Pp. xvi-vii.

3. *English Critical Essays : XIX Century*, World's Classics, P. 6.

creation and symbol of the liberal, machine-ridden society, was in full existence. In the new environment the loss of the sense of community, and the pain of doubting attending on the breakdown of traditional ways of thought combined to transform the romantic love of nature into the nostalgia for a lost world of peace and companionship, of quiet minds. As Mr. Houghton puts it, "The image had its basis in memory, for every Victorian in the city had either grown up in the country or in a town small enough for ready contact with the rural environment".¹ The nature poetry of the Victorians and their landscape painting in a sense were meant to counterbalance their loss of fellowship with nature. To Ruskin, architecture was, "as far as may be ... to tell us about Nature, to possess us with memories of her quietness".² This attitude was not mere escapism; or if it was, at least, it is escapism based on experience. The countryside was seen as a true spiritual retreat which could rescue men from the infection of urban life — its utilitarianism, its selfishness, its wear and tear on body and soul. Arnold's view of the therapeutic power of nature was delicate, instinctive and never blatantly didactic. In *Lines Written in Kensington Gardens*, a poem reminiscent of Wordsworth's *Reverie of Poor Susan* and Marvell's *The Garden*, amidst "men's impious uproar" and the "city's jar", Arnold perceives that "here is peace for ever new", that the universal values he sometimes deems dead still abide in the "Calm soul of all things", and repose and consolation ensue. He had not as yet been seriously caught up in the toils of the Machine of the Inspectorate, but the intellectual and spiritual atmosphere he matured in, the experience of living at Fox Howe, his wrecked passion for Marguerite had made him find in the grand still forms of the snowy mountains and in the stars of the firmament, a perpetual source of consolation and an ideal of tranquillity to which "this poor exaggerated sur-excited humanity"³ could aspire. In the violence of parting with Marguerite, Arnold desires to be lifted up and made one with a great wild energy :

1. W. E. Houghton : *The Victorian Frame of Mind 1830-1870*. Yale University Press, 1957. Page 80.

2. *Selections from the Writings of John Ruskin* (n. d.) London, George Routledge & Sons. New York, E.P. Dutton & Co. Page 175.

3. Letter to Clough, 23 October 1850, in M. Arnold's *Letters to A. H. Clough*, ed. & introduced by H. F. Lowry, London, O.U.P., 1932. Page 116.

"Ye storm-winds of Autumn !
Who rush by, ...

.....
Ah ! with you let me go"

(from *Parting*)

but it is only to go where the deep stillness of the mountains and the icy torrents of Obermann are to soothe him and cure him of his confusion.¹ However, it is in *Quiet Work*, the very title of which epitomises what Arnold held nature to mean to man, that he expresses his views explicitly :

"One lesson. Nature, let me learn of thee,
One lesson which in every wind is blown,
One lesson of two duties kept at one
Though the loud world proclaim their enmity—
Of toil unsever'd from tranquillity !

.....
Yes, while on earth a thousand discords ring,
Man's fitful uproar mingling with his toil,
Still do thy sleepless minsters move on ..."

The poem stood as the motto to the 1853 Volume of Arnold's poems and in the final arrangement of the collected poems it was the first one in the book. Therefore, "it is clear that (he) regarded it as of primary importance with respect to his poetry and to his philosophy of life".²

In that age of "discords" Arnold saw that only in active employment could men hope to retain their equilibrium. In 1848 he tells Clough, "If you mean to do nothing why not emigrate? Shake yourself... For God's sake don't mope, for from that no good can come".³ Four

1. Cf. Letter to Clough Sept. 1849 (op.cit. P. 110). "I carry my aching head to the mountains and to my cousin the Bhunlis Alp."

2. Tinker, C.B., & Lowry, H. F., *The Poetry of Matthew Arnold . A Commentary*, London, O.U.P., 1940. Page 22.

3. Letter to Clough, (*Letters* Page 84) June/July 1848.

months later, he writes, "I desire you should have some occupation—I think it is desirable for everyone, very much so" for the poor subjective, depth-hunter, Clough.¹ He himself found in the grinding work of the inspectorate a partial relief from the mental and spiritual discomforts he used to experience: "I am sometimes in bad spirits, but generally in better than I used to be".² Writing to a friend, he quotes, "Rien ne sauve dans cette vie-ci que l'occupation et le travail."³ This same quotation with others stressing the need of work occurs several times in his Note-Books. But Arnold was no mere propagandist for the Victorian gospel of work. True, he had experienced in his own mental history the partial wisdom of Carlyle's injunction to close one's Byron and to open one's Goethe and that he had in 1851 to take on the arduous task of inspecting Dissenter's schools spread over a very wide area; but the field in which he chose his living was that of education, where he could be in touch with both the workings of the outside world and of the human mind. He had not betrayed his old desire to see his way to the "firm intelligible law of things and thus to get a basis for a less confused action and a more complete perfection than we have at present"⁴. This is the Apostle of Culture speaking, the one who condemned all mechanical action and mere doing that was divorced from a pursuit of inward perfection. The young poet of 1848 was no less a firm believer in Culture and no more indulgent of blind intense activity, directed to no formative end. What he admired in Nature was precisely its "Quiet Work": it was quiet because the "firm intelligible law of things" seemed to find its fulfilment therein:

"Still do thy sleepless ministers move on,
Their glorious tasks in silence perfecting,
Still working, blaming still our vain turmoil".

(from *Quiet Work*)

1. Letter to Clough (*Letters* Page 88) 12 August, 1848.

2. Op. Cit. P. 122, 7 March, 1852.

3. M. Arnold's *Letters*, collected and arranged by G. W. E. Russell, London, Macmillan, 1901. Page 260.

4. M. Arnold's *Culture and Anarchy*, London, John Murray, 1949. Page 122.

To Arnold, then, the appearances of nature "could provide a consoling power for man and could stand as a mute criticism of human activity".¹ but in no way did he ever exalt nature at the expense of man. The nature-versus-man situation which Arnold created in his poems was always a temporary hypothesis postulated in order to redirect man to the primary law of his being. There is no essential contradiction between *To an Independent Preacher and Morality*, on the one hand, and *Self-Dependence* and *A Summer Night*, on the other. The three last mentioned poems always formed a group whenever they were republished, the order of *Morality* and *Self-Dependence* sometimes being reversed. The poems figure both in the Collected Edition of the poems and in the Selections. They follow from the poet's reflections on man's fate in face of "Progress" and "Revolutions", and in *Self-Dependence*,

"Weary of myself, and sick of asking
What I am, and what I ought to be",

he returns to address the stars, the "labourers" of *Quiet work*,

"Ye who from my childhood up have calm'd me,
Calm me, ah, compose me to the end !"

In contemplating the vastness of the heavens Arnold hopes to find release from that sense of constriction implied in the last lines of *Revolutions* :

"One day, thou say'st, there will at last appear
The word, the order, which God meant should be.
— Ah ! we shall know *that* well when it comes near;
The band will quit man's heart, he will breathe free."

To the poet's desire for self-expansion comes the "air-born" answer

"Wouldst thou be as these are ? Live as they.
Unafrighted by the silence round them,
Undistracted by the sights they see,...

1. W. A. Jamison, *Arnold and the Romantics*, Rosenkilde & Bagger, Copenhagen, 1958. Page 2.

... self-poised they live, nor pine with noting
All the fever of some differing soul.

...
In their own tasks all their powers pouring,
These attain the mighty life you see"!

The poet, instead of being merged into the Universe, is sent back to actuality, and the "word, the order which God meant should be" is

"Resolve to be thyself; and know that he,
Who finds himself, loses his misery".

(from *Self-Dependence*)

Nature is there to suggest moral values to man, but the laws which govern her are separate and distinct from those which govern human life. Religious impulses being a "mystery", man has to rely upon self-control or conduct in the ordering of his life; however, once he perseveres in that "strife divine" in his "struggling, task'd morality", a moral nature relinquishes her assumed superiority and, in a sense, even directs man to the Creator :

"... that severe, that earnest air,
I saw, I felt it once — but where ?

...
"Twas when the heavenly house I trod,
And lay upon the breast of God".

(from *Morality*)

To "rest" in nature is to deny one's humanity, to betray one's higher and spiritual self :

"Know, man hath all which Nature hath, but more,
And in that more lie all his hopes of good".

Yet, even when

"Man must begin ... where Nature ends;
when Nature and man can never be fast friends",

(from *In Harmony with Nature*)

Arnold does not hesitate to praise Nature for its strength and coolness — that would not confuse the issue for him. To confuse the Independent Preacher, who should have known better than to cry up nature as a complete guide for human conduct and whose Nonconformity seems to have exasperated him, Arnold brings in the nature of contemporary silence, "red in tooth and claw". The desire to find in nature the same spiritual qualities as those of the human soul is "unworthy of a man full-grown". Man and nature subscribe to different orders of being :

"To its own impulse every creature stirs;
Live by thy light, and earth will live by hers !"
(from *Religious Isolation*)

In *A Summer Night* his recurring worry over the fate of man having cast him from the heights he attained in *Morality*, Arnold finds himself faced with a prospect of two alternatives in neither of which could man attain self-fulfilment. He is loath to be "by passion quite possess'd" or "quite benumb'd by the world's sway". In his restlessness and misery, the clear, pure heavens, who remain "A world above man's head", perform their function and "let him see

"How boundless might his soul's horizons be".
that between the fates of "Madman or slave"
"How fair a lot to fill
Is left to each man still ! "

The close following of this conclusion by *The Buried Life* cannot but be significant.

In *The Youth of Nature* and *The Youth of Man*, occasioned by the poet's visit to Rydal and Grasmere and by the recent publication of *The Prelude*, Arnold becomes preoccupied with the Berkeleyan as to whether nature lives in itself or in the eye of the beholder. Nature asserts her objective life and triumphantly sings of her immortal

"Loveliness, magic, and grace".
(from *The Youth of Nature*)

In *The Youth of Man*

"Murmur of living,
Stir of existence,
Soul of the world"

are invoked as a revitalising force to the "dying spirit of youth". However, in both poems there is the underlying feeling that it is because of man's weakness that nature has her hour of triumph :

"Yourself and your fellows ye known not; and me,
The mateless, the one, will ye know ?"

(from *The Youth of Nature*)

It is the faded ignoble lives of the disillusioned aged couple, led "within the walls of an ever narrowing world"¹ that bring out by contrast the eternal freshness and youth of nature. The last lines of *The Youth of Man* — lines of dubious poetic value — make the point clear :

"Sink, O Youth, in thy soul !
Yearn to the greatness of Nature;
Rally the good in the depths of thyself !"

One of the reasons why the solitary Empedocles plunges into the crater of Mount Etna is his desperate wish to acquire vitality and self-expansion by uniting himself with the elements, but in Act II of *Empedocles on Etna* Arnold has ceased to identify himself with his protagonist. It is in the Stoic address to Pausanias in Act I Scene I that Arnold sums up his considered, dualistic attitude to nature. A Spinozistic, neutral nature fulfils its own laws regardless of man²; nevertheless, this fact need not deter man from picturing in it any moral or spiritual values which may conduce to his happiness. On the one hand,

"Nature, with equal mind,
Sees all her sons at play,

1. From *The Youth of Man*,

2. Cf. *Essays* (London, O.U.P. 1936) by Matthew Arnold : "Marcus Aurelius", Page 239, where Arnold objects to the idea that "the whole course of the universe has a providential reference to man's welfare".

Sees man control the wind,
The wind sweep man away;

Allows the proudly-riding and the foundering bark",
on the other

"Is it so small a thing
To have enjoy'd the sun ?"

It is on the light of this double-sided attitude that one is to take
Nature's words :

"Loveliness, magic, and grace,
They are here ! they are set in the world,
They abide; and the finest of souls
Hath not been thrill'd by them all,
Nor the dullest been dead to them quite".

(from *The Youth of Nature*)

To conclude from these lines that Arnold clings to the belief that moral values are objective in nature "because he needs an extrapersonal ethical reliance"² is misleading. In keeping with his view, natural scenes or landscapes in Arnold's poetry generally appear exactly as they would to an extremely observant neutral looker-on.

Arnold was not at heart a true Wordsworthian poet of nature. For him any line of thought or set of beliefs ceased to be valid once its vital relationship to the problem of living could no longer be perceived. He realised, for instance, that rationalism and scientific investigation had created an unfathomable gulf between the romantic and early Wordsworthian concepts of nature and the analytic, utilitarian climate of mid-nineteenth century thought. Hence he felt quite justified in dismissing Wordsworth's philosophy as an illusion, "a tissue of elevated but

1. *Empedocles on Etna*, Act I Scene ii, lines 257-261; lines 397-8.

2. H. N. Fairchild, *Religious Trends in English Poetry, 1830-1880*. New York, Columbia University Press. 1937. Page 489.

abstract verbiage, alien to the very nature of poetry"¹. Arnold was generous in his praise of Wordsworth after the latter's death, but in *Stanzas in Memory of the Author of 'Obermann'*, written in 1849, he does not fight shy of pointing out that "in this our troubled day" the secluded Wordsworth attained to see his way only by averting his eyes from "half of human fate". To the believer in humanism, to one who held that "the spectacle of a writer striving evidently to get breast to breast with reality is always full of instruction and invigoration"², this was a grave shortcoming.

1. From Arnold's Preface to *Poems of Wordsworth*, Page xix.

2. *Letters to ... Clough*, Page 36, 20 July, 1848.